أسست عام ١٣٨٥ هـ - ١٩٦٥ م

الوعي الإسلامي

AL-Waei AL-islami

مجلة كويتية شهرية جامعة

العدد (٦٠٣) ذو القعدة ١٤٣٩ هـ - أغسطس - سبتمبر ٢٠١٨م

مجانا مع العدد: «براعم الإيمان»

الوحدة الوطنية واجب الوقت

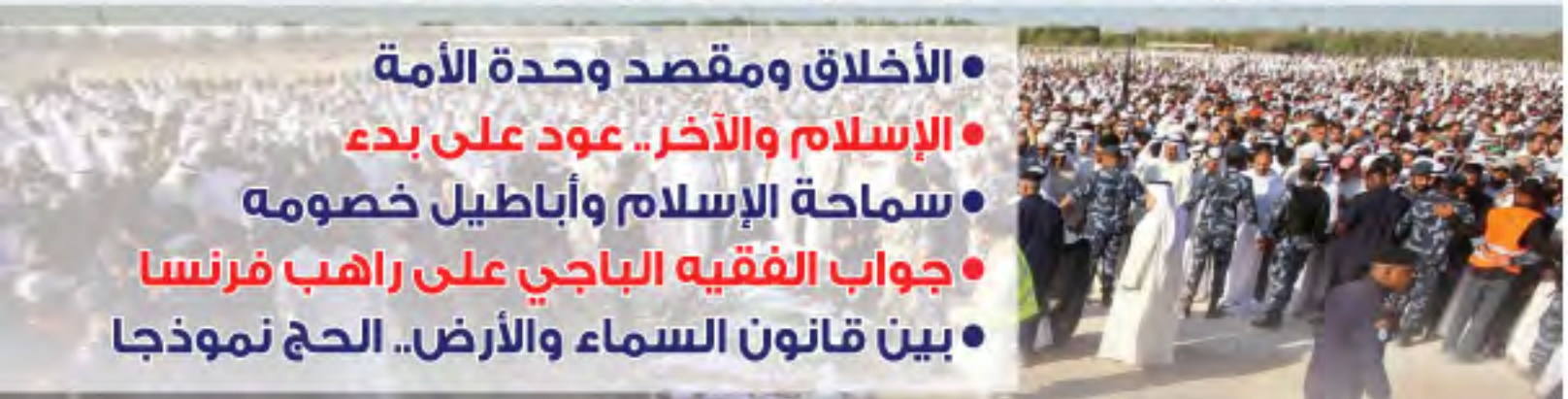

- الأخلاق ومقصد وحدة الأمة
- الإسلام والآخر.. عود على بدء
- سماحة الإسلام وأباطيل خصومه
- جواب الفقيه الباجي على راهب فرنسا
- بين قانون السماء والأرض.. الحج نموذجا

هدية العدد: مؤشر تخريج الحديث

info@alwaei.com | www.alwaei.gov.kw | مجلة الوعي الإسلامي

الافتتاحية

الأعمال بالسوابق

لما كانت السابقة مستورة عنا، والخاتمة ظاهرة، جاء في الحديث «إنما الأعمال بالخواتيم»، كالوعاء، إذا طاب أعلاه، طاب أسفله، وإذا خبث أعلاه، خبث أسفله، وأن ذلك مقدر بحسب الأعمال، وأن كلا ميسر لما خلق له من الأعمال، التي هي سبب للسعادة أو الشقاوة، والتعويل على كرم الله وفضله ورحمته، وأن دسائس السوء الخفية توجب سوء الخاتمة.

وللنفس حالتان، حالة استراحة إن حرمتها إياها كلّت، وحالة تصرّف إن أرحتها فيها تخلّت، فالأولى بالإنسان تقدير حاليه، فإن لها قدرا محدودا، وزمانا مخصوصا، ومن عاش لشيء مات عليه، ومن مات على شيء بعث عليه، وينبغي أن يقسم حالةَ تصرّفه ويقظته على المهم من حاجاته، ويتصفح ما صدر من أفعاله، فإن كان محمودا أمضاه، وإن كان مذموما استدركه إن أمكن، وانتهى عن مثله في المستقبل، وقد قيل: من كثر اعتباره، قلّ عِثاره.

فإياك والأمر الذي إن توسعت

مواردهُ ضاقت عليك المصادر

فما حسن أن يعذر المرءُ نفسَه

وليس له من سائر الناس عاذر

والأعمال بالخواتيم، إما أن يوقظ قبل موته بمدة يتمكن فيها من التزود بعمل صالح يختم به عمره، أو يوقظ عند حضور الموت فيوفق لتوبة نصوح يموت عليها، فالتوبة التوبة قبل أن يصل الموت النوبة، فيحصل المفرط على الندم والخيبة، فكن أيها العاقل مقبلا على شأنك، واجعل نصح نفسك غنيمة عقلك، ولا تداهنها بإخفاء عيبك، وإظهار عذرك وهذّب نفسك، بإنكار عيوبك، فإنه من لم يكن له من نفسه واعظ، لم تنفعه المواعظ.

رئيس التحرير

فيصل يوسف العلي

الوعي الإسلامي

مجلة كويتية شهرية جامعة

تصدرها وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية
في دولة الكويت مطلع كل شهر عربي
العدد ٦٠٢ | شوال ١٤٣٦ هـ
العام الثاني والخمسون
يوليو - أغسطس ٢٠١٥م

رئيس التحرير
فيصل يوسف العلي

مدير التحرير
فهد محمد الخزي

سكرتير التحرير
سليمان خالد الرومي

التحرير
عبادة السيد نوح
د. الطاهر خذيري
هدايت الله نثار أحمد

الإخراج والجرافيك
أبورواش زكي محمد
فاطمة الجندي

الإشراف الفني
الشركة العصرية
للطباعة والنشر والتوزيع

المراسلات

رئيس التحرير - مجلة الوعي الإسلامي
صندوق البريد : ٢٣٦٦٧ الصفاة ١٣٠٩٧
الكويت - هاتف:٢٢٤٦٧١٣٢ - ٢٢٤٧٠١٥٦
فاكس: ٢٢٤٧٣٧٠٩
للإعلان : ١٨٤٤٠٤٤ داخلي - ٣٠١
البريد الالكتروني:
info@alwaei.com
الموقع الالكتروني:
www.alwaei.gov.kw
مكتب مصر : دار الإعلام العربية-٤٣ شارع
دجلة - متفرع من شارع جامعة الدول العربية
- المهندسين - الدور الأول - مكتب ١٠٤
تليفاكس: ٠٠٢٠٢٣٣٣٦٤٠٤٣
alwaei@arabmediahouse.net

المجلة غير ملزمة
بإعادة أي مادة تتلقاها للنشر.
والمقالات لا تعبر بالضرورة
عن رأي المجلة.

في هذا العدد

٣٤ البيوع الفاسدة

٥٤ لغة التدريس بين الفصحى والعامية

٧٠ المكتبة المنزلية.. غائب نتمنى عودته

٧٨ مدرسة الأمر الأول

التوزيع

وكيل التوزيع: شركة الشبكة الدولية للدعاية والإعلان والنشر والتوزيع
هاتف: ٢٤٩١٥١٠٦- ٢٤٩١٥١٠٧ (٠٠٩٦٥) - فاكس : ٢٤٩١٥١٠٩ (٠٠٩٦٥)

- مصر - القاهرة - شارع الصحافة - جريدة أخبار اليوم - ت: ٢٥٧٨٢٧٠٠ (٠٠٢٠٢) ف: ٢٥٧٨٣٥٤-(٠٠٢٠٢)
- اليمن - صنعاء - الدار العربية للنشر والتوزيع ت - ف: ٣٣١٧٩٧ (٠٠٩٦٧)
- لبنان - شركة نعنوع الصحفية - ت: ٦٥٣٢٥٩(٠٠٩٦١١) ف: ٦٥٣٢٦٠
- سوريا - دمشق - برامكة - ص.ب ١٢٠٣٥ - ت: ٢١٢٤٨٣١ (١١ ٠٠٩٦٣) ف: ٢١٢٨٦٦٤ - المؤسسة العربية السورية لتوزيع المطبوعات
- الأردن - عمان - شركة وكالة التوزيع الأردنية - ص.ب ٣٧٥ . رمز بريدي ١١١١٨ - ت: ٤٦٣٠١٩١(٠٠٩٦٢٦) ف: ٥٣٣٧٧٣٣
- المغرب - الدار البيضاء - ص.ب ١٣٦٨٣ - ملتقى زنقة رحال بن أحمد وزنقة سان ساتس - ٢٠٣٠٠ الدار البيضاء ت: ٢٢٤٠٠٢٢٣ (٠٠٢١٢) ف: ٢٢٤٩٥٥٧ - الشركة الشريفية
- مملكة البحرين - المنامة - ص.ب ٣٢٦٢ - ت: ٧٢٥١١١ (٠٠٩٧٣) ف: ٧٢٣٧٦٣ - مؤسسة الأيام للنشر والتوزيع
- الإمارات العربية المتحدة - ت: ٢٦٨٣٨٥٣ ٠٠٩٧١٤ - شركة دار الحكمة للنشر والتوزيع
- المملكة العربية السعودية - الرياض - ص.ب ٨٤٥٤٠ الرياض ١١٦٧١ - ت: ٤٨٧١٤١٤ (٠٠٩٦٦١) ف: ٤٨٧١٤٦٠ - الشركة الوطنية الموحدة للتوزيع الشريفية للتوزيع والصحف
- سلطنة عُمان - مسقط - ص.ب ٤٧٣ العذيبة . رمز بريدي ١٣٠ - ت: ٢٤٤٩٣٢٠٠ (٠٠٩٦٨) ف: ٢٤٤٩٣٣٠٠ - مؤسسة العطاء للتوزيع
- قطر - الدوحة - ت: ٢٤٤٩٣٣٠٠ (٠٠٩٧٤) دار الشرق للصحافة والطباعة والنشر.
- ماليزيا- شركة - المصطفى ميديا جروب سندرين برحد - ت- ٣٣٧١١٩٦٦ (٠٠٦٠٣)
- الجزائر - شركة ام بي سي ت: ٣١٩٠٩٥٩٠(٠٠٢١٣)
- تونس - الشركة التونسية للصحافة ت: ٧١٣٢٢٤٩٩ (٠٠٢١٦)
- المملكة المتحدة - لندن - شركة يونفرسال ت : ٢٠٨٧٤٢٣٣٤٤ (٠٠٤٤) .

الأسعار

الكويت : ٥٠٠ فلس • السعودية: ٥ ريالات • البحرين : ٥٠٠ فلس • قطر : ٥ ريالات • الإمارات : ٥ درهم • سلطنة عمان: ٥٠٠ بيسة • الأردن:دينار واحد • مصر : ٢ جنيه • اليمن : ١٠٠ ريال • لبنان: ٢٠٠٠ ليرة • سوريا: ٣٠ ليرة • المغرب : ١٠دراهم • الجزائر: ٤ دينار جزائري • تونس: دينار واحد تونسي • المملكة المتحدة: ١,٥ جنيه استرليني • باقي دول العالم : ٣ دولارات أمريكي أو مايعادلها.

المحتويات

٣	**الافتتاحية/** الأعمال بالسوابق	فيصل يوسف العلي
٦	**تزكية/** بين الثقة بالنفس والثقة بالله	د. فرغلي هارون
٨	**حوار/** د. غنايم: استمسك بالدين تجتز المرحلة الصعبة	آية سرور
١٢	**فكر/** أثر التوجهات السياسية في العلوم الدينية	د. محمد أبحير
١٤	**أعلام/** العلامة الخضر حسين.. مجاهد بالقلم واللسان	صلاح رشيد
١٨	**خواطر/** بكل فخر أضعت هويتي	أسماء السكاف
٢٠	**استطلاع/** الأصالة في جامع ابن طولون	التحرير
٢٤	**ملف العدد/** رحلة العمر	د. آندي حجازي
٢٨	تتويج لعمر من العمل	السنوسي محمد السنوسي
٣٠	تطبيقات التواصل الاجتماعي.. مسالك الخير	مصعب ناصر
٣٤	**اقتصاد/** البيوع الفاسدة	التحرير
٣٦	**سيرة/** المنهج النبوي في اختيار الأسماء	د. محمد سعد
٣٨	**دراسات/** تطبيق الحدود في ضوء مقاصد الشريعة الإسلامية	أحمد عبدالجواد
٤٢	الوحي ومنهجية المعرفة التاريخية	د. عطية الويشي
٤٦	إدارة الأزمات وتدافع الحجيج	د. رضا عبدالحكيم
٥٠	**لغة وأدب/** القول المأثور في إحياء الصواب المهجور (٣٥)	عبدالله أيت الأعشير
٥٢	العودة للديار	مياسة النخلاني
٥٤	لغة التدريس بين الفصحى والعامية	سالم بن عميران
٥٧	الرسالة	محمد عباس
٥٨	أحمد شاكر الكرمي	د. محمود خلف
٦٠	عثرات الأقلام (٤)	التحرير
٦٢	**مقدمة الكتب/** الإنصاف في معرفة الراجح من الخلاف	التحرير
٦٤	خواطر/ صور من ذكاء الصحابة	نجاح عبدالقادر
٦٦	**أسرة/** تنمية روح الإبداع عند الطفل	محمد شعطيط
٦٨	الأهمية التربوية لتقدير الذات	الزبير مهداد
٧٢	المكتبة المنزلية.. غائب نتمنى عودته	عثمان إسماعيل
٧٤	حتى لا يعاندك المراهق	د. محمد طونيو
٧٦	**أخلاق/** أفشوا الثناء.. بين صفوف العاملين	هنادي الشيخ نجيب
٧٨	**استطلاع/** مدرسة الأمر الأول	تركي النصر
٨٢	**الوعي الشبابي**	خالد خلاوي
٨٤	**كنوز الذاكرة**	التحرير
٨٦	**الوعي الحضاري**	د. عمرو عبدالكريم
٩٠	**النوازل**	د. محمود الكبش
٩٢	**ينابيع المعرفة**	التحرير
٩٤	**بريد القراء**	علاء عبدالفتاح
٩٨	**مسك الختام/** التحليق نحو باب الله	د. محمد سعيد باه

كلمة العدد

خاتمة السعادة

يا له من سعد حين يختم عمر العبد بخاتمة حسنة؛ فيوفق قبل موته لعمل صالح يقبض عليه؛ فعن أنس بن مالك ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا أراد الله بعبده خيرا استعمله»؛ قالوا: كيف يستعمله؟ قال: «يوفقه لعمل صالح قبل موته» (رواه أحمد)، ومن أكرمه الله بذلك جاءته البشارة عند موته برضوان الله ورحمته وجنته، واستحقاق كرامته؛ تفضلا منه تعالى ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾﴾ (فصلت:٣٠).

وفي صحيح مسلم من حديث أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها أنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه، ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه»؛ قالت: فقلت: يا نبي الله! كلنا نكره الموت.. فقال: «ليس كذلك، ولكن المؤمن إذا بشر برحمة الله ورضوانه وجنته أحب لقاء الله، وإن الكافر إذا بشر بعذاب الله وسخطه كره لقاء الله وكره الله لقاءه».

إن آخر ساعة في حياة الإنسان هي الملخص لما كانت عليه حياته كلها؛ فمن كان مقيما على طاعة الله سبحانه؛ بدا ذلك عليه في آخر حياته؛ والعكس بالعكس عياذا بالله. لما احتضر عمر ابن عبدالعزيز - رحمه الله -، كان آخر ما تلفظ به قوله تعالى: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾﴾ (القصص:٨٣).

التحرير

الاشتراكات

- داخل الكويت : للأفراد ٧,٥ دنانير ـ للمؤسسات ١٥ دينارًا كويتيًا
- دول العالم : للأفراد ٢٠ دينارًا كويتيًا (أو ما يعادلها).
- الدول العربية : للأفراد ١٠ دنانير كويتية (أو ما يعادلها).
- للمؤسسات: ٢٥ دينارًا كويتيًا (أو ما يعادلها).

ترسل قيمة الاشتراكات في شيك إلى وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية (الرجاء عدم إرسال مبالغ نقدية)

بين الثقة بالنفس والثقة بالله

د. فرغلي هارون
باحث في علم الاجتماع

يعتقد البعض أن هناك تعارضا بين الثقة بالنفس من جهة، والثقة بالله عزوجل والاعتماد عليه والتوجه إليه في طلب الحاجات ودفع المكروهات من جهة أخرى. والحقيقة أن هذا اعتقاد خاطئ، فالثقة الحقيقية بالنفس لا تعني الاعتماد عليها والركون إلى قدرتها دون الالتجاء إلى الله تعالى، بل إن من كمال الثقة بالنفس إحسان الظن بالله تعالى، والاعتماد والتوكل عليه دون تواكل.

لكن الذي يتعارض مع الثقة بالله تعالى هو الإفراط في الاعتداد بالنفس وتفضيلها على الغير، أو ما يعرف بالزهو أو الإعجاب بالنفس والغرور والتعاظم والكبرياء، والتي تعتبر أنواعا من الثقة الزائفة بالنفس، وهي دليل على ضعف الثقة الحقيقية بالنفس؛ فكلما كان الشخص مبالغا في غروره وإعجابه بنفسه ويرى أنه أفضل من غيره، دل ذلك على أنه في أعماق نفسه يفتقد الثقة الحقيقية بنفسه، كما قال إبليس: ﴿قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ ۖ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾ (ص:٧٦)، أو كما قال فرعون: ﴿أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾ (الزخرف:٥٢)، أو كما قال قارون: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ۚ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا﴾ (القصص:٧٨).

وقد ذم القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة الزهو والكبر والتعالي على الناس، وذلك لأن الزهو والإعجاب بالنفس يؤديان إلى التعاظم والتعالي على الناس ومعاملتهم بتحقير واستكبار. قال تعالى: ﴿وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ (لقمان:١٨)،

وقال رسول الله ﷺ: «لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر» (رواه مسلم في صحيحه حديث رقم ١٣٦).

أما الثقة الحقيقية بالنفس فمنبعها اعتقاد الواثق بنفسه أن جميع قدراته وإمكاناته إنما هي من نعم الله تعالى عليه، وإن فعاليتها إنما هي مرهونة بعون الله تعالى وتوفيقه له، وبذلك ينجو بنفسه من فخ الغطرسة والتعالي والغرور.

والثقة بالنفس هي حسن اعتداد المرء بنفسه، واعتباره لذاته، وقدراته؛ حسب الظرف الذي هو فيه، دون إفراط من عناد وكبر، ودون تفريط من ذلة وخضوع غير محمود. فتقديرك لنفسك واحترامها وتقدير قيمة صفاتك الشخصية وإنجازاتك التي حققتها، مع الإقرار بأن كل ذلك من فضل الله عليك وتوفيقه لك، هو المعنى الحقيقي للثقة بالنفس.

أما الثقة بالله فتعني: تعلق القلب بالله عزوجل، وتوكله عليه، وتفويض الأمر إليه، مع الأخذ بالأسباب. وتعني: الغنى عن المخلوق مهما كان مركزه أو نفوذه، والالتجاء إلى الله وحده؛ إيمانا ويقينا بأنه وحده سبحانه الذي بيده الأمر كله، ومنه النفع كله، وإليه يرجع الأمر كله.

والثقة بالله سمة تميز المؤمن الحقيقي الصادق العارف بربه جل وعلا، المتيقن من وعد الله ووعد رسوله ﷺ الذي أيقن أن الله قادر على كل شيء ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾ (الأنعام:١٨)، فاطمأنت نفسه، وزال خوفه من كل مخلوق.

وأيقن أن الله لا يعجزه شيء ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَىْءٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا﴾ (فاطر:٤٤) فاستعصم به دون غيره، وسلم إليه وحده.

وأيقن أن الله معه يراه ويرعاه ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ

مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعۡرُجُ فِيهَاۖ وَهُوَ مَعَكُمۡ أَيۡنَ مَا كُنتُمۡۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ (الحديد:٤)، وأنه الأقرب إليه من كل شيء، ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌۖ أُجِيبُ دَعۡوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِۖ فَلۡيَسۡتَجِيبُواْ لِي وَلۡيُؤۡمِنُواْ بِي لَعَلَّهُمۡ يَرۡشُدُونَ﴾ (البقرة: ١٨٦)، ﴿وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ وَنَعۡلَمُ مَا تُوَسۡوِسُ بِهِۦ نَفۡسُهُۥۖ وَنَحۡنُ أَقۡرَبُ إِلَيۡهِ مِنۡ حَبۡلِ ٱلۡوَرِيدِ﴾ (ق:١٦)، فتوكل عليه وحده، وقصده وحده، ولم يخش أحدا سواه، ولم يقصد بابا سوى بابه، عملا بقول رسول الله ﷺ: «إن ربكم تبارك وتعالى حيي يستحي من عبده إذا رفع يديه إليه أن يردهما صفرا» (رواه أبو داود في سننه حديث رقم ١٤٨٨)، ويقينا بقول النبي ﷺ: «ما على الأرض مسلم يدعو الله بدعوة إلا آتاه الله إياها، أو صرف عنه من السوء مثلها، ما لم يدع بإثم أو قطيعة رحم»، فقال رجل من القوم: إذن نكثر، قال ﷺ: «الله أكثر» (رواه الترمذي في الجامع حديث رقم: ٣٥٢٦).

وأيقن أن أمر الله مرهون بكلمة، ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ (البقرة:١١٧)، ﴿إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ (يس:٨٢)، فجعل ثقته في الله وحده، واستعان به وحده، ولم يسأل سواه.

وأيقن بقضاء الله وقدره، ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوۡلَىٰنَاۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾ (التوبة:٥١)، ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مِّن قَبۡلِ أَن نَّبۡرَأَهَآۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ﴾ (الحديد:٢٢)، ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ وَمَن يُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ يَهۡدِ قَلۡبَهُۥۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ﴾ (التغابن:١١)، فاطمأن قلبه، وامتلأ رضا وتسليما لأمر ربه، ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدۡ جَمَعُواْ لَكُمۡ فَٱخۡشَوۡهُمۡ فَزَادَهُمۡ إِيمَٰنٗا وَقَالُواْ حَسۡبُنَا ٱللَّهُ وَنِعۡمَ ٱلۡوَكِيلُ﴾ (آل عمران:١٧٣).

وأيقن بوعد الله له ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ لَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾ (البقرة:٢٧٧)، ﴿إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصۡبِرۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ (يوسف:٩٠)، ﴿مَا عِندَكُمۡ يَنفَدُۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٖۗ وَلَنَجۡزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓاْ أَجۡرَهُم بِأَحۡسَنِ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ (النحل:٩٦). ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجۡرَ مَنۡ أَحۡسَنَ عَمَلًا﴾ (الكهف:٣٠)، ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ غُرَفٗا تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ نِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ﴾ (العنكبوت:٥٨).

فكان من ثمرة هذا اليقين:

التسليم لحكم الله، ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ﴾ (البقرة:٢٨٥).

والتسليم بقضاء الله، والرضا بقدره في كل الأمور، ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدۡ جَمَعُواْ لَكُمۡ فَٱخۡشَوۡهُمۡ فَزَادَهُمۡ إِيمَٰنٗا وَقَالُواْ حَسۡبُنَا ٱللَّهُ وَنِعۡمَ ٱلۡوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَٱنقَلَبُواْ بِنِعۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضۡلٖ لَّمۡ يَمۡسَسۡهُمۡ سُوٓءٞ وَٱتَّبَعُواْ رِضۡوَٰنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضۡلٍ عَظِيمٍ﴾ (آل عمران:١٧٣-١٧٤).

وكان من ثمرة هذه الثقة الكاملة بالله عزوجل، أن زادت ثقته بنفسه، واعتداده بكرامته، وزال معها كل خوف أو قلق أو توتر، وتمتع معها بالرضا والهدوء والسعادة، واكتملت صحته النفسية.

تلك الثقة التي نجدها في محمد ﷺ وهو في الغار والكفار على بابه يطلبون رأسه، ﴿إِذۡ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحۡزَنۡ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَاۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيۡهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٖ لَّمۡ تَرَوۡهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلسُّفۡلَىٰۚ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِيَ ٱلۡعُلۡيَاۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٞ﴾ (التوبة:٤٠).

تلك الثقة التي نجدها في إبراهيم، عليه السلام، عندما ألقي في النار، فقال بعزة الواثق بالله: «حسبنا الله ونعم الوكيل»، فجاء الأمر الإلهي: ﴿قُلۡنَا يَٰنَارُ كُونِي بَرۡدٗا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ﴾ (الأنبياء:٦٩).

تلك الثقة التي نجدها في المجاهدين القائمين على أمر الله وبأوامره في كل زمان ومكان، ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدۡ جَمَعُواْ لَكُمۡ فَٱخۡشَوۡهُمۡ فَزَادَهُمۡ إِيمَٰنٗا وَقَالُواْ حَسۡبُنَا ٱللَّهُ وَنِعۡمَ ٱلۡوَكِيلُ﴾ (آل عمران:١٧٣)، فكانت نتيجة هذه الثقة ﴿فَٱنقَلَبُواْ بِنِعۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضۡلٖ لَّمۡ يَمۡسَسۡهُمۡ سُوٓءٞ وَٱتَّبَعُواْ رِضۡوَٰنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضۡلٍ عَظِيمٍ﴾ (آل عمران:١٧٤).

ومن هنا، فلا تعارض بين الثقة الحقيقية بالنفس والثقة الحقة في الله؛ فالثقة بالله هي المنبع الحقيقي والأصيل للثقة الحقيقية بالنفس، وهي الزاد الذي لا ينفد، والوقود الذي لا ينضب، التي يجب أن نبني عليها وبها ثقتنا بأنفسنا. وعندما تكتمل ثقتنا بأنفسنا نكون قد استكملنا ركنا مهما من أركان صحتنا النفسية.

القاهرة – آية سرور:
دار الإعلام العربية

د. غنايم: استمسك بالدين تجتز المرحلة الصعبة

أكد د. محمد نبيل غنايم أستاذ الشريعة بكلية دار علوم جامعة القاهرة، أن المسلمين يعيشون هذه الأيام مرحلة صعبة، أضحى فيها الإسلام غريبا، موضحا أن أولى خطوات الخروج من هذا الوضع أن يقوم العلماء بمحو الأمية الدينية، وتحسين صورة الإسلام في الشرق والغرب، ونشر السماحة ومكارم الأخلاق.

• يموج العالم الإسلامي حاليا بمجموعة من المتغيرات.. فما تقييمك للوضع اليوم؟

– العالم الإسلامي في هذه الأيام يمر بمرحلة صعبة جدا، وقد تنبأ بها رسول الله ﷺ منذ البعثة النبوية الشريفة، حين قال: «بدأ الإسلام غريبا، وسيعود غريبا كما بدأ، فطوبى للغرباء، قيل: يا رسول الله، من الغرباء؟ قال: الذين يصلحون إذا فسد الناس»، وما أكثر الفساد في هذه الأيام، حيث تنتسب إلى الإسلام فئات متعددة، وهي أكثر ما تكون إضرارا بالإسلام وتشويها له، وتقوم بتصرفات هي أبعد ما تكون عن صحيح الإسلام، وإنما يسعى أعداء ديننا من خلال الترويج لمثل تلك الأفعال المشينة إلى تشويه صورة الإسلام في الشرق والغرب، بينما الإسلام بريء من كل هذه الممارسات والسلوكيات الخاطئة، فهو رسالة رحمة للعالمين، كما قال الله تعالى لنبيه ﷺ: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٠٧﴾(الأنبياء:١٠٧)، وقال رسول الله ﷺ: «يا أيها الناس، إنما أنا رحمة مهداة»، وقال الله تعالى للرسول ﷺ: ﴿فَبِمَا رَحۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمۡۖ وَلَوۡ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلۡقَلۡبِ لَٱنفَضُّواْ مِنۡ حَوۡلِكَۖ فَٱعۡفُ عَنۡهُمۡ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ وَشَاوِرۡهُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِ﴾ (آل عمران:١٥٩)، وقال أيضا: ﴿خُذِ ٱلۡعَفۡوَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡعُرۡفِ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡجَٰهِلِينَ ١٩٩﴾ (الأعراف:١٩٩)، وقال تعالى: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ فَمَنۡ عَفَا وَأَصۡلَحَ فَأَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۚ﴾(الشورى:٤٠)، وعلى الرغم من كل ذلك، لايزال هناك مسلمون يسيرون على هدي الإسلام، وهدي رسول الله ﷺ وأصحابه الأبرار. ونحن لا نفقد الأمل، ولا نيأس من رحمة الله، ونستبشر خيرا بعودة الوعي الصحيح، والأمن والأمان والاستقرار للبلاد العربية والإسلامية.

الاستمساك بالدين سبيل النجاة

• وكيف نتخطى هذه المرحلة الصعبة؟

– نتخطى هذه المرحلة بعدة أمور: الأمر الأول هو ما نصح به الله رسوله ﷺ في قوله تعالى: ﴿فَٱسۡتَمۡسِكۡ بِٱلَّذِيٓ أُوحِيَ إِلَيۡكَۖ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ٤٣ وَإِنَّهُۥ لَذِكۡرٞ لَّكَ وَلِقَوۡمِكَۖ وَسَوۡفَ

تُسْـَٔلُونَ ﴿٤٤﴾﴾ (الزخرف:٤٣-٤٤)، فعلينا أن نستمسك بالقرآن الكريم، وما فيه من توجيهات وإرشادات، ونعود إليه بكل صدق وإخلاص، ونعتز به في كل مكان وزمان، رغم أنف الحاقدين والمعتدين، الأمر الثاني هو الاستمساك والمحافظة على السنة النبوية المطهرة لرسول الله ﷺ وأصحابه رضوان الله عنهم أجمعين، حتى نعيد الوجه المشرق للإسلام، الذي كان في المدينة المنورة، والذي حققه رسول الله ﷺ وصحابته الأبرار، من وحدة الأمة، والتآخي في الله عز وجل، والتعاون على البر والتقوى والإخلاص، والعمل بمبادئ الإسلام وأركانه، وفي ذلك يقول رسول الله ﷺ: «تركت فيكم ما إن تمسكتم به، لن تضلوا بعدي أبدا كتاب الله، وسنتي». فالقرآن الكريم هو كتاب الله، والسنة النبوية هي النور المبين، يقول عز وجل في كتابه العزيز: ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾﴾ (المائدة:١٥-١٦)، ومن هنا تقع المسؤولية الكبرى على العلماء في محو الأمية الدينية الموجودة بين الناس، وتحسين صورة الإسلام في الغرب والشرق، ونشر السماحة ومكارم الأخلاق التي جاء بها ديننا الحنيف، وبذلك مع الصدق والإخلاص واليقين في نصر الله يعود للإسلام مجده. وليس بعيدا علينا أو غريبا عنا أن رسول الله ﷺ ذكر أن من علامات الساعة الكبرى نزول عيسى- بن مريم، ودعوته للإسلام،

على العلماء محو الأمية الدينية وتحسين صورة الإسلام ونشر السماحة ومكارم الأخلاق

وحكمه بكتاب الله تعالى، ونشر العدل بين الناس، حتى لا يكون هناك فقير ولا محتاج ولا جائع، بسبب وفرة الأموال، وما ذلك على الله بعزيز، ونحن عندنا الأمل الكبير في تحقيق ذلك، لكنه يحتاج إلى سواعد قوية من أبناء الإسلام، يحتاج إلى مسلمين يحملون راية القرآن الكريم والسنة النبوية الوسطية.

● طبيعة الخليقة قائمة على الاختلاف، كيف يمكن إحداث التعايش في هذا الشأن، من خلال فقه الاختلاف؟

- أولا الاختلاف بين الناس سنة إلهية أو كونية، نص عليها القرآن الكريم في أكثر من موضع، فمن ذلك مثلا قول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ (هود:١١٨-١١٩)، وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾﴾ (يونس:٩٩). إذن أمام هذه القواعد الأساسية يتعايش الناس بصورة طبيعية، يساوي في ذلك المسلم وغير مسلم، فهم مواطنون في أرض واحدة، يعملون معا لإقامة حضارة الوطن الذي ينتمون إليه، ورسول الله ﷺ حقق ذلك في تأسيس دولة الإسلام في المدينة المنورة، حيث آخى بين المهاجرين والأنصار. وهؤلاء هم المسلمون، ولكن كان إلى جوارهم في المدينة أهل الكتاب من اليهود والنصارى، وتعايش معهم النبي ﷺ بمنطق قول الله سبحانه وتعالى: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ ﴿٦﴾﴾ (الكافرون:٦)، وأقرهم على ذلك، وكان هناك أيضا مشركون، سواء من أهل المدينة، أو ممن يفدون إليها من الخارج، ومع هذا تعايش الجميع في دولة الإسلام. وكان رسول الله ﷺ يحمل كل فريق منهم مسؤوليته نحو المدينة، ونحو المسلمين أو غير المسلمين، وبالتالي نحن نرجو أن يتحقق هذا التعايش بين الجميع، بحفظ الحقوق والمحافظة عليها، وأداء الواجبات، والسعي إلى القيام بها في جد واجتهاد وإخلاص، لأننا أولا وأخيرا أبناء أب واحد وأم واحدة، وهما آدم وحواء. فعلى الناس أن يفطنوا إلى ذلك، ليتحقق التعايش، وتتقدم أوطاننا بصورة جماعية إلى أماكن القيادة والريادة، في هذا العالم الفسيح.

ثلاث ركائز

● كثير من مشكلات الأمة حاليا سببها غياب العدل الاجتماعي.. فهل من حلول لمشكلات المجتمع، مستمدة من الشريعة الإسلامية؟

- الإسلام حقق العدل الاجتماعي بثلاثة أمور: الأمر الأول أنه فرض الزكاة على الأغنياء. وما جاع جائع، ولا افتقر فقير إلا ببخل غني، أو بإمساكه، أو نحو ذلك من الأغنياء، لأن الله سبحانه وتعالى ميزنا بفريضة الزكاة في أموال الأغنياء، تكفي وتغطي حاجات الفقراء، تؤخذ من أغنيائهم، وترد إلى فقرائهم، كما في قوله سبحانه وتعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ ۖ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ﴾ (التوبة:١٠٣)، وفي قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ فِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ﴿٢٤﴾ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴿٢٥﴾﴾ (المعارج:٢٤-٢٥)، هكذا حقق الله سبحانه وتعالى العدالة الاجتماعية، والتكافل الاجتماعي، في حال أدى الأغنياء ما عليهم من حقوق

للفقراء. الأمر الثاني هو الدعوة إلى الصدقة، وإنفاق الأموال في سبيل الله، حيث وعد الله على ذلك الأجر العظيم ومضاعفاته، فقال سبحانه: ﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتۡ سَبۡعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنۢبُلَةٖ مِّاْئَةُ حَبَّةٖۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ (البقرة:٢٦١)، وقال الأئمة الأربعة: إن من حق ولي الأمر رئيس الدولة أو أمير المؤمنين أن يفرض في أموال الأغنياء أكثر من فريضة الزكاة، بما يكفي حاجات الفقراء، ومن هذا المنطلق نجد الضرائب في كثير من البلاد العربية. وتعتبر هذه الضرائب منفذا آخر من منافذ تحقيق العدالة الاجتماعية بين الناس، والأمر الثالث أن الله عزوجل أمر بالعدل، فقال سبحانه وتعالى: فَمِنۡهُم إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِ ﴾ (النساء:٥٨)، فكل قاض وكل ولي أمر مسئول عن رعيته، وعن تحقيق العدالة الاجتماعية بينهم، وهذه أمانة علقها الله سبحانه وتعالى في عنقه، ولا يجوز له أن يغض الطرف عنها، أو يتهاون في تطبيقها، بكل الأشكال التي ذكرناها، كما بين الرسول ﷺ في قوله: «كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته»، بل إنه ﷺ قال: «سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله»، وكان أولهم «إمام عادل»، حيث جعل الله سبحانه وتعالى أولهم الإمام العادل، ليحقق العدل بين الفقراء، والعدالة بين المتخاصمين. يقول أحد الأدباء: «لو تراحم الناس لما كان بينهم جائع ولا عريان ولا مظلوم ولا مسكين»

وكان أحد أهداف الصيام هو أن يشعر الصائم بحاجة الفقير إلى الطعام والشراب، وبالتالي ينعكس ذلك إحسانا إلى الفقراء والمساكين، وتبين ذلك

الإسلام قدم ثلاث ركائز أساسية لتحقيق العدالة الاجتماعية بين الناس كافة

في قوله ﷺ: «الساعي على الأرملة والمسكين كالمجاهد في سبيل الله»، وقوله ﷺ: «أنا وكافل اليتيم كهاتين في الجنة»، فيجب علينا فعل مثل هذه النماذج التي ذكرها الله في كتابه العزيز، لتحقيق العدالة الاجتماعية، قال سبحانه وتعالى: ﴿ هَٰٓأَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ تُدۡعَوۡنَ لِتُنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبۡخَلُۖ وَمَن يَبۡخَلۡ فَإِنَّمَا يَبۡخَلُ عَن نَّفۡسِهِۦۚ وَٱللَّهُ ٱلۡغَنِيُّ وَأَنتُمُ ٱلۡفُقَرَآءُۚ وَإِن تَتَوَلَّوۡاْ يَسۡتَبۡدِلۡ قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمۡثَٰلَكُم ﴿٣٨﴾ ﴾(محمد:٣٨)، وهذه دعوة للأغنياء جميعا والحكام، لينتبهوا إلى وسائل تحقيق العدالة الاجتماعية، بين سائر من تحت رعايتهم ومسؤوليتهم.

• من آن إلى آخر تطفو ظاهرة «الإسلاموفوبيا».. فكيف يمكن علاج هذه الظاهرة السلبية، من خلال التفعيل الحقيقي لحوار الأديان؟

– ينبغي التقرير بأن «الإسلاموفوبيا» التي تعرف الآن على أنها «التخويف من الإسلام» ظاهرة قديمة، وليست جديدة، قوامها العداء للإسلام، منذ أيام النبي ﷺ، فكانت العداوة قائمة، واستمرت بعد وفاة النبي ﷺ، وقد ذكر الله في كتابه العزيز: ﴿ وَلَن تَرۡضَىٰ عَنكَ ٱلۡيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمۡ ﴾ (البقرة:١٢٠)، وقوله سبحانه وتعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمۡ أَوۡلِيَآءَ تُلۡقُونَ إِلَيۡهِم بِٱلۡمَوَدَّةِ وَقَدۡ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلۡحَقِّ يُخۡرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمۡ أَن تُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ رَبِّكُمۡ ﴾ (الممتحنة:١)، فلذلك، العداوة قائمة، لكنها لا تمنع التعايش، والنبي ﷺ تعايش مع جميع الطوائف من اليهود والنصارى، في مكة والمدينة، والآن نحن نتعايش في بلادنا مع غير المسلمين، وهناك في البلاد الأوروبية أقليات من المسلمين يتعايشون بصورة شبه طبيعية، وفي معاملاتنا مع أتباع الديانات الأخرى، يجب أن نعود إلى قيم الإسلام، كما في قول الله تعالى: ﴿ لَكُمۡ دِينُكُمۡ وَلِيَ دِينِ ﴾(الكافرون:٦)، وقوله سبحانه: ﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِ ﴾ (البقرة:٢٥٦)، وقوله: ﴿ لَّا يَنۡهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمۡ يُقَٰتِلُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ وَلَمۡ يُخۡرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمۡ أَن تَبَرُّوهُمۡ وَتُقۡسِطُوٓاْ إِلَيۡهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ ﴿٨﴾ ﴾ (الممتحنة:٨)، وقال رسول الله ﷺ «أنا بريء يوم القيامة ممن ظلم ذميا، أو ضيع حقوقه». ومما لاشك فيه أن حوار الأديان يحدث نوعا من التقارب والتفاهم، لأن لدينا بعض الأمور الغامضة عن الآخر، لذلك يعمل الحوار على تقريب وجهات النظر، حتى نصل إلى الثوابت الصحيحة، وبذلك يتم التعايش وتبادل المصالح، ونكون جميعا عونا على بناء الحضارة، وإصلاح المجتمعات، سواء كنا مسلمين أو غير مسلمين.

أسباب الإلحاد

• الشباب بين التطرف والإلحاد.. ما أسباب الموجة الإلحادية التي ظهرت في المجتمعات الإسلامية؟ وهل من مخرج من وجهة نظر الشريعة الإسلامية؟

– يقول العلماء: إن أعداء الإنسان ثلاثة: الفقر والجهل والمرض. وتلك هي أسباب الموجة الإلحادية في المجتمعات الإسلامية، لانتشارهم بكثرة في جميع المجتمعات تقريبا، والفقير يلجأ إلى السرقة، وذلك لتقصير الأغنياء في حقوقهم تجاه الفقير، والجاهل عدو نفسه والآخرين، يقول الإمام الشافعي رحمه الله: «لو حاورني ألف عالم

لغلبتهم، ولو حاورني جاهل واحد لغلبني»، أما المريض فيحتاج من يمد إليه يد العون والشفاء، ولذلك من لم يجد ذلك يقع في شبكة الإلحاد والتطرف. وبالطبع هناك أسباب فرعية، مثل السعي إلى لفت الأنظار، من خلال التمرد على ثوابت الدين والمجتمع.

● من وجهة نظرك.. هل هناك علاقة بين تطور التكنولوجيا والدعوة الإسلامية؟

– بالتأكيد، كل إنتاج له آثار مفيدة، أو ضارة، حيث إن شبكات التواصل الاجتماعي لها الوجه النافع، وهو الحصول على معلومات مفيدة، وأدوات البحث العلمي للعلماء والعقلاء والباحثين، حيث نجد أمهات الكتب موجودة عليها، لكن أيضا هناك الوجه الضار، وهو ما يعرض عليها من إباحيات وأفلام، وصور مسيئة للرسول ﷺ، وفيها نشاطات أخرى غير سوية، وهذا ليس عيبا في التكنولوجيا، لكنه عيب في المستخدم نفسه، وأرى من الواجب على القائمين على الشبكة العنكبوتية ألا يقدموا تلك الضلالات أو الكفريات، لأن الناس بحاجة إلى التوعية والتدين، وليس إشاعة تلك الأشياء.

● هل أثرت تلك التطورات في فكر وعقيدة الشباب؟

– بالطبع أثرت بشكل كبير، لأن الشباب عندما يجدون أعداء الإنسان الثلاثة التي سبق ذكرها، ولا يجدون من يأخذ بأيديهم إلى الطريق الصحيح، لابد وأن يلجأوا إلى تلك الأبواب الخلفية السيئة التي تأخذهم إلى الضلالات.

● كيف تنظر إلى الخلافات التي نعيشها، وتفرض على كثير من الناس حالة من الإحباط؟

– يجب أن نفرق بين السياسة والأخلاق والإنتاج، وقد رأينا صراعات وخلافات عديدة منذ أيام النبي ﷺ، ثم في حروب الردة في عهد أبي بكر رضي الله عنه، ثم

ثلاثية الفقر والجهل والمرض أهم أسباب الموجة الإلحادية

عهد الخلفاء الراشدين، ولذلك نقول: إن الاختلاف كان وما زال قائما.. فيجب علينا أن نتوجه إلى العمل والإنتاج، وإقامة الحضارة، وتحقيق مكارم الأخلاق، وأن نقدم للعالم أجمع الصورة الصحيحة للإسلام، فالحكام لهم فكرهم وإرادتهم وعملهم، لذلك يجب على كل طالب أن يذهب إلى دراسته، ويتفوق فيها، والصانع إلى مصنعه، ليزيد من إنتاجه، والمزارع إلى حقله، لنحقق الاكتفاء الذاتي، ونتقدم مثل غيرنا.. على كل منا أن ينصرف إلى عمله، ويبدع فيه، أما السياسة فلها أهلها ورجالها.

وأخيرا لا يحق إلا الحق، قال الله سبحانه وتعالى: ﴿فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ﴾ (الرعد:١٧).

هذه المساواة معصية

● يطالب البعض بمساواة المرأة بالرجل في الميراث، انطلاقا من خروجها للعمل ومشاركتها في تحمل المسؤوليات الأسرية.. كيف تنظرون إلى هذا المطلب؟

– هذا المطلب غير شرعي، لأن الله سبحانه وتعالى أعطى كل ذي حق حقه، فألحقوا الفرائض بأهلها، وما بقي فأولى برجل ذكر، وسمي علم الميراث بالفرائض، لأنه عبارة عن جملة من الفرائض التي فرضها الله عزوجل، وهي النصف والربع والثلث والثلثان، ونحو ذلك من الأمور المذكورة في سورة النساء، في تقسيم المواريث، والقرآن الكريم سمى هذه الفرائض بأسمائها، كما جاء في القرآن الكريم وقول الرسول ﷺ: «تعلموا الفرائض وعلموها، فإنه نصف العلم، وهو ينسى، وهو أول شيء ينزع من أمتي» حديث ضعيف. وسماه الله سبحانه وتعالى حدودا فقال: ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٣﴾ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٤﴾﴾ (النساء:١٣-١٤)، فماذا ننتظر بعد ذلك؟ هل يجوز لأحد أن يعترض على هذا التقسيم؟ أو يعدل في هذه الفرائض؟ وكيف نتحدث بعد ذلك في مساواة الرجل بالأنثى في الميراث! إن هذه المساواة معصية لله سبحانه وتعالى، لذلك جميع علماء الشريعة الإسلامية يرفضونها، لأنها تنافي القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة.

● انطلقت دعوات على ألسنة علماء، تطالب من يكررون الحج والعمرة بتخصيص نفقات حجهم التطوعي، للمساهمة في حل مشكلة الفقراء وأصحاب الحاجات.. هل تساندون هذا المطلب؟

– بالطبع نساند هذا المطلب الصحيح، لأن تكرار الحج والعمرة بعد أداء الفريضة يعود نفعه على فاعله فقط، أما إنفاق تكاليف الحج والعمرة المكررين، فيعود نفعه على فئات كثيرة من الفقراء والمحتاجين والمرضى واليتامى والمساكين، لذلك أؤيد هذا الرأي، لأن من يقوم بإنفاق ذلك في شتى المجالات المختلفة سيؤجر من جهتين، من نيته لتكرار الحج والعمرة، وسيحتسب له حج وعمرة لهذه النية، لأن الرسول ﷺ يقول: «نية المرء خير من عمله» حديث ضعيف، وسيؤجر من دعوات الفقراء والمساكين الذين ستعود عليهم صدقته.

قراءة في النموذجين المرابطي والموحدي:

أثر التوجهات السياسية في العلوم الدينية

د. محمد أبحير
باحث في أدب الغرب الإسلامي

تعد الأسس الفكرية والعقدية لكل دولة أو جماعة هي الموجه الحقيقي لحركاتها وسكناتها، لذا فالحديث عن دولتي المرابطين والموحدين بالمغرب والأندلس لا يشذ عن هذه القاعدة. فالمرابطون أقاموا دولتهم على أكتاف فقهاء المذهب المالكي، الذين لعبوا دور أيديولوجيي الدولة. أما الموحدون فقد ساروا على خطى فكر المهدي ابن تومرت، الذي دعا إلى الرجوع إلى العقيدة الصحيحة ومراجع الفقه والدين الأصيلة، أي الكتاب والسنة.

وقد شهد حكم الدولتين، المرابطية والموحدية، نضوج الدراسات المتعلقة بالفقه والتفسير. ولعل أهم ما يبرز هذا النضوج هو عناوين الكتب المصنفة، وزمرة الأعلام الذين أفنوا زهرة شبابهم في تأليفها. وننقل في هذا الصدد شهادة ابن خلدون حول اهتمام المغاربة بعلم التفسير، إذ يقول: «وجاء أبومحمد بن عطية من المتأخرين بالمغرب، فلخص تلك التفاسير كلها، وتحرى ما هو أقرب إلى الصحة منها، ووضع ذلك في كتاب متداول بين أهل المغرب والأندلس حسن المنحى» (١).

كما اهتم العلماء بمذهب مالك، من خلال إفراغ الوسع وإعمال الطاقة في دراسته وتلخيصه وتقريبه إلى الناس. يقول صاحب «المقدمة»: «وأما مالك رحمه الله فاختص بمذهبه أهل المغرب والأندلس، وإن كان يوجد في غيرهم، إلا أنهم لم يقلدوا غيره إلا في القليل بما أن رحلتهم كانت غالبا إلى الحجاز وهو منتهى سفرهم والمدينة يومئذ دار العلم، ومنها خرج إلى العراق» (٢).

وعلى الرغم من أن مذهب الإمام مالك عرف تذبذبا في مساره أيام حكم الموحدين، فإن هذا لم يمنع الناس من الاشتغال به، وتفضيله على ما سواه، فـ «لم يعتن بكتاب من كتب الفقه والحديث اعتناء الناس بالموطأ، فإن الموافق والمخالف أجمع على تقديمه وتفضيله وروايته وتقديم حديثه وتصحيحه» (٣). فهذه أبلغ شهادة على هذا الاهتمام من لدن علامة عصره، والذي لولاه لما ذكر المغرب، إنه القاضي عياض اليحصبي السبتي (٤٤٥ هـ)، الذي عايش فترة الحكمين المرابطي والموحدي.

ويمكن التدليل على هذه الحركة العلمية من خلال الإلماع ببعض مصنفات الفقه والتفسير (٤) على عهد الدولتين، منها:

- مختصر كتاب ابن أبي زمنين لإبراهيم بن جعفر بن أحمد اللواتي، فقد «كان من أهل العلم والفضل والزهد والتقشف... وكان مقدما في علم الشروط والأحكام، مشاركا في علم الأصول والأدب» (٥).
- «الإعلام بحدود قواعد الإسلام» للقاضي عياض، الذي «أحكم قراءة كتاب الله تعالى بالسبع، وبرز في علوم الحديث، وحمل راية الرأي، ورأس في الأصول، وحفظ أسماء الرجال» (٦).
- وهج الجمر في تحريم الخمر لأبي الخطاب بن دحية الذي «اشتهر بعلم الحديث وروايته، فعد من كبار حفاظه ولم يسلم من نقد الناقدين من المشارقة وغيرهم» (٧).
- «منهاج التحصيل فيما للأئمة على المدونة من التأويل» لأبي الحسن الرجراجي.
- تفسير لأبي بكر بن الجوزي السبتي.
- «بغية الرائد لما تضمنه حديث أم زرع من الفوائد» للقاضي عياض.
- «مشارق الأنوار في غريب الحديث والأنوار» له.
- «تفسير القرآن» لابن عبدالجليل القصري.
- «تفسير القرآن» للمزدغي، فقد «كانت له يد طولى في علم التفسير والقراءات والآداب وغير ذلك» (٨).
- «كتاب النزع في إبطال القياس» لابن القطان الفاسي.

كما يمكن إلحاق مكتبة منظر الدولة الموحدية (محمد بن تومرت) بهذه القائمة.

ومعلوم أن الدولة المرابطية قامت على أساس ديني إصلاحي، يتخذ من مذهب الإمام مالك شرعة ومنهاجا، ومن الفقهاء سندا وعونا، حتى عدت دولة الفقهاء؛ لكثرة نفوذهم وتغلغلهم في دواليب السلطة. فقد شهد علم الفقه على مذهب الإمام مالك حضورا متميزا، وواصل تقدمه في هذا العصر، وعقدت المجالس الحافلة في كل من سبتة وفاس ومراكش للمناظرة عليه، وامتزجت دراسة الفقه بعلم الأصول (٩).

ولعل من دواعي اختيار مذهب الإمام مالك محاولة الابتعاد عن المذاهب الأخرى التي كانت مستشرية وقتئذ. يقول الأستاذ حسن جلاب: «وقد أصبح المذهب المالكي محور الحركة

الإصلاحية المرابطية، وخطا عقديا بنى عليه عبدالله بن ياسين المالكي دعوته، وتمكن من نشره بين قبائل صنهاجة ثم في باقي المغرب، وحل محل المذاهب التي انتصبت بسبب ضعف الأدارسة» (١٠).

وعلى النقيض من ذلك، أسست الدولة الموحدية على أسس مغايرة ومختلفة تماما مع أسس الدولة المرابطية، فإذا كان دستور المرابطين هو مذهب الإمام مالك، فإن محمدا بن تومرت «كان على مذهب أبي الحسن الأشعري في أكثر المسائل، إلا في إثبات الصفات، فإنه وافق المعتزلة في نفيها وفي مسائل قليلة غيرها، وكان يبطن شيئا من التشيع غير أنه لم يظهر منه إلى العامة شيء» (١١).

ويذهب عبدالله كنون إلى القول إن علم الفقه على مذهب مالك قد واصل تفرعه وانتشاره كما كان قبل أو أكثر، إذ «(إن) المذهب المالكي لم ينهزم مطلقا أمام الدعوة إلى الاجتهاد التي كان الموحدون يتزعمونها، ولا أمام المذهب الظاهري الذي نشط نشاطا كبيرا في هذا العصر، وذلك برغم الحملة المنظمة من رجال الدولة للقضاء عليه» (١٢). ولقطع الشك باليقين يسرد الباحث أسماء فقهاء المذهب المالكي الذين نبغوا في العصر الموحدي (١٣).

وإذا كانت الدولة المرابطية قد تركت بصمتها واضحة في التاريخ السياسي والاجتماعي والفكري للمغرب والأندلس، من خلال تحقيق الوحدة المذهبية في إطار المذهب المالكي، إلا أن هذا العمل تخللته بعض الهفوات تتمثل في «تأسيس الحكم المرابطي على المذهب المالكي، وكانت المالكية لا تهتم إلا بعلم الفروع، وكرس الفقهاء هذا التوجه» (١٤).

فقد أورد عبدالواحد المراكشي شهادة في حق الأمير علي بن يوسف بن تاشفين إذ يقول: «ولم يكن يقرب من أمير المسلمين ويحظى عنده إلا من عَلِم علم الفروع، أعني فروع مذهب مالك، فنفقت في ذلك الزمان كتب المذهب وعمل بمقتضاها ونبذ ما سواها، وكثر ذلك حتى نسي النظر في كتاب الله وحديث رسول الله ﷺ فلم يكن أحد من مشاهير أهل ذلك الزمان يعتني بهما كل الاعتناء» (١٥).

وقد استغل ابن تومرت اهتمام المرابطين بعلم الفروع من أجل إسقاط دولتهم وكسر شوكتهم، فقد كانت دولة الموحدين «تقوم على دعامتين فكريتين مناقضتين للدولة المرابطية، أرساهما المهدي بن تومرت... وهما الأشعرية في العقائد، أو على الأدق مناهضة منهج المرابطين في العقائد وتصوراتهم فيها، ثم الاجتهاد في التشريع والفقه القائم على الكتاب والسنة، لنقض بناء الدولة المرابطية المتشبثة بالمالكية» (١٦).

وعلى الرغم من هذه الشواهد الناطقة والدالة على موقف الموحدين من عقيدة أسلافهم، فقد اختلفت الآراء حول موقف الموحدين من كتب الفروع، عندما صادروها وأمروا بإحراقها ونبذها. فقد ذهب البعض إلى أن الهدف من وراء تلك الحملة هو حث الناس على الرجوع إلى الكتاب والسنة والعمل بهما، بينما رأى البعض الآخر أن غرضهم هو القضاء على مذهب مالك وحمل الفقهاء بالقوة على مذهب ابن حزم الظاهري (١٧).

فقد أثبت عبدالواحد المراكشي، باعتباره مؤرخا للدولة الموحدية، شهادة حول دعوة أبي يوسف الموحدي إلى الأخذ بالكتاب والسنة، إذ يقول: «وفي أيامه انقطع علم الفروع وخافه الفقهاء، وأمر بإحراق كتب المذهب بعد أن يجرد ما فيها من حديث الرسول ﷺ والقرآن، ففعل ذلك، فأحرق منها جملة في سائر البلاد... وكان قصده في الحملة محو مذهب مالك وإزالته من المغرب مرة واحدة، وحمل الناس على الظاهر من الحديث، وهذا المقصد بعينه كان مقصد أبيه وجده إلا أنهما لم يظهراه وأظهره يعقوب هذا» (١٨).

الهوامش

١- المقدمة، ابن خلدون، المكتبة التجارية الكبرى، مصر، ص:٤٤٠.

٢- نفسه، ص:٤٤٩.

٣- ترتيب المدارك، القاضي عياض، حققه: محمد بن تاويت الطنجي، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، ٢/٨٠.

٤- ينظر على سبيل المثال: النبوغ المغربي، الجزء الأول - ترتيب المدارك، الجزآن الثاني والرابع.

٥- الصلة، ابن بشكوال، حققه إبراهيم الإبياري، ط:١، ١٩٨٩م، ١/١٦٨.

٦- أزهار الرياض في أخبار عياض، المقري، حققه: إبراهيم الإبياري ومن معه، مطبعة فضالة، ٣/٧.

٧- فهارس علماء المغرب، عبدالله المرابط الترغي، منشورات كلية الآداب بتطوان، ص:٦٠٤.

٨- تراجم مغربية من مصادر مشرقية، محمد بن شريفة، ط:١، ١٩٩٦م، ٢٢٩.

٩- النبوغ المغربي في الأدب العربي، عبدالله كنون، ١/٧١ و٧٢.

١٠- الدولة الموحدية، أثر العقيدة في الأدب، د. حسن جلاب، ط:٢، ١٩٨٥م، ص:١٥.

١١- المعجب في تلخيص أخبار المغرب، عبدالواحد المراكشي، ص: ٢٧٥.

١٢- النبوغ المغربي في الأدب العربي، ١/١٢٣.

١٣- نفسه، ١/١٢٣.

١٤- قراءة في فكر المهدي بن تومرت السياسي، المجلة المغربية لعلم الاجتماع السياسي، العدد:٣، ١٩٨٧م، ص:٩٢ و٩٣.

١٥- المعجب، ص:٢٥٤.

١٦- المذهبية في فكر أبي الوليد بن رشد، مجلة التاريخ العربي، العدد:٦، ١٤١٩هـ/١٩٩٨م، ص:٢٥٦.

١٧- ينظر: ابن تومرت وتجديد الفكر الإسلامي، مجلة الاجتهاد، العدد:٢٠، ١٩٩٣م.

١٨- المعجب، ص:٤٠٠ و٤٠١.

العلامة الخضر حسين

مجاهد بالقلم واللسان

صلاح حسن رشيد
باحث متخصص في الشؤون الإسلامية

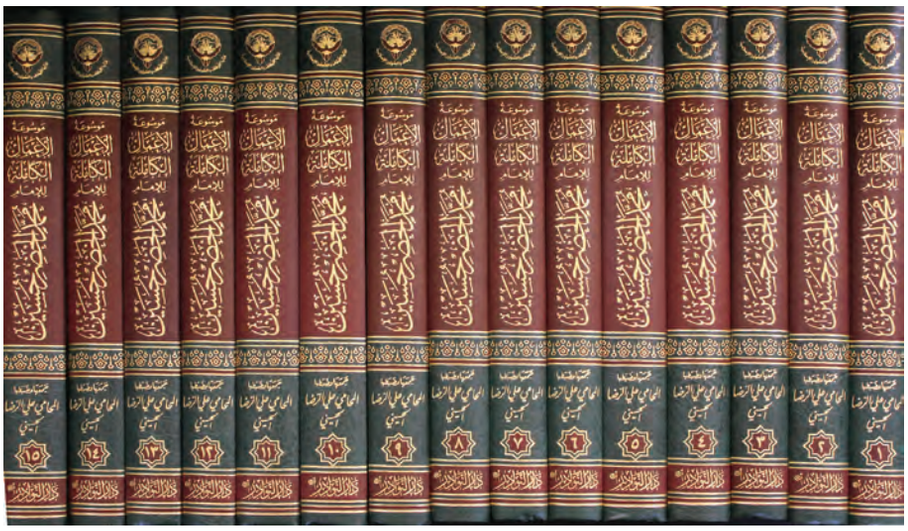

عاش في الربع الأخير من القرن التاسع عشر، حينما كان العالم الإسلامي يرزح تحت نير الاحتلال، وأهوال الفقر والجهل والمرض، فطمح إلى تخليصه من ربقة التبعية والاستعمار، والدخول في فلك الاستقلال والتقدم والمدنية، والالتحاق بركب العالم الأول.

ولد الشيخ في بلدة «نفطة» الجزائرية، وقد حفظ القرآن الكريم، وتلقى مبادئ العلوم اللغوية والشرعية على الشيخ عبدالحفيظ اللموشي.

وعندما بلغ الثانية عشرة من عمره (أي في عام ١٨٨٨م) انتقل مع أسرته إلى تونس العاصمة، وبعد عامين التحق بجامع الزيتونة، حيث أخذ العلم على يد خاله الشيخ المكي بن عزوز، والشيخ عمر بن الشيخ، والشيخ سالم بوحاجب، وغيرهم من أساتذة الزيتونة.

وفي سنة ١٩٠٣م نال شهادة العالمية، وكان متشبعا بالروح الإسلامية الوطنية، فكان أول موقف له تجاه سلطات الاستعمار الفرنسي هو رفضه تولي بعض المناصب التي عرضتها عليه الحكومة الاستعمارية في تونس.

وفي نفس الفترة الزمنية (١٩٠٣-١٩٠٤م) زار الجزائر موطن آبائه وأجداده، وكان قد أصدر في تونس أول مجلة أدبية وعلمية، وهي مجلة «السعادة العظمى».

وفي سنة ١٩٠٥م تولى قضاء مدينة «بنزرت» وضواحيها، إلى جانب ممارسته للخطابة والتدريس بجامع بنزرت الكبير، وبعد عامين عاد إلى تونس العاصمة، وعين مدرسا بالمدرسة الصادقية، وبعدها بعام تطوع للتدريس بالزيتونة، ثم عين مدرسا بها.

وفي سنة ١٩٠٧م اشترك في تأسيس الجمعية الزيتونية. وفي سنة ١٩١١م قاد حملة لمناصرة الشعب الليبي في حربه ضد إيطاليا، فاتهمته السلطات الفرنسية ببث روح العداء للغرب، وضيقت عليه، فهاجر إلى تركيا عن طريق مصر وسوريا.

ثم عاد مرة أخرى إلى تونس، ليهاجر منها ثانية إلى الشام، ثم إلى تركيا من جديد، حيث عمل محررا عربيا بوزارة الحربية العثمانية، وشارك في مفاوضات سياسية خلال الحرب العالمية الأولى، ثم عاد إلى دمشق فاعتقله الأتراك عام ١٩١٦م عدة أشهر، ثم عاد إلى تركيا، وبعدها رحل إلى ألمانيا، وعاد مرة أخرى إلى تركيا، ثم استقر في دمشق، فلما احتلها الفرنسيون عاد إلى تونس، ولكنه لم يلبث أن رحل إلى القاهرة عام ١٩٢١م واستوطن هناك، حيث أصبح عضوا في هيئة كبار العلماء ومجمع اللغة العربية.

وفي سنة ١٩٢٤م، أسس جمعية تعاون جاليات إفريقيا الشمالية، التي ضمت المجاهدين من تونس والجزائر والمغرب الأقصى.

وفي سنة ١٩٢٧م ترأس الاجتماع التحضيري لتأسيس «جمعية الشبان المسلمين» بحضور أعلام الفكر وكبار الزعماء والعلماء في العالم الإسلامي، الذين اعترفوا له بالمكانة العلمية الكبيرة، فقدموه لرئاستهم.

الخضر حسين شيخا للأزهر

لم يكتف الخضر حسين بما حصل من علم ومعرفة، بل واظب على التحصيل والتعلم، فبعدما نال شهادة العالمية من الأزهر الشريف، أبدى من الرسوخ والتمكن ما أدهش علماء الأزهر الكبار المتحنين، حتى إن الشيخ عبدالمجيد اللبان- رئيس اللجنة - قال عنه بصراحة: هذا بحر لا ساحل له؛ فكيف نقف معه في حجاج!

نال الشيخ عضوية جماعة كبار العلماء برسالته القيمة «القياس في اللغة العربية» سنة (١٣٧٠هـ -١٩٥٠م)، ثم لم يلبث أن وقع عليه الاختيار شيخا للجامع الأزهر في (٢٦ ذي الحجة ١٣٧١هـ - ١٦ سبتمبر ١٩٥٢م)، وكان الاختيار مفاجئا له، فلم يكن يتوقعه، بعدما كبر في السن وضعفت صحته، لكن مشيئة الله أبت إلا أن تكرم أحد المناضلين في ميادين الإصلاح، حيث اعتلى أكبر منصب ديني في العالم الإسلامي.

وكان في ذهن الشيخ حين ولي المنصب الكبير وسائل لبعث النهضة في مؤسسة الأزهر، وبرامج للإصلاح، لكنه لم يتمكن من ذلك، ثم لم يلبث أن قدم استقالته احتجاجا على اندماج القضاء الشرعي في القضاء الأهلي، وكان من رأيه أن العكس هو الصحيح، فيجب اندماج القضاء الأهلي في القضاء الشرعي؛ لأن الشريعة الإسلامية ينبغي أن تكون المصدر الأساس للتشريع، وكانت استقالته في (٢ جمادى الأولى ١٣٧٢هـ -٧ يناير

١٩٥٤م). وقال كلمته المشهورة: «إن الأزهر أمانة في عنقي، أسلمها حين أسلمها موفورة كاملة، وإذا لم يتأت أن يحصل للأزهر مزيد من الازدهار على يدي، فلا أقل من أن لا يحصل له نقص... يكفيني كوب لبن وكسرة خبز، وعلى الدنيا بعدهما العفاء».

معاركه الفكرية

خاض الشيخ كثيرا من المعارك الفكرية، وخرج منها منتصرا، من أشهرها معركة كتاب «في الشعر الجاهلي» لطه حسين، ومعركة كتاب: «الإسلام وأصول الحكم» لعلي عبدالرازق.

أما الكتاب الأول: فقد ظهر سنة (١٣٤٥هـ -١٩٢٧م) وأحدث ضجة هائلة، حيث جاهر مؤلفه الدكتور طه حسين بالشك في كل قديم دون في صحف الأدب، وزعم أن كل ما يعد شعرا جاهليا إنما هو مختلق ومنحول، ولم يكتف بهذه الفرية، فجاهر بالهجوم على المقدسات الدينية، حيث قال: «للتوراة أن تحدثنا عن إبراهيم وإسماعيل، وللقرآن أن يحدثنا عن إبراهيم وإسماعيل، ولكن هذا لا يكفي لإثبات وجودهما التاريخي...».

وقد انبرت أقلام غيورة لتفنيد ما جاء في هذا الكتاب، من أمثال: الرافعي، والغمراوي، ومحمد فريد وجدي. ومن جانبه قام الخضر حسين بتأليف كتاب: «نقض كتاب في الشعر الجاهلي»، فند ما جاء فيه، وأقام الأدلة على أصالة الشعر الجاهلي، وكشف عن مجافاة طه حسين للحق، واعتماده على ما كتبه المستشرق الإنجليزي مرجليوث دون أن يذكر ذلك.

أما الكتاب الآخر فهو «الإسلام وأصول الحكم» الذي ظهر في سنة (١٣٤٤هـ -١٩٢٦م) وأثار ضجة كبيرة، وانبرت الأقلام بين هجوم عليه ودفاع عنه، وقد صدم الكتاب الرأي العام، حين زعم أن الإسلام ليس دين حكم، وأنكر وجوب قيام الخلافة الإسلامية، ونفى وجود دليل عليها من الكتاب والسنة، وكانت الصدمة الثانية أن يكون مؤلف هذا الكتاب من علماء الأزهر.

فنهض الشيخ لتفنيد دعاوى الكتاب، وأصدر كتابه: «نقض كتاب الإسلام وأصول الحكم» سنة (١٣٤٤هـ - ١٩٢٦م) تتبع فيه أبواب الكتاب، فكان يبدأ بتلخيص الباب، ثم يورد الفقرة

التي تعبر عن الفكرة موضوع النقد فيفندها، ونقد استخدام المؤلف للمصادر، وكشف أنه يقتطع الجمل من سياقها، فتؤدي المعنى الذي يقصده هو، لا المعنى الذي يريده المؤلف.

وقد كشف الشيخ في هذا الكتاب عن علم غزير، وإحاطة متمكنة بأصول الفقه وقواعد الحجاج، وبصيرة نافذة بالتشريع الإسلامي، ومعرفة واسعة بالتاريخ ورجاله وحوادثه.

في ميادين الإصلاح

اتجه الشيخ إلى تأسيس الجمعيات الإسلامية، فاشترك مع جماعة من الغيورين على الإسلام سنة (١٣٤٦هـ - ١٩٢٨م) في إنشاء جمعية الشبان المسلمين، ووضع لائحتها الأولى مع صديقه محب الدين الخطيب، وقامت الجمعية بنشر مبادئ الإسلام والدفاع عن قيمه، ومحاربة الإلحاد العلمي، ولاتزال هذه الجمعية بفروعها المختلفة تؤدي بعضا من رسالتها القديمة.

وأنشأ أيضا «جمعية الهداية الإسلامية»، وكان نشاطها علميا أكثر منه اجتماعيا، وضمت عددا من شيوخ الأزهر وشبابه وطائفة من المثقفين، وكون بها مكتبة كبيرة كانت مكتبته الخاصة نواة لها، وأصدر مجلة باسمها، كانت تحمل الروائع من التفسير والتشريع واللغة والتاريخ.

وإلى جانب هذا النشاط الوافر تولى رياسة تحرير مجلة نور الإسلام - الأزهر الآن - التي أصدرها الأزهر في (المحرم ١٣٤٩هـ - ١٩٣١م)، ودامت رئاسته لها ثلاثة أعوام، كما تولى رئاسة تحرير مجلة لواء الإسلام سنة (١٣٦٦هـ - ١٩٤٦م).

وتحمل إلى هذه الأعباء التدريس بكلية أصول الدين، فالتف حوله الطلاب، وأفادوا من علمه، وعندما أنشئ مجمع اللغة العربية بالقاهرة سنة (١٣٥٠هـ - ١٩٣٢م) كان من الرعيل الأول الذين اختيروا لعضويته، كما اختير عضوا بالمجمع العلمي العربي بدمشق، وأثرى مجلة المجمع اللغوي بالقاهرة ببحوثه عن صحة الاستشهاد بالحديث النبوي، والمجاز والنقل وأثرهما في حياة اللغة العربية، وطرق وضع المصطلحات الطبية وتوحيدها في البلاد العربية.

مواقف من حياته

ضرب الخضر حسين أروع الأمثلة في الصدق والشجاعة، نذكر منها على سبيل المثال: أنه عندما كان في ألمانيا حضر عند مدير الاستخبارات الألمانية، وكان معه سكرتيره، وذلك أثناء سفرهم إلى قرية ألمانية، وفي نهاية الحديث سأله المدير: أليس

كذلك يقرر ابن خلدون؟
فقال له: وماذا يقرر؟
قال: إن العرب لا يصلحون لملك، ولا يحسنون حكما للأمم.
فقال له: إنما خص ذلك بعهد الجاهلية، وقرر أنهم في الإسلام أحسنوا السياسة، وقاموا بأعباء الملك خير قيام، وقد بين ذلك غاية البيان في فصل عقده في مقدمته.
وهذا يدل على أن الشيخ كان قارئا جيدا واعيا حاضر الذهن.
ومن مواقفه أيضا أن السلطات الفرنسية في تونس دعته ليكون عضوا في المحكمة المختلطة التي يكون فيها قضاة مسلمون وأجانب، فرفض؛ لأن المحكمة تحكم بغير ما أنزل الله، ولأن المحكمة قائمة في ظل الاحتلال، وستخدم مصالحه.
ومن مواقفه الجريئة أنه حاضر في تونس عن «الحرية في الإسلام»، أثناء وجود الاستعمار الفرنسي فيها، وذلك في نادي قدماء مدرسة الصادقية الثانوية، فقال: «إن الأمة التي بليت بأفراد متوحشة تجوس خلالها، أو حكومة جائرة تسوقها بسوط الاستبداد هي الأمة التي نصفها بصفة الاستعباد، وننفي عنها لقب الحرية».
ثم بين الآثار السيئة للاستبداد في شجاعة وجرأة، وقد تناقل الناس مضمون المحاضرة ووصلت أخبارها إلى الشام وغيرها.
وفي مصر كان له موقف مشرف حين طالب أحد أعضاء مجلس الثورة بمساواة الجنسين في الميراث، ولما علم الشيخ بذلك أنذرهم إن لم يتراجعوا عن هذا فسيلبس كفنه، ويدعو الشعب إلى زلزلة الحكومة والقيام عليها لاعتدائها على حكم من أحكام الله، فكف ذلك العضو عما نواه من تغيير حكم الله تعالى.

الخضر حسين شاعرا

للشيخ شعر جيد كثير، ضمّن بعضه في ديوان منشور، سماه «خواطر الحياة»، فمنه في ذم الكماليين - أنصار كمال أتاتورك - الذين ألغوا الخلافة:

ما خطب قوم طالما وصلوك
واعتز باسمك عرشهم هجروك
حرسوك أحقابا وحلق صيتهم
في الخافقين لأنهم حرسوك

ومن شعره - أيضا - حين نصحه بعض أصحابه بالرجوع إلى الشام وترك مصر:

يقول: تقيم في مصر وحيدا
وفقد الأنس إحدى الموتتين
ألا تحدو المطية نحو أرض
تعيد إليك أنس الأسرتين
وعيشا ناعما يدع البقايا
من الأعمار بيضا كاللجين
فقلت له: أيحلو لي إياب
وتلك الأرض طافحة بغين
وما غين البلاد سوى اعتساف
يدنسها به خرق اليدين

ومدح الأمير عبدالكريم الخطابي يوم جاء من منفاه، واستطاع بعض المخلصين تخليصه في السويس، وهو في طريقه إلى سجنه بفرنسا، فقال على الباخرة مرحّبا به:

قلت للشرق وقد قام على
قدم يعرض أرباب المزايا
أرني طلعة شهم ينتضي
سيفه العضب ولا يخشى المنايا
أرنيها إنني من أمة
تركب الهول ولا ترضى الدنايا
فأراني بطل الريف الذي
دحر الأعداء فارتدوا خزايا

مؤلفاته

ترك الشيخ عددا من الكتب والمؤلفات، أشهرها: «رسائل الإصلاح»، و«الشريعة الإسلامية صالحة لكل زمان ومكان»، و«الحرية في الإسلام»، و«محمد رسول الله خاتم النبيين»، و«نقض كتاب الشعر الجاهلي» لطه حسين، و«نقض كتاب الإسلام وأصول الحكم» لعلي عبد الرازق و«تونس جامع الزيتونة»، و«أديان العرب قبل الإسلام»، و«بلاغة القرآن»، و«القياس في اللغة العربية». وكذلك «الخيال في الشعر العربي»، و«آداب الحرب في الإسلام»، و«دراسات في العربية وتاريخها»، و«حياة ابن خلدون»، «تونس.. ٦٧ عاما تحت الاحتلال الفرنساوي»، و«تعليقات على كتاب الموافقات للشاطبي»، و«خواطر الحياة» (ديوان شعر)، وغيرها كثير ...، وافتتاحيات مجلة «لواء الإسلام»، ومجلة «نور الإسلام». بالإضافة إلى مئات المقالات والمحاضرات.

قالوا عنه

قال فيه العلامة عبدالمجيد اللبان - رئيس لجنة امتحان شهادة العالمية بالأزهر - يوم تقدم إليها للاختبار: «هذا بحر لا ساحل له، فكيف نقف معه في حجاج».
وقال عنه الشيخ العلامة محمد علي النجار: «إن الشيخ اجتمع فيه من الفضائل ما لم يجتمع في غيره، إلا في الندرى، فقد كان عالما ضليعا بأحوال المجتمع ومراميه، لا يشذ عنه مقاصد الناس ومعاقد شؤونهم، حفيظا على العروبة والدين، يرد ما يوجه إليهما وما يصدر من الأفكار، منابذا لهما، قوي الحجة، حسن الجدال، عف اللسان والقلم».
وقال عنه العلامة محمد الطاهر بن عاشور: «إنه من أفذاذ علماء الإسلام، وقد كان قليل النظير في مصر».
وقال عنه عباس العقاد إنه: كان من أنصار الدعوة التي لا زمان لها؛ لأنها صالحة لكل زمان، مهما تتجدد مذاهب المعرفة.. وقد تساوى في نظر الشيخ الخضر كلا الطرفين من المسلمين، وهما طرف اليسار من المتعلمين، الذين جاوزوا حدود الإسلام، وطرف اليمين من الجامدين، الذين جاوزوا؛ فضيقوا حدوده عليهم، وإن لم يجاوزوه!
وقال عنه الدكتور محمد رجب البيومي: ومن يطالع كتابه «رسائل الإصلاح» بأجزائه الثلاثة» يدرك يقينه الثابت بماضي الأمة وعزتها.

بكل فخر أضعت هويتي

أسماء السكاف
كاتبة سورية

كبرت وتخرجت وتزوجت وأنجبت طفلة جميلة.. وكأي أم محبة كنت أتوق لتعليمها كل شيء، وكنت أسعى لتأمين البيئة الصحية والتربوية والتعليمية لها، كنت مثابرة بقراءة الكتب التربوية المختصة والاطلاع على تجارب غيري..كانت تستهويني التجارب والكتب الأجنبية؛ فأنا منبهرة بطريقة تعامل معظم من نطلق عليهم الأجانب مع أطفالهم أو حتى مع الطفل بشكل عام، كنت بشكل شبه يومي أصطحب طفلتي إلى حديقة منطقتنا التي يقطنها عدد لا بأس به من «الأجانب» بل ومن العرب «المؤجنبين»، كانت اللغة الوحيدة المتداولة في الحديقة بين الأهالي والأطفال والعاملين في المطعم الموجود في الحديقة وحتى حارس الحديقة هي اللغة الإنجليزية التي أحببت سماعها جدا من الأطفال، بل وحتى أعجبت جدا بطلاقة بعض الأطفال العرب عند نطقهم لها فقررت ألا أحدث طفلتي إلا بالإنجليزية، وفعلا فعلت رغم انتقاد بعض المقربين لي، فأصبحت أقرأ لها القصص بالإنجليزية حتى أصبحت تفهمني جيدا، في نفس الأثناء كانت طفلتي تكبر، وبالتالي كنت أنخرط معها بمجتمع الطفل أكثر وأخالط معها أطفالا مختلفين؛ سواء في النادي أو في دورة القرآن الأسبوعية، بدأت ألاحظ أن أغلب من حولي من أطفال كان أهلهم يقومون بالدور نفسه معهم، خصوصا من ناحية اللغة، وكأن علامة اهتمامنا

بأطفالنا من خلال هجرنا للغتنا الأم، كانت طفلتي بعمر السنتين عندما أحسست بشعور مؤلم أنني أعمل جاهدة وبجد ومثابرة على سلخها من هويتها.. وقفت مع نفسي وقفة ليست طويلة، فالأمر بات واضحا جدا عندي، خصوصا بعد أن خالطت بعض الأطفال الأتراك والهنود والأوروبيين، ورأيت اعتزاز كل منهم بلغته وحرصه على تعليمها بإتقان لأطفاله أولا وقبل كل لغة أخرى، أدركت أنني أجرم بحق طفلتي وأناقض ما أتعلم من طرق تربوية، حمدت الله أنها مازالت في سن غضة قابلة لشرب لغتها الأم الجميلة، استدركت ما فاتني في عامين، وبدأت معها رحلة الأحرف العربية الجميلة، ولعبة مخارج الأصوات التي يكابد من يريد تعلمها على كبر الأمرين، رغم أني نوعا ما أسبح معها الآن عكس التيار، فنحن اليوم في زمن يفاخر فيه الأغلب بل ويتباهى بأن أطفاله الذين يدرسون في مدرسة «أجنبية» لا يتقنون العربية ولا يفهمون الأشعار العربية إذا ما سمعوها.. فهم متحدثون وناطقون بارعون باللغة الإنجليزية، بالتأكيد لست ضد تعلم اللغات وخصوصا الإنجليزية.. فنحن نحتاجها بشكل شبه يومي؛ شئنا أم أبينا حتى في بلادنا العربية، ولكنني مع الفخر والاعتزاز بأننا عرب.. ومعرفة قيمة لغتنا الجميلة بكافة حروفها غير الموجودة في اللغات الأخرى، أنا أفخر أن الله قدر لي أن أكون عربية وأن القرآن نزل بلغتي، فلغتي تحمل كنوزا وتعبيرات وتشبيهات وبلاغة أُراهِنُ على عدم وجودها بأي لغة أخرى، لذلك سأحرص على تعليمها لأطفالي، لأنها الأصل ولأنها الأصعب أيضا بين اللغات.. وبعد إتقانهم لها سأحرص على أن يتقنوا الإنجليزية وأيضا لغات أخرى.. ففي هذا تنمية للذهن..

ألتقي الآن بنماذج حولي مختلفة من الأهل ممن لديهم أطفال أعرف إحداهن ابنتها في السادسة من عمرها، عربية وولدت في بلد عربي وأقرباؤها وأصدقاؤها عرب، ولكنها لا تتقن من اللغة العربية حرفا فقد وضعها والدها بكل فخر في بيئة معقمة بالكامل من أي نطق عربي، فالمدرسة إنجليزية والمربية إنجليزية ووالداها لا يتحدثان معها إلا بالإنجليزية.. والأمر المر أن الأم تفخر بذلك قائلة: «ابنتي لا تتحدث العربية.. كلموها بالإنجليزية».

صدقا أشفق على الصغيرة كلما رأيتها.. كيف لها أن تتعلم القرآن وتصلي به، الله وهب هذه الصغيرة نعمة اللغة العربية، وبكل برود وفخر نزع منها والداها حق التمتع بهذه النعمة، ولو دقق كل منا في مجتمعه وحوله لوجد العديد من «المتأجنبين» بعضهم عن جهل مطبق، فمنهم من لا يتقن من الإنجليزية سوى بضع كلمات يرددها حيثما جلس ليبدو – ظنا منه – بمظهر المتمدن أو من طبقة المجتمع المخملي، والأغلب من المبهورين بالغرب ولغتهم وكل شيء قادم من هناك؛ غثه وسمينه، ناسين أو متناسين أنه من المستحيل على المرء أن يغير جلده وأصله كقصة الغراب الذي أعجبته مشية طائر الحجل فأراد تقليدها.. حاول فترة من الزمن وعندما يئس أراد العودة لمشيته ولكنه نسيها، فلا هو أتقن مشية غيره ولا عاد لمشيته، فأرجو أن يخرج جيل أكثر وعيا.. لا يقتل لغته في نفسه ليتنفس لغة أخرى.. فالكتب العربية كنز.. ومن المحال أن نجد مثله، وحتى لو ترجموها فلن يستطيعوا ترجمة إحساسها وتشبيهاتها.. أسأل الله أن يعين كل مرب على تنشئة جيل واع فخور بأصله ولغته ودينه.

يحضرني قول الشاعر حافظ إبراهيم عندما تخيل اللغة العربية تعاتبنا فقال:

وسعت كتاب الله لفظا وغاية
وما ضقت عن آي به وعظات
أنا البحر في أحشائه الدر كامن
فهل سألوا الغواص عن صدفاتي
أرى لرجال الغرب عزا ومنعة
وكم عز أقوام بعز لغات
أيهجرني قومي عفا الله عنهم
إلى لغة لم تتصل برواة

له أهمية عظمى في تاريخ تطور العمارة

الأصالة في جامع ابن طولون

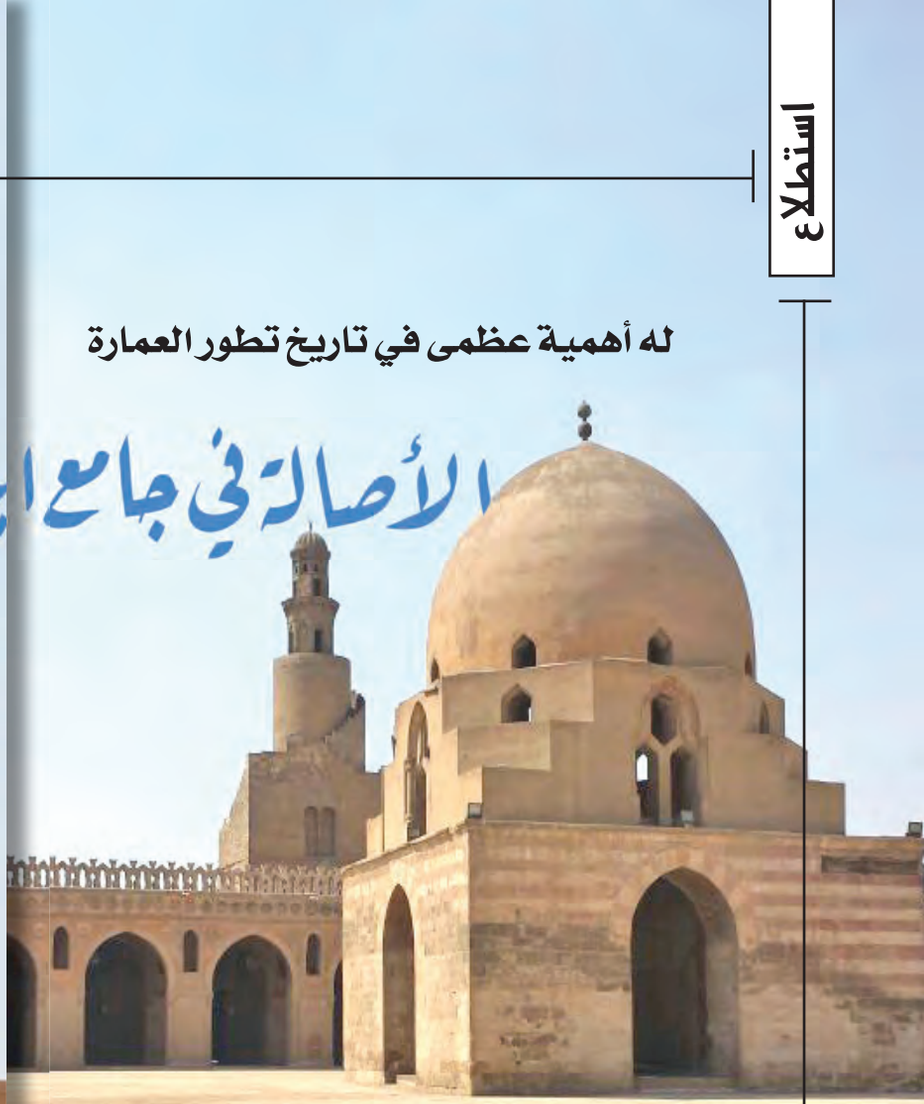

- أول مسجد معروف استخدمت فيه العقود المدببة
- يضم ٢١ بابا يقابلها مثلها في الزيادات
- منارته هي الوحيدة في مصر ذات السلم الخارجي

جامع ابن طولون هو ثالث جامع أنشئ للجمعة في مصر. ويعد، بحق، من أقدم الجوامع المحتفظة بتفاصيلها المعمارية وهيكلها الأصلي العظيم. اسمه من اسم الأمير أبوالعباس أحمد بن طولون، المولود في بغداد سنة ٢٢٠هـ (٨٣٥م)، وبعد أن فرغ ابن طولون من بناء القصر والميدان شرع في بناء هذا الجامع سنة ٢٦٣هـ (٨٧٦م)، واستمر العمل سائرا فيه إلى أن انتهى منه في شهر رمضان سنة ٢٦٥هـ (٨٧٨م).

وجامع ابن طولون من أكبر المساجد، وضع تصميمه على مثال المساجد الجامعة: صحن كبير مكشوف تحيط به أروقة ذات عقود. والمسجد الطولوني كان أول مسجد معروف ثابت التاريخ استخدمت فيه العقود المدببة المنفوخة كعنصر معماري بطريقة منتظمة، ولهذا فإن لمسجد ابن طولون «أهمية عظمى في تاريخ تطور العمارة».

وتمتاز عمارة المسجد الطولوني بأن بناءه من الآجر المكسو بالجص، وكذا جدرانه ودعاماته وعقوده، كما تمتاز باستخدام الدعامات في حمل العقود ورفع السقف، للاستغناء عن العمد، وإذا كانت جملة عدد الدعامات في المسجد مئة وستين دعامة، فإن بناءه بالعمد كان يتطلب ضعف هذا العدد منها على الأقل.

معظم القرآن الكريم

يمتاز المسجد الطولوني بأنه سجل معظم القرآن الكريم في الإزار الخشبي الذي يرتقي جميع جدران المسجد الداخلية وبوائكه، بحيث تنتشر آيات الله البينات في كل مكان داخل المسجد أمام أعين المصلين، في خط جميل يبهر الأنظار، ويحرك المشاعر.

وتحيط بالجامع من جوانبه القبلية والبحرية والغربية أروقة غير مسقوفة تعرف بـ «الزيادات»، وهي من المسجد، ومثلها موجود في جامع سوسة.

وأسوار هذه الزيادات عالية تسودها البساطة، فتحت بها أبواب تقابل أبواب الجامع، تتوجها من أعلى شرفة مفرغة. كما فتحت بأسوار الجامع أبواب وشبابيك علوية بينها حنايا وطاقات مخوصة تتوجها من أعلى شرفات.

وعدد أبواب الجامع ٢١، يقابلها مثلها في الزيادات، وتوجد في بعض الأبواب معابر خشبية قديمة بها زخارف مورقة.

المهندس المجهول

من المدهش أن هناك خلافا حول جنسية مهندس ابن طولون، فبينما نرى المقريزي يعبر عنه بالنصراني، يرجح آخرون أنه مهندس المقياس أحمد بن محمد الحاسب، الذي قدم من العراق لبناء المقياس الجديد بالروضة.

فإذا تجاوزنا سور الزيادة فمن أي باب من أبواب الجامع نصل إلى الإيوانات، التي يتوسطها صحن كبير. وهنا تتجلى عظمة هذا الأثر الخالد الحافل بشتى الصناعات والفنون.

ويمكن القول إن دعامات هذا المسجد فريدة في تاريخ العمارة، وهي أول مثل معروف من نوعها، فهي ليست دعامات فحسب، تحل محل العمد، وإنما هي مجموعة معمارية منسقة، تشمل دعامات تحف بها أشكال أعمدة مبنية من الآجر مندمجة في أركانها، وتعلوها طاقات مفرغة. ولم تظهر مثل هذه المجموعة المعمارية في أي بناء سابق للمسجد الطولوني، فهي ابتكار في تاريخ العمارة من حق بنّاء هذا المسجد علينا أن نسجله له.

المحراب الموجود بالإيوان الشرقي، من أكبر الإيوانات وأكثرها أروقة وأخلفها زخرفا، فهو يشتمل على خمسة أروقة، ويتوسط جداره الشرقي المحراب، وبه منبر وبه تاريخ إنشاء الجامع، وتوجد به محاريب طولونية وفاطمية ومملوكية.

وبتجويف المحراب عصابة من الفسيفساء المذهبة كتب بها بالخط النسخي: «لا إله إلا الله محمد رسول الله»، وهذه الفسيفساء والطاقية الخشب بالمحراب ومقرنص القبة أعلاه من عمل المنصور لاجين سنة ٦٩٦هـ (١٢٩٦م).

دار الإمارة

على يمين منبر جامع ابن طولون باب كان يؤدي إلى دار الإمارة التي أنشأها أحمد بن طولون وأثثها بالفرش والستور، كانت مخصصة لنزوله حينما يذهب إلى صلاة الجمعة، فيجلس فيها، ويجدد وضوءه، ثم يدخل منها إلى مقصورة المسجد. وقد ذهبت هذه الدار ولم يبق منها سوى مدخلها وبه

خصائص زخرفية

للمسجد الطولوني ميزات وخصائص في مجال الزخرفة، فقد تعددت العناصر الزخرفية في هذا المسجد، ويلقاها الزائر له في إطارات الدعامات وتيجانها، وتيجان الطاقات والنوافذ، كما يلقاها في إطارات العقود والنوافذ والطاقات، وفي عقود الدعامات وعقود النوافذ، وفي الإزارات التي تعلو رؤوس العقود، ورؤوس النوافذ، والإزارات التي تمتد حول جدران المسجد الداخلية، وفي الإزار الخشبي الذي يحيط بهذه الجدران ويجري مسافة كيلومترين عليها، وفي رؤوس الطاقات الممتدة بين النوافذ على الواجهات، وفي السرر المقامة بين الطاقات والعقود، وتلك الممتدة على واجهات الصحن، وفي الشرفات التي تعلو الجدران، وفي ستائر النوافذ المفرغة.

كل هذه الزخارف تجعل للمسجد الطولوني طابعا خاصا في تاريخ الزخرفة المعمارية، لاشتماله على مجموعة زخرفية لم تجتمع من قبل.

بقايا كوابيل للسقف تمثل رأس فيل بنابيه.

المنارة

أقام أحمد بن طولون منارة الجامع في الزيادة الغربية، لصق حائط الزيادة، وهي مبنية بالحجر، مقاس قاعدتها ١٣,٦٥٨١٢,٧٨ مترا، وسلمها من الخارج بأربع قلبات يصعد منه إلى سطح فسلم حلزوني نصف دائري يوصل إلى سطح آخر يرتكز عليه الجزء العلوي وهو على هيئة مبخرة، وهي المنارة الوحيدة في مصر ذات السلم الخارجي، وهي تشابه منارة سامراء، أما المنارة الحالية فلها قاعدة مرتفعة بنيت من الحجارة، وحفرت عليها في كل جانب من جوانبها الأربعة طاقة صماء مزدوجة، في وسطها عمود صغير رشيق، يرتقي عليه عقدان منفوخان على هيئة عقود المآذن الأندلسية، وترتفع هذه القاعدة أو هذا الطابق الأول من المئذنة إلى ما يزيد قليلا على واحد وعشرين مترا، ويعلوه طابق ثان مستدير يبلغ ارتفاعه تسعة أمتار، ويبلغ قطره حوالي سبعة أمتار. ويرتفع فوقه طابقان مثمنان، متراجعان، ينتهي ثانيهما بقبة صغيرة مضلعة، يبلغ ارتفاع قمتها عن سطح الأرض أربعين مترا.

وقد أعاد بناءها السلطان لاجين سنة ٦٩٦هـ (١٢٩٦م) على مثال ما كانت عليه من قبل، غير أنه أضاف إليها مبخرة مضلعة في قمتها، على أسلوب مباخر المآذن في العصر المملوكي. كما أنه بنى قنطرة تربط المئذنة بسطح مؤخر المسجد.

ويقال إن المنارة التي أقيمت مع المسجد في عهد ابن طولون كانت غريبة المظهر والبنيان، لأن مدرج سلمها يلتف حولها من الخارج، وقد بنيت من الحجارة، بينما بني المسجد كله من الآجر.

الترميم

في سنة ١٩١٨م أمر الملك فؤاد بتخلية جوانب الجامع وإصلاحه. وفي عهده تمت تخلية الوجهة البحرية للجامع، وفتحت أبوابها، وأصلحت أسوارها، وأزيلت الأبنية المحدثة بالزيادة القبلية. كما أخلي قسم كبير من الوجهتين

الخط الكوفي

الخط الكوفي المستخدم في الجامع الطولوني خاصية لم يستطع أحد من المستشرقين إنكار أصالتها، ولم يحاول أن يردها إلى مصدر غير عربي إسلامي. وتبدو زخرفة الخط في المسجد الطولوني سلسلة مبسطة، واقتصرت على رسم الحروف نفسها، وطريقة تنسيقها واتزان مواضعها، فلم تلبس حلية خارجية، زهرية أو نباتية. ويلاحظ في رسم الحروف، أول رحلة لتطورها الزخرفي، إذ روعي أن تنتهي الخطوط الرأسية بفرطحة مدببة، وأخذت رؤوس الحروف المستديرة تنبعج على أشكال الوريقات النباتية وأنصافها.

الشرقية والغربية، وتم تبليط أروقة الإيوانات الغربية والبحرية والقبلية، وأصلحت الزخارف الجصية بباطن العقود، وأصلح السبيل الموجود في الزيادة القبلية، وأزيلت الأتربة من الزيادات، ومهدت هي والصحن، وأعيد بناء الرواق المشرف على الصحن من الإيوان الشرقي، كما عمل لجميع الأروقة سقف من الأسمنت المسلح برسم السقف القديم، ثم غلفت بأخشاب أدخلت فيها الأجزاء القديمة، وأعيد تركيب الإزار الكوفي فيها.

ووفقا لكتاب «المدخل إلى مساجد القاهرة ومدارسها»، فإن المسجد الطولوني تأثر بإقامة مسجدي الأزهر والحاكم فيها، وبدأ شأنه يضمحل، حتى قيل إنه «تشعث وخرب أكثره» في أيام الخليفة الفاطمي المنتصر بالله، وقد أمر هذا الخليفة بتجديد أحد الأبواب النافذة إلى المسجد من الزيادة الشمالية، وسجل تاريخ هذا التجديد في لوحة رخامية على هذا الباب، في سنة ٤٧٠هـ (١٠٧٧م).

وألصقت ببعض الدعامات بضعة محاريب جصية، عددها خمسة، أحدها عمل في عهد الملك الأفضل (وزير المستنصر بالله)، سنة ٤٨٧هـ (١٠٩٤م)، ومنها محرابان يرجعان إلى العصر الفاطمي، ورابع يبدو أنه عمل في القرن السابع الهجري (الثالث عشر الميلادي) وفي سنة ٦٩٣هـ (١٢٩٣م) عندما فر الأمير لاجين واختفى بالمسجد الطولوني، وصار يتردد بمفرده في الجامع، وهو حينئذ خراب، وأقسم إن سلمه الله من هذه المحنة ومكنه في الأرض أن يجدد عمارة هذا الجامع.

فلما كان شهر المحرم من سنة ٦٩٦هـ (١٢٩٦م) وجلس لاجين على سرير الملك ولقب بالملك المنصور، بر بقسمه، وصرف إليه كل ما يحتاج إليه في العمارة، وأزال كل ما كان فيه من تخريب، وبلطه، وبيضه، وأقام القبة التي تعلو المحراب، والفسقية التي تتوسط الصحن، ومحرابا من الجص في بيت الصلاة. وقد جددت في المسجد «مئذنتان» في عهد الملك الناصر محمد بن قلاوون، في أوائل القرن الثامن (الرابع عشر الميلادي)، وقد هدمت هاتان المئذنتان من بعده.

المحراب

ونلاحظ أن محراب ابن طولون محراب مجوف، يحف به من كل جانب عمودان متلاصقان، وثمة محاريب أخرى صغيرة مسطحة على الجص ألصقت بالدعامات ولا تظهر على الرسم التخطيطي للمسجد.

وللمسجد أبواب فتحت في جدرانه، جملتها اثنان وأربعون بابا. وقد فتحت نوافذ في جدران المسجد الأربعة، ولم تفتح مثلها في جدران الزيادات، ويبلغ عدد هذه النوافذ ١٢٨ نافذة، يرتفع مستوى قواعدها عن أرضية بيت الصلاة والأروقة ما يقرب من ستة أمتار.

رحلة العمر

د. آندي حجازي
أستاذة تعلم وتعليم أردنية

إن الاستغراق في متاع الدنيا وشهواتها يشغل القلب عن التبصر والاعتبار ويحرمه متعة الاهتمامات الكبيرة اللائقة بدور الإنسان العظيم في الأرض، وإن الذي لا يوقن بالآخرة يقينا جازما يصعب فطامه عن شهواته، وصرفه عن مجونه ولذاته، لأنه لا يرضى أن يبيع لذة حاضرة أكيدة من أجل لذة آجلة يشك هو في وقوعها! ولذلك يرتكب الكثير من البشر ما يرتكبون في حياتهم من ذنوب ومعاص دون اكتراث لآخرتهم أو نهايتهم والشكل الذي ستكون عليه خاتمتهم.

بينما المؤمن العاقل من سخر الدنيا لنفسه ولم يسخر نفسه للدنيا، ولم يجعل الدنيا غايته وهمه، بل جعلها وسيلة للبر والصلاح والوصول للجنة؛ فتراه دائم التفكير بآخرته وخاتمته. وكان سفيان الثوري رحمه الله يبكي فأشفق عليه أهله وقالوا: أتبكي الذنوب؟ فقال: الذنوب أهون علي من هذه، وأشار إلى تبنة بيده (حفنة من بقايا سيقان القمح والشعير لعلف الماشية)، إنما أخاف سوء الخاتمة.

وعن شهر بن حوشب قال: قلت لأم سلمة: يا أم المؤمنين، ما كان أكثر دعاء رسول الله ﷺ إذا كان عندك؟ قالت: كان أكثر دعائه: يا مقلب القلوب، ثبت قلبي على دينك، قالت: قلت: يا رسول الله، ما أكثرَ دعاءك: يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك! قال: «يا أم سلمة، إنه ليس آدمي إلا وقلبه بين أصبعين من أصابع الله، فمن شاء أقام، ومن شاء أزاغ»، فتلا معاذ: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا﴾ (آل عمران:٨). فإذا كان رسول الله ﷺ وهو المعصوم من الخطأ يخاف تبدل القلب واتباع الهوى وتبدل الخاتمة فيكثر الدعاء لله تعالى، فكيف بنا نحن!، وإننا في زمن كثرت به الأهواء والمذاهب والآراء المضللة والفتن والمغريات؟! فنحن أجدر بالدعاء لله تعالى بتثبيت القلب على الإيمان وحسن الختام.

ويرى الكثير أن العلامة المميزة لحسن الخاتمة أو سوئها غالبا ما تكون سيرة الإنسان في حياته، وعمله طيلة أيام عمره. فتأتي الخاتمة غالبا لتكشف عن سجل الحياة، وتلخص رحلة العمر، وأفعال الإنسان ونواياه منها، وتبدي للناس ما يشغل بالهم ويسيطر على تفكيرهم، وما خفي من أعمالهم من صالح أو طالح، وتعلن عن أعظم اهتماماتهم في مسيرة حياتهم.

خواتيم مبشرة

وانظر مثلا، ما أجمل خاتمة هذه المرأة؛ تموت في دار تعليم وتحفيظ القرآن الكريم، وقد تزوجت منذ أربع سنوات ولم تنجب، فركزت جل اهتمامها على حفظ القرآن الكريم وتحفيظه، وبعد أن صلت الفجر مع زوجها وهو إمام المسجد، عادت وجهزت طعام إفطار لزوجها، ثم

أصرت رغم مرضها وجسدها المتعب أن تذهب وتسمِّع وردها اليومي مما حفظت من القرآن الكريم والذي كان جزءا كاملا من القرآن الكريم! فبعد أن انتهت من تسميعه وصلت الضحى في مركز التحفيظ، شعرت بضيق في التنفس، وتجمعت المعلمات حولها ليساعدنها واتصلن بزوجها، وحضر زوجها، ثم قال لها: نذهب للمستشفى؟ فقالت: لا، فقال: أحضر الطبيب إلى هنا؟ فقالت: لا، فأنا الآن أموت! وفاضت روحها والقرآن الكريم في يدها وهي في دار التحفيظ.. فيا الله ما أروعها من خاتمة.. ومن لا يتمنى مثل هذه الخاتمة؟ ولكن لا يوفق أحد لهذه الخاتمة إلا من كان عمله في حياته على مثل ذلك، وأخلص عمله لله، فيقول البعض: من أراد أن يعرف كيف ستكون خاتمته فلينظر إلى عمله في حياته. قال تعالى: ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴿٢٧﴾ ﴾ (إبراهيم:٢٧).

وهذه قصة أخرى يرويها أيضا الشيخ عباس بتاوي والذي كان يعمل في تغسيل الأموات في جدة، وهو يروي قصة تغسيل الشيخ علي جابر إمام الحرم المكي الشريف الذي توفي عام ١٤٢٦هـ الذي كان يصدح بأعذب صوت في جنبات بيت الله العتيق لمدة تزيد عن التسع سنوات، وقد طلب العديد من أهله تغسيل جسده الطاهر، فأكرم الله الشيخ عباس بتاوي ليقوم بذلك كما ذكر، وقد كان الشيخ علي جابر رحمه الله عظيم الجسد كما يصف عباس بتاوي؛ فيقسم بالله أنه حمله هو واثنان من النعش إلى طاولة الغسيل بكل سهولة حتى تعجبوا من هذه الخفة التي تناقض عظم جسده. ويقول عندما كشفنا عن وجهه إذا بالابتسامة واضحة على وجه الشيخ، ويضيف الشيخ عباس قائلا: كان جسد الشيخ علي جابر رحمه الله قد وضع بالثلاجة أكثر من اثنتي عشرة ساعة، ولكن الغريب أن جسده لم يكن باردا أبدا، وكأنه لم يدخل الثلاجة وإنما برودة عادية، برودة الميت الطبيعية، ويقول: من خلال سنوات قضيتها في هذا العمل والكثير من الحالات التي مرت علي، إذا مكث الجسد في الثلاجة لمدة تزيد عن ساعتين؛ فإنه يتصلب تماما، حتى في بعض الأحيان ترى قطع ثلج على الجسد، وإذا وضعت يدك على البطن كأنك وضعتها على لوح زجاج بارد، ولكن هذا لم يكن للشيخ علي جابر، فعندما حركنا يديه إذا بها تتحرك بكل سهولة، وكأنه نائم وكأنه لم يدخل الثلاجة، وحتى إن مساعد الشيخ المغسل أيضا تعجب من ذلك، وقلت له إنها من أغرب الحالات التي مرت علينا، اثنتا عشرة ساعة في الثلاجة ولا أثر للبرودة على جسده، وأطرافه تتحرك بكل سهولة، الله أكبر، حتى بكى أبناؤه لشدة تأثرهم. ثم يتابع المغسل: وبعد انتهاء التغسيل حملنا الشيخ علي جابر وتوجهنا به صوب المكان الذي طالما تعلق قلبه به، المكان الذي طالما أم الناس فيه، إلى الحرم المكي الشريف، ويقول الشيخ عباس: لا أقدر أن أخبركم عن مدى تدافع الناس وعن الجموع والمواكب التي تبعت سيارة نقل الموتى، وكم استغرق الطريق لشدة الزحام بالمعزين، كلها تدعو لفقيد الأمة، وفي مقبرة الشرائع كان قبره، وقد امتلأت المقبرة برجال الأمن لتنظيم مرور السيارات ودخول الناس، رحمه الله، ما أجملها من بشائر لحسن الخاتمة، كيف لا ومن عاش على طاعة الله فالله يورثه محبة الناس والدعاء له والحزن لفراقه.

الموت لا ينتظر أحدا

وفي المقابل؛ يذكر البعض أن شابا كان صادا عن طاعة الله سبحانه وتعالى كما عرف عنه لم يفكر في التوبة أو لم يقدر عليها، جاءته سكرات الموت فجأة، فجاء مرافقوه يلقنونه الشهادة قل: لا إله إلا الله. ولكنه يتكلم بكل كلمة ولا يقول الشهادة! ويكررون عليه ولا سبيل. حتى قال في النزع الأخير: أعطوني مصحفا، ففرحوا واستبشروا وقالوا: لعله يقرأ آية من كتاب الله فيختم له بها، فأخذ المصحف ورفعه بيده وقال: أشهدكم إني قد كفرت برب هذا المصحف، ثم مات.

ما أقساها من خاتمة.. رحمنا الله برحمته وأحسن خاتمتنا وألهمنا الرشد حتى آخر لحظة.

وهذا شاب آخر في سكرات الموت أيضا يقولون له: قل لا إله إلا الله. فيقول: أعطوني دخانا. فيقولون: قل لا إله إلا الله. فيقول: أعطوني دخانا. فيقولون: قل لا إله إلا الله عله يختم لك بها. فيقول: أنا بريء منها.. أعطوني دخانا!

وذكر العلامة ابن القيم رحمه الله في كتابه: «الجواب الكافي» أن أحد الناس قيل له وهو في سياق الموت: قل لا إله إلا الله، فقال: وما يغني عني قولها وما أعرف أني قد صليت لله صلاة؟! فلم يقلها، ومات على ذلك.

وقال الحافظ ابن كثير رحمه الله: «إن الذنوب والمعاصي والشهوات تخذل صاحبها عند الموت، مع خذلان الشيطان له، فيجتمع عليه الخذلان مع ضعف الإيمان، فيقع في سوء الخاتمة والعياذ

بالله، قال تعالى: ﴿وَكَانَ ٱلشَّيۡطَٰنُ لِلۡإِنسَٰنِ خَذُولٗا ٢٩﴾ (الفرقان:٢٩).

ويقول بعض الصالحين إن سوء الخاتمة تكون على رتبتين؛ الرتبة الأولى وهي الأسوأ: حيث تكون بسبب الشك أو الشرك بالله أو الكفر والجحود؛ فتقبض الروح على تلك الحال وتكون حجابا بينها وبين الله تعالى، وتقتضي العذاب المخلد.

والرتبة الثانية، وهي الأقل سوءا: حيث يغلب على قلبه عند الموت حب أمر من أمور الدنيا أو اتباع شهوة محرمة، كمن يتعاطى المحرمات والمنكرات كالمخدرات والأغاني والتدخين ومشاهدة الصور المحرمة وظلم الناس والتعامل بالربا... ويصر على ذلك حتى آخر لحظة ويموت على ذلك، بما يظهر سوء الخاتمة والعياذ بالله.

التحول من الضلال إلى الهداية

ولكن من علامات حسن الخاتمة ومن رحمة الله ببعض عباده (والذين قد يكون لهم عمل صالح خفي لا يعلمه إلا الله أو لديهم خشية من الله على الرغم من ارتكابهم بعض المعاصي، أو قد تكون لهم توبة بين الحين والآخر)، أن يوفقهم الله عزوجل قبل موتهم للتوبة من الذنوب والمعاصي، والإقبال على الطاعات وأعمال الخير فيختم لهم بحسن الخاتمة، وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا أراد الله بعبده خيرا استعمله» قالوا: كيف يستعمله؟ قال: «يوفقه لعمل صالح قبل موته» (رواه الإمام أحمد والترمذي وصححه الحاكم في المستدرك).

وهذه قصة جميلة لمن تبدلت حياته قبل مماته فتاب إلى الله تعالى، فيقول أحد الأشخاص: كنت أمشي في سيارتي بجانب سوق في الرياض فإذا بشاب يعاكس فتاة، فترددت بنصحه ثم عزمت على نصحه، فنزلت من سيارتي وسلمت على الشاب وقلت له: أنا لست من الشرطة وإنما أخ أحب الخير لك، وبدأت أذكره بالله حتى دمعت عيناه، وتفرقنا وأخذت رقم هاتفه وأخذ رقمي، وبعد أسبوعين كنت أبحث في جيبي فوجدت رقم الشاب فقلت: أتصل به وكان وقت الصباح فاتصلت به قلت: السلام عليكم.. فلان هل عرفتني؟، قال

وكيف لا أعرف صوتا سمعت به كلمات الهداية وأبصرت النور وطريق الحق. واتفقنا على اللقاء بعد العصر، وقدر الله أن أتأخر على صاحبي ساعة لضيوف جاءوني، ثم ترددت هل أذهب أم لا. ثم قررت الوفاء بالوعد ولو متأخرا، وعندما طرقت الباب فتح لي والده، فسلمت عليه وسألته عن ابنه فأخذ يحدق بي باستغراب وصمت، وبعد أن كررت السؤال أجاب بحزن: هذا تراب قبره قد دفناه قبل قليل. فقلت يا والد، قد كلمني الصباح! فقال: صلى الظهر، ثم جلس في المسجد يقرأ القرآن، وعاد إلى البيت ونام القيلولة، فلما أردنا إيقاظه للغداء فإذا بروحه قد فاضت إلى بارئها. وأضاف الأب: لقد كان ابني من الذين يجاهرون بالمعصية لكنه قبل أسبوعين فقط تغيرت حاله وأصبح هو الذي يوقظنا لصلاة الفجر بعد أن كان يرفض القيام للصلاة ويجاهر بالمعصية في دارنا، فمن الله عليه بالهداية. ثم سألني الأب: منذ متى عرفت ولدي يا بني؟ قلت: منذ أسبوعين. فقال: أنت الذي نصحته؟ قلت: نعم. فقال: دعني أقبل رأسا أنقذ ابني من النار.

وهذه فتاة تحب التبرج في لباسها ومظهرها، لديها صديقة دائما تقنعها بالالتزام والصلاح وارتداء اللباس الإسلامي، لكن الفتاة كانت ترفض بشدة وتصر على التبرج، فخطر على بال صديقتها فكرة: أنا أريد أن أذهب لأشترى ملابس فهل تأتين معي؟ فوافقت الفتاة.. وبعد أن سارتا قالت لها الثانية: أنا عندي درس في المسجد الآن، ويجب أن أحضره، فهل تأتين معي؟ فوافقت الفتاة ودخلتا المسجد، وكانت المحاضرة عن الحجاب الشرعي، فتأثرت الفتاة الأولى بكلام الواعظة، وبكت وصممت ألا تخرج من المسجد إلا وقد ارتدت الحجاب الشرعي، وفعلا أحضرته لها الأخوات، فارتدته وخرجت من المسجد، فصدمتها سيارة وماتت وهي تائبة إلى الله تعالى وتائب قلبها. ومن وصايا لقمان عليه السلام لابنه: «يا بني لا تؤخر التوبة، فإن الموت يأتي بغتة».

التوبة رحمة

فعلى المسلم ألا يفقد الأمل في التوبة فباب التوبة مفتوح ليل نهار؛ ما لم تطلع الشمس من مغربها، وقد يوفق الله الإنسان لتوبة وعمل صالح في نهاية حياته يختم له به ختاما جميلا، مصداقا لقول رسول الله ﷺ وهو الصادق المصدوق في الحديث الصحيح: «... فوالله إن أحدكم أو الرجل يعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها غير باع أو ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها، وإن الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها غير ذراع أو ذراعين فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها» (رواه البخاري). فحتى من استمر على عمل صالح وغير في نهاية حياته، فعليه أن يراجع نيته من أفعاله قبل أن يختم له – والعياذ بالله – بخاتمة سوء غير متوقعة.

وقال أبوحمزة الجندي:

يا نفس توبي فإن الموت قد حانا
واعصي الهوى فالهوى مازال فتانا
في كل يوم لنا ميت نشيعه
ننسى بمصرعه آثار موتانا
ما بالنا نتعامى عن مصائرنا
ننسى بغفلتنا من ليس ينسانا
أبعد خمسين قد قضَّيْتها لعبا
قد آن تقصري قد آن قد آنا
أين الملوك وأبناء الملوك ومن
كانت تخر له الأذقان إذعانا
خلوا مدائن كان العز مفرشها
واستفرشوا حفرا غبرا وقيعانا

وسأل سيدنا موسى عليه السلام الله عزوجل قال (كما جاء في الأثر): «يا رب إذا سألك الطائع ماذا تقول؟ قال: أقول: لبيك، قال: فالصائم؟ قال أقول: لبيك، قال: فالزاهد؟ قال: أقول: لبيك، قال: فالتائب؟ قال: أقول: لبيك لبيك لبيك، يا موسى! كل هؤلاء يتكل على عمله، وهذا يتكل على رحمتي، وأنا لا أخيب عبدا اتكل علي». ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴿٢٢٢﴾﴾ (البقرة:٢٢٢).

تتويج لعمر من العمل

السنوسي محمد السنوسي
باحث إسلامي

ليس أفضل عند المؤمن من ختام حسن تطوى به صفحة حياته الدنيا، ذلك أن الناس يبعثون يوم القيامة على ما ماتوا عليه كما جاء في الحديث الشريف؛ فعن جابر بن عبدالله قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «يبعث كل عبد على ما مات عليه» (١).
فإذا مات المسلم على طاعة، كصيام أو تلبية (٢)، أو قراءة للقرآن؛ بعث على ذلك يوم القيامة. وما أسعد المسلم حينئذ بهذه الهيئة التي يبعث عليها، فهي تطمئنه وتثبته وتيسر له ما هو مقدم عليه من أهوال يوم القيامة.
الناس جميعا يكونون في فزع واضطراب؛ بينما هو ثابت الجنان، مطمئن القلب، يستظل بعمله، ويستعد للقاء الله، ولنيل الجزاء الأوفى على ما أسلف في الدنيا من عمل الصالحات.

كما أن حسن الخاتمة من دلائل حب الله للعبد، فعن أنس أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله تعالى إذا أراد بعبد خيرا استعمله». فقيل: وكيف يستعمله يا رسول الله؟ قال: «يوفقه لعمل صالح قبل الموت، ثم يقبضه عليه» (٣).

إن لحظة الخاتمة تجسد محصلة حياة الإنسان، وتمثل نتيجة سعيه في الدنيا، فهي تتويج لعمر من العمل، خيرا كان أم شرا.

نعم، قد يختم لإنسان بغير ما كان يعمل في الدنيا، كما جاء في الحديث: «فوالله الذي لا إله غيره إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع، فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها؛ وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع، فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها» (٤).

لكن هذا الحديث يفسره ويجليه ما جاء عن سهل بن سعد الساعدي رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ، قال: «إن الرجل ليعمل عمل أهل الجنة، فيما يبدو للناس، وهو من أهل النار، وإن الرجل ليعمل عمل أهل النار، فيما يبدو للناس، وهو من أهل الجنة» (٥).

فنحن قد نظن أن خاتمة إنسان ما ليست متوافقة مع حياته؛ وهذا غير صحيح، بل هذا ما يبدو لنا كما جاء في رواية سهل الساعدي.

وقد شرح ابن رجب هذه الإضافة المهمة التي جاءت برواية سهل فقال: «قوله: (فيما يبدو للناس) إشارة إلى أن باطن الأمر يكون بخلاف ذلك، وأن خاتمة السوء تكون بسبب دسيسة باطنة للعبد لا يطلع عليها الناس، إما من جهة عمل سيئ ونحو ذلك، فتلك الخصلة الخفية توجب سوء الخاتمة عند الموت؛ وكذلك قد يعمل الرجل عمل أهل النار وفي باطنه خصلة خفية من خصال الخير، فتغلب عليه تلك الخصلة في آخر عمره، فتوجب له حسن الخاتمة» (٦).

فالله سبحانه أرحم بعباده من أن يضيع عملهم، وأعدل من أن يظلم أحدا؛ قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجۡرَ مَنۡ أَحۡسَنَ عَمَلًا﴾ (الكهف:٣٠)، وقال أيضا: ﴿مَّنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا فَلِنَفۡسِهِۦۖ وَمَنۡ أَسَآءَ فَعَلَيۡهَاۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ﴾ (فصلت:٤٦).

كما أن الله تعالى لا تخفى عليه خافية؛ ومهما اجتهد المرء أن يخفي على الناس حقيقة قصده وسعيه، فإن الأمور منكشفة عند الله انكشافا تاما بحيث لا يغيب عنه ما تطويه الصدور، ولا يعزب عن علمه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء؛ ولذا فإنه سبحانه يعطي كل إنسان الخاتمة التي يستحقها، لا طبقا لما يبدو للناس، بل جزاء وفاقا لما يعلمه الله عنه، من خير أو شر (٧).

دعاء

والمطلوب إذن من المسلم أن يدعو الله بإلحاح أن يهبه الصدق في القول والعمل، والإحسان في السر والعلن، وأن يثبته على طريق الاستقامة؛ حتى يكون جديرا بختام حسن، يكون له نعم البشرى فيما هو مقبل عليه بعد الموت.

فالنبي ﷺ، وهو من هو، كان يكثر في دعائه أن يثبت الله قلبه على الإسلام؛ فقد أخبرت أم سلمة رضي الله عنها أن النبي ﷺ كان يكثر في دعائه أن يقول: «اللهم مقلب القلوب، ثبت قلبي على دينك»، قالت: قلت: يا رسول الله، أوإن القلوب لتتقلب؟! قال: «نعم، ما من خلق الله من بني آدم من بشر، إلا أن قلبه بين أصبعين من أصابع الله، فإن شاء الله عزوجل أقامه، وإن شاء الله

أزاغه».

وحين سألت أم سلمة النبي ﷺ أن يعلمها دعوة تدعو بها لنفسها، قال لها: «قولي اللهم رب محمد النبي، اغفر لي ذنبي، وأذهب غيظ قلبي، وأجرني من مضلات الفتن ما أحييتنا» (٨).

عمل

إضافة إلى هذا الدعاء الحار المتصل، فعلى المسلم أن يظل منشغلا بطاعة الله ومرضاته؛ لأنه لا يدري متى يحين أجله، ولا متى تقوم قيامته؛ فإذا كانت حياة المسلم موصولة بالطاعة فإنه متى جاءه الموت وجده عابدا ذاكرا شاكرا، وبذلك يتحقق له حسن الخاتمة.

لقد أمر الله نبيه ﷺ بالعبادة حتى يجيئه الموت، فقال تعالى: ﴿ وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ ﴾ (الحجر:٩٩). وأمر عباده بتقواه حق التقوى وبأن يموتوا على الإسلام، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ﴾ (آل عمران:١٠٢). فإذا كنا مأمورين بالعبادة حتى الموت، وبأن نموت على الإسلام، بينما نحن لا نعرف ساعة مجيء الموت؛ فإن الامتثال لهذا الأمر من الله يقتضي أن تكون حياتنا كلها مشمولة بالعبادة، حتى إذا حان الأجل كنا في طاعة الله، وكنا مسلمين كما أمرنا.

قال القرطبي في تفسير قوله تعالى ﴿ وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ ﴾: «اليقين: الموت. فإن قيل: فما فائدة قوله: ﴿حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ ﴾ وكان قوله: ﴿ وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ ﴾ كافيا في الأمر بالعبادة؟ قيل له: الفائدة في هذا أنه لو قال: ﴿ وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ ﴾ مطلقا، ثم عبده مرة واحدة كان مطيعا؛ وإذا قال: ﴿حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ ﴾ كان معناه: لا تفارق هذا حتى تموت. فإن قيل: كيف قال سبحانه: ﴿ وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ ﴾ ولم يقل: أبدا؟ فالجواب أن اليقين أبلغ من قوله: أبدا؛ لاحتمال لفظ الأبد للحظة الواحدة ولجميع الأبد. والمراد: استمرار العبادة مدة حياته، كما قال العبد الصالح: ﴿وَأَوۡصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمۡتُ حَيًّا ﴾ (مريم:٣١)» (٩).

توبة

بجانب الدعاء الحار والانشغال الدائم بالعبادة، تأتي ثالثة العبادات المهيئة للخاتمة الحسنة، وهي المبادرة بالتوبة متى طاف بالإنسان طائف من الشيطان أو من هوى النفس.

فليس من المتصور أن يكون الإنسان على الصراط المستقيم طوال الوقت، لا يحيد عنه يمنة ولا يسرة؛ لأن ابن آدم خطاء وكثير النسيان والغفلة.. والنجاة إذن للمرء من أن يدركه الموت وهو على حال المعصية، هي أن يبادر بالتوبة النصوح - حتى لو تكرر الذنب - بلا يأس ولا استسلام لنزغات الشيطان المحبطة والميئسة؛ قال تعالى عن صفات المتقين: ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوۡ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ لِذُنُوبِهِمۡ وَمَن يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمۡ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ﴾ (آل عمران:١٣٥)، وقال أيضا: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ إِذَا مَسَّهُمۡ طَٰٓئِفٞ مِّنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبۡصِرُونَ ﴾ (الأعراف:٢٠١).

إن الله عزوجل خلق الإنسان، وهو سبحانه أعلم بطبيعة من خلق، وبتنازع نفخة الروح فيه مع قبضة الطين.. ومن رحمته سبحانه بهذا المخلوق الضعيف أن فتح أمامه باب التوبة ما لم يغرغر، وأن جعل له محطات إيمانية يتزود منها، ويغسل عن نفسه فيها ما أصابه من درن؛ وهذه المحطات متصلة لا تنقطع، على مدى اليوم والليلة، وعلى شهور العام.

فعلى المسلم أن يغتنم فرصة أن روحه مازالت بين جنبيه، وأن يحسن الإنابة والتوكل على الله، وأن يكثر من فعل الخيرات ويسارع فيها ولا يحتقر من المعروف شيئا، وأن تكون التوبة النصوح المتجددة ملاذه من لحظة ضعف يستزله الشيطان فيها؛ حتى إذا حانت منيته كان على حال ترضيه قبل لقاء الله عزوجل.

الهوامش

(١) صحيح مسلم، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب الأمر بحسن الظن بالله تعالى عند الموت.

(٢) جاء في صحيح مسلم - كتاب الحج، باب ما يفعل بالمحرم إذا مات - عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رجلا خر من بعيره وهو واقف مع النبي ﷺ بعرفة فوقص أي: انكسر عنقه فمات، فقال: اغسلوه بماء وسدر، وكفنوه في ثوبيه، ولا تخمروا رأسه؛ فإن الله يبعثه يوم القيامة ملبيا.

(٣) أخرجه الترمذي وقال: حديث حسن صحيح.

(٤) رواه البخاري ومسلم.

(٥) رواه البخاري ومسلم.

(٦) ابن رجب الحنبلي، جامع العلوم والحكم، شرح الحديث الرابع، ص:١٥١، تعليق وتحقيق: د. ماهر ياسين الفحل، دار ابن كثير، دمشق - بيروت، ط١، ٢٠٠٨م.

(٧) في معلقته أشار زهير بن أبي سلمى إلى أن ما يجاهد الإنسان لإخفائه عن الناس من صفاته وعيوبه، لابد أن يظهر لهم يوما.. فما بالنا بعلم الله سبحانه؟! قال زهير:

ومهما تكن عند امرئ من خليقة
وإن خالها تخفى على الناس تعلم

(٨) أخرجه أحمد في مسنده، مسند النساء، حديث أم سلمة زوج النبي ﷺ.

(٩) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، نقلا عن «المكتبة الإسلامية»، من موقع «إسلام ويب».

تطبيقات التواصل الاجتماعي.. مسالك الخير

القاهرة - مصعب ناصر
دار الإعلام العربية

قال رسول الله ﷺ: «إذا أراد الله بعبده خيرا استعمله» قالوا: كيف يستعمله؟ قال: «يوفقه لعمل صالح قبل موته».. ومن ذلك، فإن استمرارية العمل الصالح إحدى علامات حسن الخاتمة، وقد روى أبو هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إذا مات العبد انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له»، ومن ذلك ما يأخذ صورة عصرية في صورة تطبيقات دعوية تعمم النفع والفائدة والرقي على المسلم في عباداته ومعاملاته، وفي دنياه وأخراه.

يأتي في صدارة هذه التطبيقات تطبيق «وذكّر»، الذي يتنوع بين الأذكار والأحاديث المكتوبة أو المقاطع الدينية القصيرة (كآيات القرآن وقصار السور) في صورة حالة منشور على الفيس بوك أو كتغريدة على تويتر يراها كل أصدقائك وكل متابعيك، بعد الاشتراك في التطبيق من هنا http://wazkr.com/؛ بذلك تبدأ بجني عدد لا حصر له من الحسنات حتى أثناء انشغالك أو نومك.

الشريف: تنشر أعمال خير وبر لصاحب الحساب حتى بعد وفاته

أيضا، من التطبيقات التي تدخل على صاحبها أجرا ميسورا تطبيق «صلاتي»، فمع هذا التطبيق تشارك يوميا مواعيد الصلاة لمدينتك على صفحتك الشخصية، واتجاه القبلة، ونصائح للخشوع في الصلاة، وقيام الليل. ويمكنك الاشتراك في هذا التطبيق من هنا http://bit.ly/1QhVIAH.

تطبيق آخر هو «فرسان السنة»، فبالإضافة إلى نشر آيات وأحاديث وسنن عن الرسول ﷺ، فإن التطبيق ينشر أيضا العديد من الموضوعات الدينية التي تهم المسلمين في شتى بقاع الأرض. ويمكن الاشتراك فيه من هنا

http://bit.ly/1GlE6NJ.

«منبه الأذكار»، باشتراكك في هذا التطبيق؛ تنشر على الحائط الخاص بك في الفيس بوك، وعلى مدار اليوم، أذكار وتسابيح وسنن عن رسولنا الكريم ﷺ، كذلك أسماء الله الحسنى. ويمكنك الاشتراك من هنا http://bit.ly/1AXkDCP.

وهناك أيضا تطبيق «آيات»، وينشر آية مختارة من كتاب الله عزوجل على حسابك يوميا، ويمكن الاشتراك فيه من هنا http://bit.ly/1FLjVEr.

ومن التطبيقات المهمة أيضا «أريج الجنة»، الذي يقول مبتكروه: «عطر موقعك بذكر الله بأبسط الطرق من خلال عرض أذكار متجددة». الاشتراك من هنا http://bit.ly/1F46ZbU.

أيضا، تطبيق «رياض العلم» الذي ينشر فوائد إسلامية وأحاديث وأدعية نبوية. والاشتراك فيه من هنا http://bit.ly/1nhRHcH.

ولمحبي سماع آيات الذكر الحكيم، يمكن لمشتركي تطبيق «Quran mp3 App»، الاستماع إلى القرآن الكريم بأصوات عدة قراء مباشرة من على صفحتك، الاشتراك من هنا http://on.fb.me/1BUl4sx.

أيضا، تطبيق «ذكر ولو بآية»، ينشر آيات وأدعية ومواعظ وإرشادات من القرآن الكريم https://www.facebook.com/ayatquranCOM.

الدال على الخير

وحول استخدام وسائل التواصل الاجتماعي والتطبيقات التي أتاحتها في نشر الخير وتجنب سوء الخاتمة، وأيسر الأعمال التي يمكن للمسلم من خلالها أن يصل إلى حسن الخاتمة حتى ولو كان يعمل على مدار ساعات اليوم، يقول

الطرفاوي: وسيلة لنشر العلم الصحيح والعمل الصالح وحث الناس عليه بالحكمة

الباحث والداعية أبوحسام الدين الطرفاوي: قال رسول الله ﷺ «من دل على خير فله مثل أجر فاعله». (أخرجه أبوداود وغيره بسند صحيح)؛ ومن ذلك فإن استخدام مواقع التواصل الاجتماعي وغيرها على أنواع: نوع يستخدمها لإشباع رغباته وشهواته، فيضيع من أجل ذلك ساعات وساعات لا تعود عليه إلا بالذنوب والآثام وتضييع الأموال والأوقات، وسيسأل عنها يوم القيامة.

ونوع يستخدمها لأغراض دنيئة، كأكل أموال الناس بالباطل، مثل شركات النصب والاحتيال على الناس.

ونوع يستخدمها ضد البلاد في التعاون مع المفسدين والأعداء لخرابها. ونوع يستخدمها لنشر الأفكار الباطلة والديانات المنحرفة سعيا وراء مال أو شهرة.

ونوع يستخدمها لنشر الأخبار الكاذبة والأباطيل لإحداث بلبلة في المجتمع والتشهير بالناس أو تحقيق شهرة من وراء ذلك. ونوع يستخدمها تسلية وتضييعا للأوقات، وهذا دليل على فراغ العقل والقلب؛ وكل هذه الأنواع فيها الضرر المحقق.

وفي المقابل هناك من يستخدمها للترويج لسلعة صالحة أو نشاط يعود عليه وعلى غيره بالنفع، فهذا جائز.

ونوع - وهو الأهم - يستخدمها في نشر العلم الصحيح والعمل الصالح وحث الناس عليه بالحكمة والموعظة الحسنة، وهذا عمل صالح. ونوع يستخدمها في التواصل بين الأقارب وصلة الأرحام؛ وكل هذه الأنواع صاحبها مأجور عليها.

إلا إن هناك آفات في الأنواع الأخرى وسقطات تقع، وهذا لابد منه، لكن خيرها يغلب شرها؛ فعلى من يريد الاستفادة من ذلك أن ينوي العلم الصالح وحث الناس عليه ولو بنشر آية أو حديث، أو نصيحة ينصح بها نفسه وغيره.

وحول كيفية تجنب سوء الخاتمة من خلال وسائل التواصل الاجتماعي أيضا، أكد الطرفاوي أنه إذا أراد المسلم تجنب سوء الخاتمة من خلال جلوسه على الإنترنت فعليه أن ينوي نية صحيحة بأن ينشر الخير بين الناس، وأن يحسن خلقه، فلا يسب ولا يشتم، ولا يخدع؛ فإن فعل ذلك ووقعت منه هفوات فتكفرها حسناته إن شاء الله تعالى.

وأضاف: ولأن الله سبحانه وتعالى رحيم بعباده، فلم يكلفهم إلا بما يطيقون دون ضرر يلحق بهم أو بغيرهم؛ فقال تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ ۗ﴾ (البقرة:٢٨٦)، وقال تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا ۚ﴾ (الطلاق:٧)، فينبغي تجنب المشاركة في وضع ونقل أخبار كاذبة، وأوهام فاسدة، أو نشر أحاديث مكذوبة أو ضعيفة، وكذا مختلف البدع المضللة التي تتنافى مع الدين والأخلاق، والقيم والأعراف، ومن ثم تنشر الفساد في المجتمعات.

وحول تطويع شبكة الإنترنت في أفعال تجلب حسن الخاتمة، أضاف الطرفاوي: ينبغي الاستفادة منها بما يفيد، وتفعيلها التفعيل الإيجابي من خلال الاستفادة منها في صلة الأرحام، ونشر الخير،

وتقريب العلم الصحيح للناس، والتحذير من البدع والمنكرات، والتحذير من الكذب والشائعات. ومن ذلك، التطبيقات التي انتشرت عبر وسائل التواصل الاجتماعي للحث على الخير، وإرشاد الناس وتعليمهم، ونشر الأحاديث الصحيحة والحكم والمواعظ الهادفة، مثل تطبيق «وذكّر»، الذي ينشر أذكارا وأحاديث مكتوبة أو مقاطع دينية قصيرة، كآيات القرآن وقصار السور، في صورة «حالة/ منشور» على الفيس بوك أو كتغريدة على تويتر يراها كل أصدقائك وكل متابعيك بعد أن تشترك في التطبيق. وكذلك تطبيق «سنن»، الذي يعنى بنشر سنن النبي ﷺ وسيرته وفضائل الأعمال والقيم والأخلاق الإسلامية.

الإنترنت وحسن الخاتمة

وحول مدى فاعلية هذه التطبيقات في ضوء أعداد المتعاطين مع التقنية في العالم العربي، يقول الباحث والمحلل التقني محمد الشريف، إنها بالفعل تحقق تجاوبا كبيرا، خاصة بين فئة الشباب، مؤكدا أنه طبقا لتقرير قمة رواد التواصل الاجتماعي العرب، بمركز دبي التجاري العالمي التي عقدت خلال الفترة من ١٧ إلى ١٨ مارس ٢٠١٥م، فإن «فيس بوك» هو وسيلة التواصل الاجتماعي الأكثر استخداما في جميع أنحاء العالم العربي، بنسبة ٨٧٪، وتعد دول الإمارات العربية المتحدة وقطر وعمان والأردن وفلسطين والعراق واليمن وليبيا ومصر والمغرب هي الأكثر نشاطا. وحلّ «واتس آب» في المرتبة الثانية الأكثر استخداما بنسبة ٨٤٪. بينما مثل الحصول على المعلومات، ومشاهدة مقاطع الفيديو، ومشاركة الصور؛ كثاني أهم سبب لاستخدام وسائل التواصل الاجتماعي بنسبة ١٢٪. وتعد المحادثات النشاط الأكثر شيوعا بين المستخدمين العرب بنسبة ٥٠٪، تليها قراءة المدونات التي ينشرها آخرون بنسبة ١٨٪.

وأضاف أن تطوير المحتوى العربي هو عملية مستمرة وقوية. ومن المهم التأكيد على وجود العديد من المؤثرين عالميا في المجالات المختلفة، وأيضا العديد من المدونات القيمة جدا للجمهور، ومن ذلك التطبيقات التي انتشرت عبر وسائل التواصل الاجتماعي والتي تتيح نشر مواد لصاحب الحساب حتى بعد وفاته. وذلك إذا اشترك المستخدم في تطبيقات لأعمال خير وبر، بحيث تنشر تلقائيا بعد وفاته، فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية وعلم ينتفع به وولد صالح يدعو له» (أخرجه الترمذي وابن خزيمة وسنده صحيح)، فإذا كان ما ينشره على وسائل التواصل الاجتماعي طاعة لله تعالى وعلما ينتفع به الناس في دينهم ودنياهم، واستمر هذا العلم بعد مماته يتناقله الناس ويستفيدون منه؛ فهو من باب علم ينتفع به.

كما أشار إلى أهمية دور الإعلام الاجتماعي وكذا الإعلام التقليدي في نشر قصص الصالحين وكذا الطالحين للاعتبار من خواتيمهم، وللتحفيز على الطاعة وترك المعصية، مؤكدا أن وسائل الإعلام عليها دور كبير في توعية الناس بدينهم، وذلك من خلال الاهتمام بشؤون العبادات الصحيحة وتقريب فهمها للناس، وتعليمهم مكارم الأخلاق وحسن الآداب، وما عليهم من حقوق تجاه الآخرين، وتوعيتهم بحق الله تعالى عليهم.

سلاح ذو حدين

يقول الباحث الإسلامي أيمن الشعبان: مما لاشك فيه أن هذا العالم المتداخل، وتلك التقنية المنتشرة، كسائر الوسائل المستخدمة في حياتنا اليومية، سلاح ذو حدين؛ إما أن ينفعك في دينك ودنياك، إن أحسنت استثماره واستخدامه واتقيت الله فيه وجعلته نصب عينيك، وراقبته في كل حرف أو نظرة أو تغريدة أو مشاركة، وإلا فسيكون وبالا عليك وستندم على كل لحظة قضيتها فيه.

فكل ما فيه مسطّر مؤرشف مسجل موثق، لدى الشركة المؤسسة على هاردات وسيرفرات ضخمة غير محددة السعة، فقد يتم التلاعب بها أو الاختراق أو التغيير، لكن هنالك أرشيفا وسجلات محفوظة عند رب الأرض والسموات، لا تتغير ولا تتبدل، قال تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ۝١٠ كِرَامًا كَاتِبِينَ ۝١١ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ۝١٢﴾ (الانفطار:١٠-١٢)،

«من الأفعال قليلا كان أو كثيرا ويضبطونه نقيرا أو قطميرا» (تفسير الألوسي).

ويضيف: الله الله في استثمارها بأحسن الأوجه وأنفعها، وإياك ومغرياتها، فإما أن تكون نعمة تحصد ثمارها في جنات النعيم، أو تصبح نقمة تجني ويلاتها في أسفل سافلين - عياذا بالله - فهي بين النعمة والنقمة، والنتيجة إما ﴿فِي جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ۝٥٤ فِي مَقۡعَدِ صِدۡقٍ عِندَ مَلِيكٖ مُّقۡتَدِرِۢ ۝٥٥﴾ (القمر:٥٤-٥٥)، وإما ﴿فِي ضَلَٰلٖ وَسُعُرٖ ۝٤٧ يَوۡمَ يُسۡحَبُونَ فِي ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمۡ ذُوقُواْ مَسَّ سَقَرَ ۝٤٨﴾ (القمر:٤٧-٤٨)، نسأل الله العافية.

طريق للجنة وطريق لجهنم

جاء في مقال لم يذكر اسم كاتبه بموقع طريق الإسلام أنّ «الفيسبوك» من أكثر المواقع التي يتردد عليها المسلمون، وأنّ التواجد عليه وعلى غيره من مواقع التواصل الاجتماعي قد يكون طريقا مثمرا للجنة، بالمثابرة على نشر الخير والتعاون على تبصير المسلمين بأسس الدين، والدلالة على المواقع الإسلامية، والمشاركة في الأنشطة الدعوية، وسبل الدعوة يسيرة بفضل الله تعالى، فبضغطة زر يمكن نشر المعلومة الشرعية لعدد كبير من المسلمين، فعلينا أخي المسلم أن نستثمر كل الوسائل المتاحة لجني ثمار الحسنات، والتمتع بفضل الله تعالى لنشر الطاعات.

وفي المقابل، قد يكون طريقا إلى جهنم، بنشر الموبقات، والمشاركة في نشر المحرمات، والموسيقى، وأخبار الفاسقين، والدلالة على الشهوات، ويتحمل من يقوم بهذه الآثام كل ما يترتب على ذلك من آثام الغير؛ يجدها في ميزانه، فاحذر أخي الكريم من المشاركة أو التعليق أو الإعجاب بأي محتوى لا يرضي الله تعالى، ونعوذ بالله تعالى من هذا الشر الكبير.

توصيات يرجى معرفتها وإدراكها جيدا حتى نتجنب السيئات الجارية على الفيسبوك وغيره:

- لا تشترك في صفحات النكت، فهي مليئة بالكذب، ولا تخلو من الرذائل، لقول النبي ﷺ: «ويل للذي يحدّث فيكذب ليضحك به القوم، ويل له ثم ويل له».
- لا تشترك في صفحات الفاسقين من الممثلين والموسيقيين وغير ذلك، فهم يدعون لما حرمه الله تعالى، وفيه موالاة للفاسقين وحب لهم، ولقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ثلاث من حق: لا يجعل الله من له سهم في الإسلام كمن لا سهم له، ولا يتولى اللهَ عبدٌ فيوليه غيره، ولا يحب رجل قوما إلا حشر معهم».
- لا تقم بنشر صور النساء تحت أي ذريعة تسولها النفس ويدعمها الشيطان، ولا تقم بنشر الفواحش والأشياء التافهة لكي يضحك الناس، فسيضحك الناس اليوم ولكن من قام بالنشر سيحمل أوزارهم يوم القيامة، قال رسول الله ﷺ: «من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه لا ينقص ذلك من أجورهم شيئا، ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من تبعه لا ينقص ذلك من آثامهم شيئا» (رواه مسلم).
- لا تقم بنشر شيء لا تعلمه ولا تدرك حقيقته ولا تجار الناس في نشر الافتراءات، قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَقۡفُ مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌۚ إِنَّ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡبَصَرَ وَٱلۡفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنۡهُ مَسۡـُٔولٗا ۝٣٦﴾ (الإسراء:٣٦).
- لا تقم بنشر معلومة من الشريعة الإسلامية إلا بعد أن تتأكد أن مصدرها ثقة ولا تقم بنشر حديث شريف إلا من المصادر المعتمدة حتى لا تشترك في ترويج الكذب على رسول الله ﷺ وذلك لقوله ﷺ: «إن كذبا علي ليس ككذب على أحد، من كذب علي متعمدا فليتبوأ مقعده من النار».
- لا تقم بنشر رابط لصفحة منهجها مخالف لشريعة الإسلام ولا تنشر منها حكمة أو معلومة فهذه خديعة وفخ للترويج لآلاف المخالفات الشرعية بعد ذلك، فلا تكن دعامة للشر وأنت لا تعلم عاقبة الأمر.
- لا تقم بالتعليق بإيجابية على المنكرات حتى لا تحمل وزر تدعيمها ونشرها.
- لا تقم بنشر أي شيء قبل أن تسأل نفسك: هل هذا في ميزان الحسنات أم في ميزان السيئات؟.

البيوع الفاسدة

التحرير

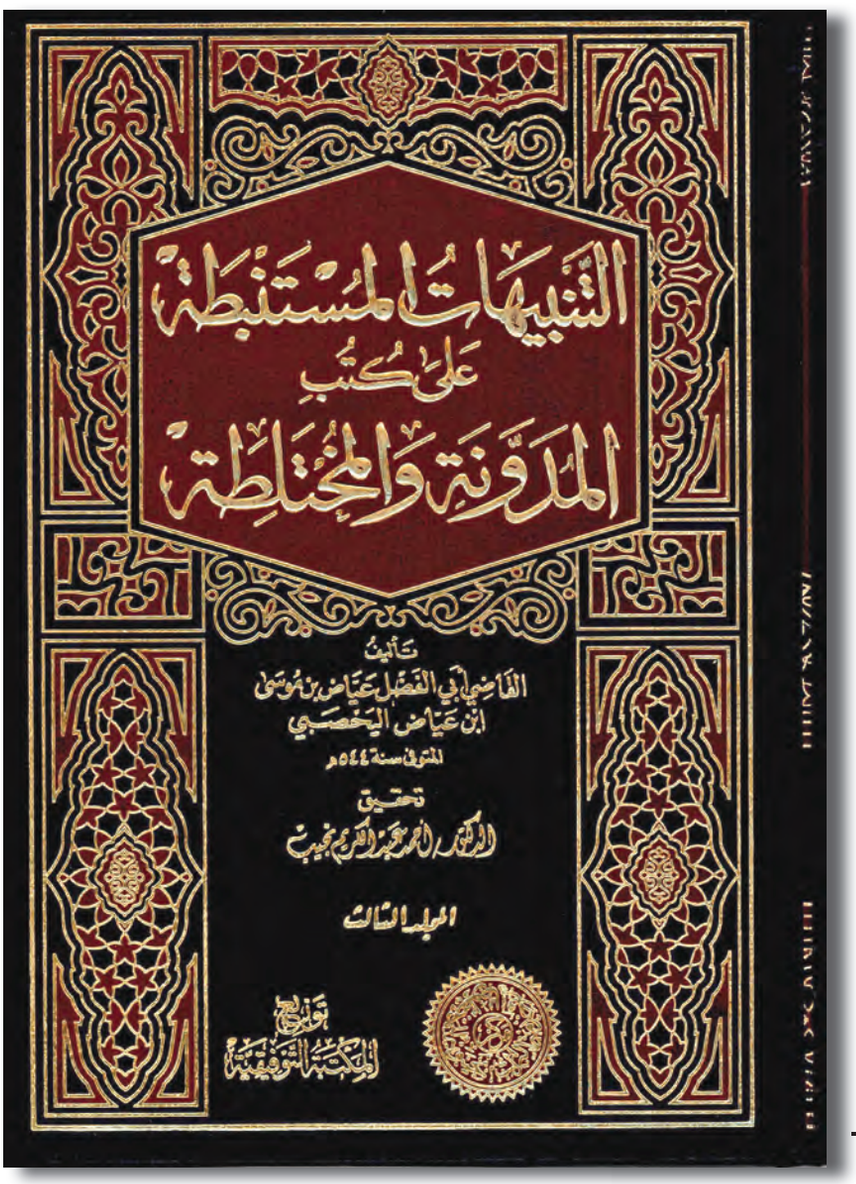

الفساد في البيع يكون لعلل كثيرة، ولمسائله وصوره ألقاب وأسماء وصور معروفة، ويجمعها ستة أنواع؛ خمسة مما يفسده في نفسه، والسادس مما يفسد لما يلحقه من غيره.

فالأول: ما كان قمارا وخطرا ويشتمل على: بيع الغرر (١)، والأجنة والملاقيح والمضامين (٢)، وحبل حبلة (٣)، وبيع الحصاة (٤)، والمنابذة (٥)، والملامسة (٦)، والمزابنة (٧)، والمخابرة (٨)، وما فيه خصومة، والطير في الهواء، والحوت في الماء، وبيع ما ليس عندك، وبيع الرطب باليابس، وبيعتين في بيعة، وبيع العربان (٩)، والثنيا (١٠)، والبيع على قيمة السلعة، أو بما اشترى فلان أو بما رضيه من الثمن، وبثمن مجهول، وبيع الثمار قبل أن تزهي، والزرع قبل يبسه، وإلى أجل غير محدود...، وأشباه هذا كله؛ مما يكون الغرر بالجهالة بالمبيع، إما في نفسه، أو صفته، أو مقداره أو عوضه أو وقت قبضه أو مآل حاله.

والثاني: الربا بالتفاضل فيما لا يجوز فيه التفاضل، وذلك في الطعام المقتات المدخر للعيش غالبا، أو الفضة أو الذهب؛ نقدا كان ذلك أو إلى أجل، والتفاضل مع الأجل في الجنس الواحد في جميع الأشياء.

والثالث: الربا في النسيئة والتأخير، كالعين كله، وأجناس المطعومات كلها، كانت من جنس واحد، أو مختلفة.

والرابع: ما لا يصح بيعه قبل استيفائه، وذلك يختص بالطعام.

فهذه أربعة أصول في البيوع الفاسدة لعقودها وأنفسها، ويلحق بها نوع **خامس** لا بد منه، وهو ما منع بيعه؛ إما لحرمته، أو لخبثه وعدم منفعته.

فلحرمته؛ كالحر، وأم الولد (١١) والمدبر (١٢) والمعتق إلى أجل.

ولخبثه وعدم منفعته شرعا؛ كالنجاسات والميتات والخمر والدم والأصنام والصور والخنزير والكلب والقرد وآلات الباطل والسم.

أو عادة؛ كالديدان والجعلان.

وما خرج عن هذه الوجوه فهو جائز، إلا أن تقترن به قرائن فساد خارجة عن نفسه وعقده، وهو النوع **السادس**.

علل تحريم البيع وفساده

هي أربع علل:

علة بوقت لا يجوز فيه البيع؛ كوقت الأذان والصلاة يوم الجمعة.

وعلة في المتعاقدين؛ كالسفه والصغر والجنون والرق والسكر، إلا أن العقد هنا موقوف لإجازة نظر من له النظر، وليس بفاسد شرعا.

وعلة شرط قارن البيع؛ كالسلف وغيره من الشروط المؤثرة في العقد أو النكاح والقراض ونحوهما.

وعلة تعلق حق لغير البائع بالمبيع، كبيع التفرقة، وبيع مال الغير بغير أمره، وبيع الحاضر للبادي، والبيع على بيع أخيه، وتلقي السلع، وكالمرهون.

فإذا سلم العقد من وقوعه وقت النهي، أو من شرط لا يجوز معه، أو قرينة تفسده، وسلم المتعاقدان من علة الحجر والتعدي على بيع ما لا يملكانه، وكانا جائزي الأمر، وسلم المعقود به وعليه من الجهالة بحقيقته وأوصافه أو مآله أو وقت قبضه، ومن كونه مما لا يصلح بيعه لحرمته، أو لخبثه، أو كونه مما لا ينتفع به عادة أو شرعا - على ما فسرناه - أو من تعذر تسلم المشتري له حسا؛ كالشارد، والطائر في الهواء، أو شرعا؛ كالمرهون، أو شرطا؛ كالمعين يشترط قبضه إلى أجل بعيد يتغير فيه؛ صح البيع وسلم من العلل.

الشروط المقترنة بالبيع

هي على أربعة أقسام:

الأول: قسم منها يقتضيه العقد، ولو لم يذكر: فلا يضر ذكره، كشرطه أن يقبض المشتري سلعته مكانه، أو يدفع الثمن مكانه في الحاضر المقبوض، أو على أنه لا يبقى حق للبائع في المبيع.

الثاني: اشتراط ما هو من مصالح البيع أو أبيح فيه؛ كشرطه الأجل فيما يجوز فيه، أو الرهن، أو الحميل، أو الإشهاد، أو إلزام ضمان الغائب، فهذا أيضا جائز لازم إذا اشترط.

الثالث: خارج عن هذين القسمين؛ كاشتراط تحجير بعض منافع الملك والتصرف فيه، مثل ألا يبيع ولا يهب ولا يسافر بالعبد، أو اتخاذ الأمة أم ولد أو تعتق إلى أجل، وبيع الثنيا، أو شرط عقد آخر يخالف مقصد البيع وجمعه معه كالقراض مع البيع، أو النكاح، أو السلف، أو الشركة، أو الصرف فهذه كلها شروط تبطل البيع، واختلف إذا أسقط مشترط الشرط شرطه، هل يصح البيع أم يفسخ على كل حال؟

الرابع: من الشروط ما يخف فيكره ابتداء، فإذا وقع سقط وصح البيع؛ كقوله: إن لم تأتني بالثمن إلى أجل كذا فلا بيع بيني وبينك؛ على مشهور المذهب، وشرط البراءة من الجائحة.

الهوامش

١ - بيع الغرر: هو الخطر الذي لا يدرى أيكون أم لا؟ ويدخل في مسائل كثيرة غير منحصرة؛ كبيع الآبق والمعدوم والمجهول، وما لا يقدر على تسليمه، وما لم يتم ملك البائع عليه، وبيع السمك في الماء الكثير، واللبن في الضرع، وبيع الحمل في البطن، ونظائر ذلك، وكل هذا بيع باطل؛ لأنه غرر من غير حاجة.

٢ - المضمون ما في صلب الذكر، والملقوح ما في رحم الأنثى، وكلاهما ليسا بمال حتى يباعا؛ وبيع الجنين مثلهما، ولذلك نهي عنه.

٣ - حبل الحبلة: أن تنتج الناقة، ثم تحمل التي نتجت.

٤ - بيع الحصاة: هو أن يجعل المتبايعان الرمي بالحصاة بيعا؛ فيقول: إذا رميت هذا الثوب بالحصاة؛ فهو مبيع منك بكذا. وقيل: هو أن يقول: بعتك من هذه الأثواب ما وقعت عليه الحصاة التي أرميها، أو بعتك من هذه الأرض من هنا إلى ما انتهت إليه هذه الحصاة. والغرر فيه واضح، ولذلك نهي عنه.

٥ - بيع المنابذة: هو أن ينبذ الرجل إلى الرجل بثوبه، وينبذ الآخر بثوبه إليه، ويكون ذلك بيعهما من غير نظر، ولا تراض.

٦ - بيع الملامسة: أن يمس الثوب بيده ولا ينشره، وإذا مسه فقد وجب البيع، وهو منهي عنه؛ لما روى أبوسعيد الخدري رضي الله عنه قال: «نهى رسول الله ﷺ عن بيعتين: المنابذة والملامسة».

٧ - المزابنة: بيع الرطب بالتمر؛ مشتقة من الزبن وهو المخاصمة والمدافعة.

٨ - المخابرة: وتسمى أيضا المزارعة، وهي: معاملة على الأرض ببعض ما يخرج من ثمرتها.

٩ - بيع العربون: هو أن يشتري السلعة من غيره، ويدفع إليه دراهم على أنه إن أخذ السلعة فهي من الثمن، وإلا فهي للمدفوع إليه مجانا.

١٠ - بيع الثنيا: هو أن يبيع الإنسان شيئا ويستثني منه جزءا شائعا فيه.

١١ - أم الولد: هي الأمة التي تلد من سيدها، وقد كانت مارية القبطية أم إبراهيم ولد النبي ﷺ، وكانت هاجر أم إسماعيل عليه السلام، وهي سرية إبراهيم خليل الرحمن عليه السلام.

١٢ - العبد المدبر: هو الذي يقول له مالكه: أنت حر بعد وفاتي.

● اختصار وتهذيب من كتاب: «التنبيهات المستنبطة على كتب المدونة والمختلطة» للقاضي عياض.

المنهج النبوي في اختيار الأسماء

د. محمد سعد
باحث أكاديمي

الأسماء في كل أمة عنوان حضارتها، وميسم أصلها الذي تفتخر به، ودليل واضح على سموها، ورفعتها، ومرآة صافية لكثير من قيمها وعاداتها.

ذلك بأن الأسماء في حقيقتها هي مجموعة من القيم الإنسانية والمعاني الجمالية، والآثار التاريخية.

فقد كان لأهل الجاهلية قبل الإسلام أسماؤهم التي تصور حياتهم وترسم بيئتهم بكل مكوناتها فسموا: صخرا، وحجرا، وجحرا، وأسدا، وفهدا، وقيسا، وكلبا وسرحان، وظبية، ومها، وزينب، وهندا، ودعدا، وظالما، ومغيرة.... وواضح إلى أي مدى تعكس هذه الأسماء مكونات البيئة التي عاشوا فيها والقيم الإنسانية التي تربوا عليها.

وعن هذه الطريقة يقول الجاحظ في كتابه الحيوان: «كان الرجل إذا ولد له ذكر خرج يتعرض لزجر الطير والفأل، فإن سمع إنسانا يقول حجرا أو رأى حجرا سمى ابنه به وتفاءل فيه الشدة والصلابة والبقاء والصبر وأنه يحطم ما لقي، وكذلك إن سمع إنسانا يقول ذئبا أو رأى ذئبا تأول فيه الفطنة والخب والمكر والكسب، وإن كان حمارا تأول فيه طول العمر والوقاحة والقوة والجلد، وإن كان كلبا تأول فيه الحراسة واليقظة وبعد الصوت والكسب وغير ذلك» (١).

وهكذا تصبح البيئة بكل مكوناتها وقيمها من أهم الروافد، وأصفى المنابع التي يستقي منها الناس أسماءهم.

وإذا طبقت هذا على كثير من البيئات تجد مصداق ذلك واضحا جليا، فالبيئة البدوية تختلف أسماؤها عن الحضرية، وتختلف الريفية عن المدنية، وأرباب الصناعة والتجارة يختلفون عن غيرهم من أرباب الفكر والثقافة وهكذا.

ولقد كان للإسلام منهج فريد في التعامل مع الأسماء وطريقة التسمية، وقد بدا ذلك واضحا في سيرة النبي الكريم ﷺ حين وجه الأنظار نحو وجوب اختيار الأحسن من الأسماء حين قال «إنكم تدعون - أي ينادى عليكم - يوم القيامة بأسمائكم وأسماء آبائكم فحسنوا أسماءكم» (٢).

ولم يقف المنهج النبوي في اختيار الأسماء عند هذا الحد بل تعداه إلى عدة قواعد ومعايير مهمة أوجب على الأب باعتباره المسؤول الأول عن التسمية أن يلتزم بها وهذه المعايير هي:

١- اختيار الأحسن من الأسماء

فعلى المربي أن يحرص دائما على اختيار أحسن الأسماء وأجملها، لا كما يفعل بعض الناس حين يحرص على وجود عنصر الغرابة أو الطرافة في الاسم؛ غير ملتفت إلى معناه ودلالته.

ومن الطريف أن شخصا يدعى ميمونا رزق ببنت فلما أراد أن يسميها قال سوف أبحث عن أصغر الأسماء، فوقع اختياره على اسم «مي» فسألته: بم سميت ابنتك يا أستاذ ميمون؟ فقال: مي. فقلت له: هل تعرف معنى «مي»؟ قال: لا. قلت؟ إنه القرد الصغير.

فأنشأ يضحك قائلا: عائلة قرود..!! وما أجمل أن نتذكر هذا الحديث ونحن نفكر في اختيار أسماء أولادنا:

«إن أحب أسمائكم إلى الله عزوجل عبدالله وعبدالرحمن» (٣).

ولقد كان الصحابي يأتي إلى النبي فيسأله ﷺ عن اسمه فإن وجد في اسمه دلالة قبيحة أو معنى يدعو إلى خلق ذميم، غيره إلى اسم آخر، وربما غير اسمه الحسن إلى ما هو أحسن منه.

كما غير: حازم، وشهاب، وزيد الخيل، وكلها أسماء حسنة في ذاتها لكنه غيرها إلى ما هو أحسن منها. فغير النبي ﷺ اسم حازم إلى «مطعم» بمعنى مرزوق، وغير اسم «شهاب» إلى «هشام»، وغير اسم «زيد الخيل» إلى «زيد الخير» (٤).

٢- البعد عن الأسماء ذات الإيحاءات الصادمة والمتشائمة

إن تعاليم الإسلام تحمل في ثناياها وفي مغازيها حفاظا على المشاعر الإنسانية الراقية، لأن الإسلام ما جاء إلا لهداية البشر وتنوير حيواتهم بكل ما هو سام ورفيع، ومن ثم لم يسغ الإسلام صدم مشاعر الناس

بالأسماء التي تثير التشاؤم أو الخلاف أو الحرب أو الكآبة.

وإذا كانت بعض الأسماء تدعو إلى التشاؤم فإن الأصل أن المسلم لا يتطير، ولا يتشاءم، إذ المتشائم لا يبرح أن يكون خائفا رعديدا، فضلا عن إيمان المسلم بأن كل شيء يجري بقدر الله يجعله ساكن النفس مطمئنا، لكن لما كانت النفس البشرية، التي خلقها الله تجنح دوما إلى كل جميل، وتنفر من كل قبيح، كان الرسول ﷺ يحب الفأل الصالح، والكلمة الحسنة، ويتفاءل بالاسم الحسن، فقد روي عنه أنه لما هاجر هو وأبوبكر مروا بإبل بالجحفة، فقال النبي ﷺ: «لمن هذه الإبل؟»، قال: رجل من أسلم، فالتفت إلى أبي بكر فقال: «سلمت إن شاء الله» فقال: «ما اسمك؟» فقال: مسعود، فالتفت إلى أبي بكر فقال: «سعدت إن شاء الله» (٥).

٣- البعد عن الأسماء التي تخالف المعتقد الصحيح لكل مسلم

فمن المقرر أنه لا يجوز التسمية بما يخالف المعتقد الصحيح لكل مسلم، كالتسمية بأسماء الله مثلا كمن يسمي ابنه: رحمن، أو أكبر، أو قيوم، وكذلك التسمية بما لا ينبغي أن يوصف به إلا الله سبحانه وتعالى، فعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «أشنع الأسماء عند الله رجل تسمى ملك الأملاك، لا ملك إلا الله عزوجل» (٦).

أو التسمية بالتعبيد لغير الله، كعبد النبي وعبد الرسول وعبد علي وعبدالحسين وعبد الحسن، وعبد الملاك، وعبد المسيح ونحو ذلك.

٤- البعد عن الأسماء التي تدعو إلى خلق ذمه الإسلام

ونعني بالمعيار الخلقي ألا يكون الاسم دالا على خلق ذمه الإسلام، أو تعارض مع الغاية العظمى لديننا، وهي إتمام مكارم الأخلاق، كأن يعبر الاسم عن مسلك نفسي منحرف كالكبر، أو تزكية النفس، أو الذل والاحتقار ونحو ذلك.

ولهذا السبب غير النبي ﷺ اسم «برة» لكونه دالا على تزكية النفس، بينما المسلم متواضع وقور، فقد قال رسول الله ﷺ حين سمع هذا الاسم: «لا تزكوا أنفسكم، الله أعلم بأهل البر منكم» (٧).

كذلك غير النبي ﷺ: حزن، وعتلة، لكونهما يحملان معنى الشدة والغلظة، بينما المسلم لين سهل، وكذا غير اسم «بغيض»، إلى محبوب واسم «خرقة» غيره إلى عبدالله، لكونهما يحملان معنى الذل والاحتقار، والمسلم عزيز ومكرم.

٥- البعد عن الأسماء ذات الدلالات القبيحة

ونعني بقبح الدلالة كون الاسم دالا على معنى قبيح، تأنف الطباع السليمة منه، وينفر منه ذو الفطرة السوية، وقبح الدلالة هنا قد يكون في الوصف الذي يحمله الاسم كالتسمية بغافل، أو عاص، أو غاو أو ظالم ونحو ذلك.

فلاشك أن هذه الأسماء تحمل من قبيح الصفات ما يجعل صاحب الطبع السليم يأنف من التسمية بها، ومن ثم فقد غير النبي الكريم ﷺ اسم «جعيل» تصغير «جُعَل» وهو حشرة صغيرة كالخنفساء إلى اسم «عمرو» (٨)، وغير اسم «شيطان» إلى عبدالله (٩)، وغير اسم العاصي إلى مطيع (١٠)، وعاصية إلى جميلة (١١)، وإلى مطيعة (١٢)، كل هذا وفقا لهذا المعيار، وهو قبح الدلالة.

ومن الأسماء ذات الإيحاءات الصادمة بل المقززة: إغراء، فتنة، وناهد (١٣)، وفاتن، ورماس (١٤) ومي (١٥) وسوزان (١٦).

الهوامش

١- الحيوان للجاحظ ٣٢٤/١، والاشتقاق لابن دريد، ص٧.

٢- صحيح ابن حبان، ج١٣/ص١٣٥، ح٥٨١٨، ومسند أحمد، ج٥/ص١٩٤، ح٢١٧٣٩.

٣- أخرجه مسلم (١٦٨٢/٣، رقم ٢١٣٢). والحاكم (٣٠٤/٤، رقم ٧٧١٩) وقال: صحيح على شرط الشيخين. والبيهقي (٣٠٦/٩، رقم ١٩٠٨٩).

٤- المعجم الكبير للطبراني، وراجع معرفة الصحابة لأبي نعيم.

٥- خرج الحديث.

٦- خرج الحديث.

٧- وقد غير الرسول ﷺ هذا الاسم إلى زينب، وهي زينب بنت جحش أم المؤمنين، وكذلك زينب بنت أبي سلمة بن عبد الأسد وإلى جويرية، وهي جويرية بنت الحارث المصطلقية أم المؤمنين وإلى ميمونة، أم المؤمنين ميمونة بنت الحارث الهلالية (انظر كتاب أحسنوا أسماءكم، ص٤١٣).

٨- غير منسوب، استشهد يوم الخندق، سنن البيهقي ج ٩ ص ٣٠٨.

٩- وهو عبدالله بن قرط، سنن البيهقي، ج ٩ ص٣٠٨.

١٠- وهو مطيع بن الأسود العدوي والد عبدالله بن مطيع، قال البيهقي عن عبدالله ابن الحارث بن جزء الزبيدي قال: توفي صاحب لي غريبا فكنا على قبره أنا وعبدالله ابن عمر وعبدالله بن عمرو بن العاص، وكان اسمي العاص واسم ابن عمر العاص واسم ابن عمرو العاص، فقال لنا رسول الله ﷺ: «انزلوا واقبروه وأنتم عبيدالله، قال فنزلنا فقبرنا أخانا وصعدنا من القبر وقد أبدلت أسماؤنا». سنن البيهقي، ج ٩ ص٣٠٧.

١١- وهي جميلة بت عمر بن الخطاب، وجميلة بنت أبي الأفلج.

١٢- وهي مطيعة بنت النعمان.

١٣- الناهد: الفتاة التي نهد صدرها أي ارتفع.

١٤- «رماس» جمع رمس والرمس هو القبر، وقيل الرماس ظلمة القبور، راجع لسان العرب مادة «رمس».

١٥- مي: القرد الصغير.

١٦- وهو اسم غير عربي، ومعناه الإبرة، أو المحرقة.

تطبيق الحدود في ضوء مقاصد الشريعة الإسلامية

أحمد عبد الجواد زايدة
ماجستير شريعة - الأزهر الشريف

كانت مسألة تطبيق الشريعة من ألح المسائل التي أثير حولها النقاش والجدل خلال العقود الماضية أو قل خلال القرن الماضي، إذ إنها بدأت مع بدء رحيل الاستعمار وظهور حركات الإحياء الديني وترقيها في مستويات التحدي والمدافعة؛ فبعد أن رحل الاستعمار من بعض البلدان متزامنا مع سقوط الخلافة الإسلامية نشأ أمام المسلمين تحدي الوحدة السياسية المفقودة، والمتزامن مع تحدي الاستعمار الذي لايزال باقيا في بعض البلدان، والذي رحل عسكريا وبقي إداريا ومؤسسيا وثقافيا وقانونيا «تشريعيا» في بلدان أخرى.

من هنا كانت إشكالية تطبيق الشريعة – وهي ليست بإشكالية – لكن لما أثير حولها من لغط وأفهام يصح بعضها ويصيب في مساحات دون أخرى كانت إشكالات؛ كما أنها لم يتوقف الحوار فيها بالفكر والمنطق والحجة والمعرفة، بل امتد إلى ما هو أخطر من ذلك على مدى عقود سابقة، مما هو غني عن الذكر والبيان؛ لكن الجدير بالذكر أن مستوى إحياء الأمة وإعادة وحدتها وتحريرها من الاستعمار العسكري والفكري والسياسي والمؤسساتي والثقافي تحول وتم اختصاره في الوحدة السياسية، ثم تم اختصار هذا في تطبيق الشريعة «دون تحديد لمدلولها ولا لمن تقع عليه الأدوار، ولا لمن يناط بهذه المهام دوره بين الدولة والمجتمع، ودون أي تطرق للحديث عن الكيفية ولا عن فقه التنزيل» ثم تم اختصار تطبيق الشريعة في الحدود؛ ثم تم الحديث عن الحدود بلا فقه ولا معرفة لتصورها الفقهي وتطبيقاتها على مسار التاريخ الإسلامي، فضلا عن معرفة الواقع الحالي وإشكالاته وكيف تقوم بتنزيل الأحكام المجردة «التي لها شروط وأسباب وموانع» على واقع محقق في عالم اليوم له من الإشكالات ما هو كفيل بأن يتم تسكينه في محاور الحكم التكليفي جميعا، مما يسد الباب في كثير من الحالات أمام تطبيق الحكم التكليفي.

ومن ثم كان هذا البحث مستهدفا هذه القضية عن طريق توضيح مفهوم تطبيق الشريعة وماهيته؛ ثم الانتقال لمفهوم الحدود والمقصود به؛ ثم الانتقال للحديث عن شروط وأسباب الحدود التي شرعت؛ ثم أخيرا الحديث عن مقاصد هذه الحدود التشريعية.

الشريعة والفقه

نشأ لدى البعض ارتباط وطيد بين مفهومي الشريعة والفقه، وكأنهما متطابقان؛ وبعيدا عن الارتباط العرفي لدلالات المفهومين؛ فإنه من المستقر عليه علميا أن الشريعة شيء والفقه شيء آخر؛ وأن الشريعة أعم وأكثر تجريدا وعمومية وثباتا؛ وأن الفقه أكثر تحديدا وتنزيلا وتغيرا – بمعنى أن الحكم الشرعي في التجريد شيء وفي التحقيق وعند التنزيل شيء؛ فالخلاف حول تنزيل الحكم عند التحقيق على واقعة معينة بأحوال وأوصاف وأسباب وشروط لا يعني بحال إنكار الحكم في تجريده وأصله – وأن الشريعة تحتوي جميع الأحكام وجميع التشريعات في مختلف النواحي، في حين أن الفقه متعلق بتنزيل هذه الأحكام المستنبطة من مصادرها ومظانها على عالم الناس وحياتهم؛ فتطبيق الشريعة يأتي عبر الفقه، والفقه هو الصورة العملية لفهم الشريعة وتنزيلها على واقع المجتمعات.

الشريعة والأحكام والقانون

تضمنت الشريعة الإسلامية بمصدريها أحكاما تشريعية مباشرة، وهي ما عُرف فقها بـ«آيات وأحاديث الأحكام»، وهي لدى من قام بإحصائها من

العلماء لا تتجاوز الاثنين ونصف بالمائة من نصوص الوحي قرآنا وسنة؛ غير أن التركيز الإعلامي والسياسي بل والعلمي أحيانا على «تطبيق الشريعة» فيما تعرضت إليه القوانين الوضعية فقط من جملة الأحكام التشريعية جعل أذهان الناس وتصوراتهم بل وإيمانهم واهتمامهم ينصب على النصوص والأحكام المتعلقة بهذه القوانين فقط، مما يعرف تحت بند «تقنين الشريعة»؛ وهو أمر له سلبيات لا حصر لها – وفقا للشائع من المفهوم والتصورات الموجودة عنه–؛ وبلاشك فإن هذه النصوص والأحكام من الوحي المقدس الذي لا يستطيع أحد أن يتجاوزه، ولاشك كذلك فإن لهذه النصوص أثرا كبيرا ومهما في بنيان الأمة المسلمة وكيانها، بل والعالم كله.

الفرق بين الشريعة والقانون

غير أن المقصود هنا مناقشة الحالة السلبية التي نشأت إثر تضخيم مساحة وأوزان هذه النصوص المجتزأة من الشريعة على كل نصوص الوحي قرآنا وسنة؛ تلك النصوص التي تضمنت الأخلاق والأوامر والنواهي التي تتعلق بالفرد والأسرة والمجتمع والآداب، وبحقوق الفقراء، وبالصدقات وبالإحسان وبذكر الفضل وحفظه؛ وبذكر قوانين الأمم وسنن نهضتها وسنن التدافع والخير والشر وسنن الاستبداد والطغيان وسنن النصر والنهوض... فكل هذا من الشريعة، بل وكل هذا هو الشريعة، وحين يتم حصر الشريعة وحظر سماحاتها في مساحة «القوانين» فقط فإننا نكون بصدد أزمة من أزمات العقل المسلم المعاصرة، وهي أزمة في رؤية الشريعة وقراءتها بمنظور الدولة الحديثة ومنظور ما أفرزته من أدوات متغولة في حياة الناس اليوم، ومن هذه الأدوات «أداة القانون» (المجردة والعامة) والتي لا تعترف بسلطة الضمير ولا تحاسب عليه! وهو ما يعد مخالفا تماما لفلسفة الشريعة والأخلاق.

وبناء على ما سبق؛ فإن تطبيق الشريعة هو تطبيق ما نصت عليه من تشريعات وأوامر ونواه وآداب وأخلاق في حق الفرد والمجتمع والأمة، والعلاقة بين المحكوم والحاكم وبين الأب والأبناء والزوج وزوجته والفقير والغني، وذكر مراتب الإحسان بمستوياتها الثلاثة؛ الإحسان بين الإنسان العبد وربه، وبين الإنسان العبد وذاته، وبين الإنسان والناس من حوله، بما تتضمنه هذه المستويات من علاقات وصلات نصت الشريعة بحقها وبصددها على أحكام وتشريعات عديدة تقوم بصياغة هذه العلاقات والصلات بما يحقق عمران الإنسان والمجتمع والأمة...، وصولا لعمران العالم؛ إذ لا يستقيم ولا يصلح عمران العالم إلا بعمران آحاده ومكونه الأساسي وهو الإنسان، كما قال الإمام الطاهر ابن عاشور.

ومن هنا فإن تطبيق الشريعة ليس فقط هو مساحة القوانين؛ ولا هو الأدوار التي يجب على «الدولة» أن تقوم بها؛ ولا على الحاكم فقط؛ بل هو دوائر ومستويات متداخلة ومتشابكة للغاية يقع العبء الأكبر فيها على الأمة والإنسان والمجتمع، ويكون تداخل الدولة فيها بكيفية معينة، إذ إن الأصل فينا أننا أمة قبل أن نكون دولة؛ وفي هذا الإطار تعد الحدود إحدى هذه المساحات في مساحة الأحكام التشريعية كجزء له حجمه ووزنه ضمن الأحكام والتشريعات.

مفهوم الحدود والمقصود به

ليس المقصود بلفظة «الحد» في الاصطلاح القرآني حصره في «الحدود الجزائية» كما هو شائع كذلك؛ بل إن معنى الحدود يتسع لما هو أكثر من ذلك باتساع آداب الأسرة والمجتمع والفرد؛ فنجد في العديد من الآيات القرآنية ورود لفظة الحد ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا﴾ (البقرة:٢٢٩) بعد إيراد وذكر وتبيين أحكام الأسرة وغض البصر وغيرها من الآداب والأخلاق؛ فالحدود هنا يقصد بها المساحات التي لا يجوز للإنسان المسلم أن يتجاوزها أو يتعداها، أو هي المساحات التي يجب عليه أن يقف عندها ويمتنع عن التجاوز؛ وهذا يرد على جل التشريعات التي شرعها الله سبحانه وتعالى؛ ومن هنا أتي إطلاق لفظة «الحدود» على الحدود الجزائية من باب إطلاق الكل على الجزء حين يكون رئيسا في باب المنع – فأطلق على ما هذا حاله من المنع اسم الحدود حرصا وتنبيها على حرمته وشناعته – حين أطلقت حرصا وتنبيها على اجتناب المحرمات الكبرى. فالزنا وشرب الخمر والقذف والسرقة والحرابة حدود لعظم شأنها في المنع وترتيب عقوبة حسية كبيرة على مقترفها؛ فالحد في الشرع ورد بمعنى التشريعات التي شرعها الله للعباد من الحلال والحرام؛ وسميت حدودا لأنها منعت وفصلت وميزت بين ما يجوز وما لا يجوز وما يحل وما يحرم؛ قال تعالى: ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا ۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ (البقرة:٢٢٩)؛ ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدْخِلْهُ نَارًا خَٰلِدًا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ (النساء:١٤)؛ ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا﴾ (البقرة:١٨٧).

قال في لسان العرب مادة «حد»؛ الحد: الفصل بين الشيئين لئلا يختلط أحدهما بالآخر أو لئلا يتعدى أحدهما على الآخر؛ وجمعه حدود. وفصل ما بين كل شيئين حد بينهما ومنتهى كل شيء حده ومنه أحد حدود الأرضين وحدود الحرم؛ والحد في اللغة الفصل والمنع؛ ومن يتأمل كلام صاحب اللسان والمصباح يفهم أن من معاني الحد لغة: المنع والحجز والفصل بين الشيئين؛ والنهاية التي ينتهي إليها الشيء. وسميت بعض العقوبات حدودا لأن من شأنها أن تمنع من ارتكاب الجرائم.

تضييق مفهوم الشريعة والحدود وخطورته على الأمة والدولة

واللافت للنظر أن التغير والحصر الذي حدث في مفهوم تطبيق الشريعة انتقل بذاته إلى مفهوم الحدود؛ فمن حصر مفهوم الشريعة باتساعه ومساحاته وعمقه إلى جعله محصورا في مفهوم «الفقه» إلى جعل الفقه محصورا في مفهوم «القوانين» ومسألة «تقنين الشريعة» إلى جعل الشريعة و«تقنين الشريعة» محصورا في «الحدود» إلى جعل الحدود مختزلة فقط في «الحدود الجزائية» إلى جعل الحدود الجزائية مصطلحا ضبابيا بلا قيود ولا شروط ولا ضوابط! فيضيع الفقه وتضيع معالم الشريعة؛ مع التنبيه والتأكيد أن هذا الكلام لا يعني بأي حال وبأي صورة المساس بقطعية أحكام الحدود أو التهوين منها. فلا يوجد مسلم يسعه القول بهذا.

إذن؛ فإن الحد المقصود به هنا في إشكالية البحث التي يناقشها؛ هو ما يطلق على العقوبات المفروضة على بعض المعاصي والكبائر كحد الزنا وحد السرقة وحد شرب الخمر وغيرها حقا لله تعالى؛ ويمكن أن يعرف بأنه العقوبة المقدرة حقا لله تعالى؛ ومعنى كونها حقا لله تعالى: أنه لا يجوز إسقاطها بأي حال من الأحوال مطلقا، فهي غير قابلة للسقوط.

ولأن الشارع كما قال الإمام الغزالي رحمه الله في المستصفى قد قصد إلى حفظ دين الناس؛ وأعراضهم؛ وأموالهم؛ وأنفسهم؛ وعقولهم؛ فقد شرع لكل مقصد من هذه المقاصد ما يحفظه بالمبتدأ والمنتهى؛ فحرم ما يهدم هذه المقاصد تماما ووضع لها أشد العقوبات، وحرم كذلك كل ما يوصل إليها بالتشريعات والأحكام؛

ووضع «الحدود» الكبرى للمنع دون الوصول إلى الجرائم وأمهات الكبائر التي تهدم بنيان هذه المقاصد وتدمرها.

- فقد شرع الإسلام لحفظ الدين «حد الردة»؛ وشرع لحفظ النفس «القصاص: وهو عقوبة لا حد»؛ وشرع لحفظ العرض «حد الزنا»؛ وشرع لحفظ المال «حد السرقة»؛ ولحفظ العقل «حد شرب الخمر»؛ وهو ما عبر عنها الإمام أبوالحسن العامري بالزواجر، فقال: مزجرة حفظ الدين ومزجرة حفظ العرض.

شروط وأسباب الحدود

ينقسم الحكم الشرعي إلى حكم تكليفي، وإلى حكم وضعي. فالحكم التكليفي هو الحكم في التجريد؛ فهو خطاب الله المتعلق بأفعال المكلفين على جهة الطلب أو التخيير. وهو الأحكام الخمسة: الإيجاب؛ والتحريم؛ والكراهية؛ والندب؛ والإباحة؛ الأحكام التكليفية الخمسة؛ وهناك الحكم الوضعي: وهو جعل الشيء سببا لشيء آخر أو شرطا أو مانعا أو صحيحا أو فاسدا وهي السبب؛ والشرط؛ والمانع (الصحة، البطلان).

ارتباط الحكم التكليفي بالحكم الوضعي وأثر الوضعي فيه من ناحية التطبيق والتنفيذ، ومن ثم فإن المتحدث عن تطبيق الحدود يحتاج أن يفرق بين مستويين في الدعوة للتطبيق وفي تنزيل التطبيق؛ فلا يجوز لمسلم صح إسلامه واستقام أن يقول بعدم قطعية الحدود أو أن يقول إنها «تأريخية» أو ليست من الإسلام؛ فأحكام الحدود كحد السرقة وحد الزنا وحد الخمر... إلخ؛ كلها أحكام مستقرة قطعية على مستوى الحكم التكليفي التجريدي؛ هذا على مستوى الإيمان والاعتقاد والتجريد؛ أمّا حين ننتقل إلى مستوى التنزيل والتطبيق فإننا نكون بصدد شروط من نوع آخر وإلى تعامل وتعاط بكيفية أخرى «وتوافر هذا وتحققه يعد أيضا من تطبيق الشريعة»؛ وهو توافر الأسباب؛ وانتفاء الموانع؛ وتحقق الشروط.

- والسبب هو: لغة: كل ما توصلت به إلى شيء. واصطلاحا: ما يلزم من وجوده وجود الحكم ومن عدمه عدمه لذاته.

والشرط هو: لغة: العلامة؛ ومنه قوله تعالى ﴿فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا﴾ (محمد:١٨).

اصطلاحا: ما يلزم من عدمه عدم الحكم.

-المانع: لغة: اسم فاعل منعه.

اصطلاحا: ما يلزم من وجوده عدم الحكم؛ ولا يلزم من عدمه وجود الحكم.

ومن ثم؛ فإنه ومع كون أحكام الحدود الجزائية من قطعيات الشريعة وأحكامها الثابتة؛ غير أن الداعي إلى تطبيق هذه الحدود عليه أن يدرك جزءها الآخر وهو الحكم الوضعي فينظر أولا إلى وجود الأسباب؛ وإلى توافر الشروط؛ وإلى انتفاء الموانع؛ كي يكون تطبيق الشريعة جاريا على صحة واستقامة وفقا لمعايير الشريعة وأهدافها ومقاصدها، فنضمن بهذا التطبيق السليم؛ ومن ثم نحتاج أن نتساءل عمّا قالته النصوص بهذا الصدد؟ وعن أي واقع اجتماعي وفي أي واقع اجتماعي يمكننا أن نطبق هذه الحدود؟ وبأي شروط؟ وبأي كيفية؟ كي يكون تطبيق الحدود متجها نحو تطبيق مقاصد الشريعة التي تغياها الشارع خلف تشريع هذه الحدود وألا يعود على أصله بالبطلان لسوءٍ في الفهم أو انحراف في التطبيق.

ومن ثم فإن هناك خلافا كبيرا سنجده في تصور هذه الحدود كما هي في حكمها المجرد قبل مرحلة التحقيق والتنزيل؛ أقول في مرحلة التجريد؛ أي كما هي في مرحلة النصوص وفي أقوال الفقهاء والأئمة والمذاهب، وبين تصور الكثير من غير الفقهاء للحدود في مرحلة التجريد، وهذا إن عكس فإنما

يعكس ضبابية شديدة في فهم وتصور الكثير في مساحة حرجة من الشريعة لا تسعها هذه الضبابية أو الارتباك.

مقاصد الحدود

قامت فلسفة الإسلام في تنفيذ التكليف على ثلاثة مستويات وركائز؛ أمّا المستوى الأول؛ فهو الوازع الفطري: وهو ما استودعه الله سبحانه وتعالى في نفوس عباده من فطر سليمة مستقيمة وسوية. الوازع الثاني: الوازع الديني؛ وهو أوامر الله سبحانه وتعالى والخوف من عقابه وعذابه والرغبة في عفوه ورضاه ومحبته؛ أمّا الوازع الثالث: فهو الوازع السلطاني بما للسلطان من قدرة على إنزال العقاب ومحاسبة المخالفين المتجاوزين لحدود الله التي جعلها لحقوق العباد والجماعة حفاظا على مصالحهم ورعاية لحقوقهم وتحقيقا لمقاصد الشارع الحكيم التي تغياها من إنزال الشريعة والأحكام.

وقد سعت الشريعة لحفظ ضروريات الحياة التي لا تستقيم حياة الناس إلا بها وإذا حدث فيها فوت أو تهارج اختلت ولم تستقم؛ وفي هذا يقول الإمام الغزالي رحمه الله «ومقصود الشرع من الخلق خمسة: هو أن يحفظ عليهم دينهم ونفسهم وعقلهم ونسلهم ومالهم، فكل ما يتضمن حفظ هذه الأصول الخمسة فهو مصلحة، وكل ما يفوّت هذه الأصول فهو مفسدة ودفعها مصلحة».

ومن ثم حرمت الشريعة السرقة وشرعت لها هذا الحد حماية لأموال الناس؛ ولكنها وضعت من الشروط والموانع ما هو كفيل بأن يطبق الحد على من بلغ به حد الكفاية وأغناه أن يكون الدافع خلف هذه السرقة دافع الحاجة أو الضرورة، فجعل هذا محل اعتبار وتقدير؛ فلا يطبق إلا على من بلغت به نفسه من الخطورة الإجرامية مبلغا يمثل خطورة على المجتمع بما يحقق الردع العام للمجتمع، فلا يفكر أحد في أن يُقدم على هذا الأمر حماية للمجتمع ولأمواله؛ ويمثل ردعا للسارق فلا يفكر في أن يكرر السرقة مرة أخرى؛ إذ إن السارق الذي قام بهذه السرقة وهو ليس محتاجا ولا مضطرا ولا مكرها وهو بالغ عاقل مختار لديه الكفاية إنما يسرق لا لأجل الحاجة وإنما لأجل خطورته الإجرامية ونفسه غير السوية.

والأمر ذاته في حد الزنا؛ فحماية للأعراض وحماية للأنساب في المجتمع من الاختلاط؛ وحماية للفطرة الإنسانية السوية من الرذائل والفواحش ورعاية للقيم الكبرى التي تبنى وتتأسس عليها المجتمعات شرع حد الزنا وشرعت من الأحكام الجزئية التفصيلية ما يمنع من الوقوع فيه والمنع من «قربانه»؛ وفي شروط تطبيق حد الزنا تجد أنه من الصعوبة بمكان إثباته أو تحقيقه إلا لو ارتكبه الشخص في مكان عام فاضح ضاربا بقيم المجتمع وبالحياء العام عرض الحائط مما يخل بالنظام العام وبحقوق الجماعة.

فالتشريعات ليست منفصلة في الإسلام بل هي منظومة متكاملة ترتبط مع بعضها البعض بنسق واحد متسق للغاية؛ يؤدي بعضها إلى بعض مما فيه خير ويمنع بعضها عن بعض مما فيه شر؛ فتسد كل ما يؤدي للشر والحرام، وتفتح كل ما يؤدي للخير والحلال؛ فتجد الإسلام قد شرع الزواج رعاية لفطرة الإنسان وما وضع الله فيهم من فطرة لتحقيق الاستخلاف ورعاية للنسل، وفي الوقت ذاته شرع حد الزنا زجرا عن أي مساس بالأعراض والأنساب؛ وشرع العمل والبيع والشراء والزكاة والصدقة وندب إليها وفرضها أحيانا سدا لحاجات الفقراء والمحتاجين؛ وجعل اكتساب المال حلالا وجعله من زينة الحياة الدنيا؛ وفي الوقت ذاته حرم أي مساس به أو أكله بالباطل أو أخذه دون رضا، وشرع لهذا حد السرقة؛ وجعل للعقل مكانة وقيمة بها يسمو الإنسان على سائر الكائنات، وجعله مناط التكليف وجعل من حقه السؤال والجدال الحسن؛ وحرم كل ما يؤدي إلى المساس به فحرم الخمر وأي مسكر.

المقصد من العقوبات

تحدث الإمام الطاهر ابن عاشور عن مقاصد العقوبات التي تشمل القصاص والحدود والزواجر في كتابه مقاصد الشريعة الإسلامية؛ فذكر أن الشريعة ليست فيما شرعته في هذه الأمور بنكاية؛ وأن جميع تصرفاتها تحوم حول إصلاح حال الأمة في سائر أحوالها؛ وليس يُحفظُ نظامها إلا بسد ثلمات الهرج والفتن والاعتداء.

ثم ذكر أن مقصد الشريعة من تشريع الحدود والقصاص والتعزير ثلاثة أمور: تأديب الجاني؛ وإرضاء المجني عليه؛ وزجر المقتدي بالجناة.

فالأول: وهو التأديب: راجع إلى المقصد الأسمى؛ وهو إصلاح أفراد الأمة الذي منهم يتقوم مجموع الأمة؛ وقد قال تعالى: ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ﴾ (المائدة:٣٨)؛ فبإقامة العقوبة على الجاني يزول من نفسه الخبث الذي بعثه على الجناية.

وأمّا الثاني؛ إرضاء المجني عليه: فلأن في طبيعة النفوس الحنق على من يعتدي عليها عمدا والغضب ممن يعتدي خطأ فتندفع إلى الانتقام؛ وهو انتقام لا يكون عادلا أبدا؛ فكان من مقاصد الشريعة أن تتولى هي هذه الترضية وتجعل حدا لإبطال الثارات القديمة؛ ولذلك قال رسول الله ﷺ في خطبة الوداع «وإن دماء الجاهلية موضوعة».

وأمّا الأمر الثالث؛ وهو زجر المقتدي بالجناة: فهو مأخوذ من قوله تعالى ﴿وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ (النور:٢)؛ قال ابن العربي في أحكام القرآن: «إن الحد يردع المحدود ومن شهده وحضره يتعظ به ويزدجر لأجله ويشيع حديثه فيعتبر به من بعده.

الوحي.. ومنهجية المعرفة التاريخية

د. عطية الويشي
باحث دراسات إسلامية

غير خاف مدى الأهمية التاريخية للمحتوى القصصي القرآني، والتي لا تتوقف عند كونها مجرد حكي مسرود يتناول خبر ما غبر من الأمم... بل جاءت لتؤسس لدى الأجيال البشرية وعيا تاريخيا متميزا بطبيعة التجارب المتراكمة التي حفلت بها حياة القبائل والشعوب والأمم والحضارات... وعيا مبنيا على العلم واليقين لا على الظن والتخمين...﴿ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ ﴿٧﴾ ﴾ (الأعراف:٧).

وفي إشارة تأكيدية على العلاقة المنهجية بين الوحي وبين المعرفة التاريخية يقول تعالى: ﴿ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۚ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٠﴾ ﴾ (هود:١٢٠)، وذلك لتكون تلك الأنباء ماثلة بين يدينا في مدونات الخبرة ودفاتر العبرة وفي مظان التيسير إلى مقاصد الاستخلاف... ولذلك، نلاحظ أن القصة القرآنية كانت بمثابة نواة لحركة التفلسف التاريخي في ضوء تلك المعطيات اليقينية، وكانت الباعث الحثيث على تفسير التاريخ مستصحبا الوحي بمقاصده العليا في صناعة النموذج الإنساني عبر أدوار التاريخ وأطواره المختلفة...

ولعل من وجوه الحكمة في إيراد القرآن الكريم قصص الأولين وأحوالهم وبعضا من أحكام شرائعهم: تحقيق الاكتفاء المرجعي بالوحي عما سواه فيما يتعلق بثوابت التصور التاريخي للنبوات الخالية، و«على وجه يصدق الكتب السابقة ويهيمن عليها من دون أخذ عنها وتعلم منها (١)، إذ إن توحيد مصدر التلقي وفق معطيات موثوقة من شأنه أن يفيدنا في حقل المعرفة التاريخية على النحو التالي:

أولا: رسم صورة منطقية لمبررات توالي الرسالات وتعاقب النبوات فيمن خلوا من قبل.

ثانيا: التحرر من تدخلات الإيحاءات المغشوشة التي تتضمنها بعض الإسرائيليات...

ثالثا: تركيز التفكير حول خصوصية التفسير الإسلامي لمسيرة النبوات الرسالية... تلك التي انتهت منطقيا إلى نبوة خاتمة مستتمة كافة شروط التهيؤ لممارسة الفعل الحضاري الإنساني اللائق بخير أمة أخرجت للناس.

رابعا: توحيد مصدر التلقي حول النبوات من شأنه تثبيت أركان الأسوة ومواطن العبرة وضبط

الدلالة التاريخية للنص وفق مراد الله تعالى دون افتئات متحرف للتشويه أو التشويش.

ولعل أهم ما يميز الوعي التاريخي الإسلامي أنه متكون في أصله من معطيات الوحي الذي يؤرخ لعهود النبوات والرسالات وما تتضمنه من عبر ودروس... ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا ۖ كُلَّ مَا جَاءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ ۚ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضًا وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ ۚ فَبُعْدًا لِّقَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٤٤﴾﴾ (المؤمنون:٤٤). كما أنه وعي متهيئ لرصد حركة التاريخ وتسجيلها في ظلال رعاية ربانية حارسة للحقائق حافظة إياها من التموه والتشوه.

الفتاوى القرآنية والمعرفة التاريخية

على الرغم مما بذل في مجال التفسير الإسلامي للتاريخ من جهود علمية لم تدع إلا مجالا محدودا للاستدراك عليها والإضافة إليها؛ فإن جهدنا عبر سياق هذه الدراسة، سيتركز على استخراج الدلالات التاريخية من بعض الموضوعات المتعلقة بالفتاوى القرآنية في النوازل، مع التعريج على كل من أسباب النزول وأسباب الورود باعتبارهما مناسبات لنوازل أولاها الوحي بعضا من سياقه فأجاب عنها سردا قصصيا أو توجيها سلوكيا... بما يصلح أن يكون رصدا لتصرفات يمكن الاستفادة منها في مجال الكتابة التاريخية؛ ولعلنا نلاحظ آيات معينة نزلت تصويبا لمسار السلوك الإسلامي المعتاد بعادات ليست من الدين... قال تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ ۗ وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَٰكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَىٰ ۗ وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٨٩﴾﴾ (البقرة:١٨٩).

ويمكننا التقاط أحد خيوط العلاقة بين النوازل والمعرفة التاريخية من خلال أسباب النزول القرآني وأسباب الورود النبوي... والتي تبدو من خلالها الأحداث التاريخية مترتبة عبر متواليات استفهامية حول نوازل معرفية وموقفية تستجد في ساحة التدافع البشري... فيجيب عليها الوحي مبصرا بالتاريخ ومشيرا إلى أهميته في تشييد الوعي الحضاري الإسلامي.

ذلك، ولم يفرض الوحي وصايته على العقل بصورة مقيدة لملكات البحث والتحري العلمي للحقائق التاريخية، بل المتأمل في طبيعة الفتاوى القرآنية، يجد أنها تحيل المستفسر أحيانا إلى أكثر من مرجع تأكيدا لمعرفته وتحقيقا ليقينه... قال تعالى ﴿فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكَ ۚ لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴿٩٤﴾﴾ (يونس:٩٤)، أي فاسأل أهل الكتاب سؤال تقرير وإشهاد عن صفة تلك الأخبار يخبروا بمثل ما أخبرتهم به، فيزول الشك من نفوس أهل الشك، إذ لا يحتمل تواطؤك مع أهل الكتاب على صفة واحدة لتلك الأخبار. فالمقصود من الآية إقامة الحجة على المشركين بشهادة أهل الكتاب من اليهود والنصارى قطعا لمعذرتهم (٢).

وبالتأمل في مادة «أفتى» عبر آيات القرآن الكريم، سنجد دلالتها التاريخية تتراوح ما بين التوظيف المباشر للتاريخ في صناعة الإنسان، وبين الإحالة إلى الوحي قصدا إلى استيفاء شروط الكمال المعرفي الإنساني.

وقد يأتي تعبير الفتوى القرآنية أو النبوية في النازلة بصيغة من شأنها: تعزيز المعرفة التاريخية بمراجع إضافية لمن لا يؤمنون بالكتاب كمرجعية تعزيزية لعل العبرة تبلغ بسلوكهم مبلغ الاستقامة في الحياة... قال تعالى: ﴿وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ ۘ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ ۙ لَا تَأْتِيهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿١٦٣﴾﴾ (الأعراف:١٦٣).

ولأن غالبية أسباب نزول القرآن كانت مرتبطة بالنوازل والأسئلة فيها، فقد وردت استفتاءات قرآنية في نوازل تتعلق بموضوعات تاريخية متنوعة... وقد فصل الوحي فيها الجواب ذكرا بقدر حاجة السائلين عنها؛ فمثلا نجد أن قصة ذي القرنين تعكس في أسباب نزولها: جانبا مهما من حالة الفضول المعرفي بالتاريخ في مجتمع عصر النبوة، فنزل الوحي مشبعا ذلك الفضول بشيء من الاسترسال الحكيم... فقال تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَن ذِي الْقَرْنَيْنِ ۖ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ﴿٨٣﴾﴾ (الكهف:٨٣).

أهمية علم أسباب النزول في الكتابة التاريخية

وعلى الرغم مما تردد بين المشتغلين بعلوم القرآن قديما من مقولات تحاول التقليل من أهمية علم أسباب النزول؛ بدعوى أنه «لا دخل لأكثر ما يروى من أسباب النزول في فهم معاني الآيات الكريمة، اللهم إلا شيء قليل من القصص والروايات» (٣)... وقالوا: إنه «لا طائل تحته لجريانه

مجرى التاريخ» (٤). وقد استدرك العلماء على أصحاب ذلك الرأي، إذ يقول السيوطي «زعم زاعم أنه لا طائل تحت هذا الفن لجريانه مجرى التاريخ، وأخطأ في ذلك، بل له فوائد (٥)... منها: تخصيص الحكم به عند من يرى أن العبرة بخصوص السبب» (٦). لكننا نرى الواحدي يشدد على أهمية إبانة ما أنزل في الكتاب من الأسباب، إذ هي أوفى ما يجب الوقوف عليها، وأولى ما تصرف العناية إليها، لامتناع معرفة تفسير الآية وقصد سبيلها، دون الوقوف على قصتها وبيان نزولها (٧)؛ وبغض النظر عن مدى صوابية تبني مثل تلك المقولات في حقل علوم القرآن... لكننا نلاحظ أن الأهمية التاريخية في أسباب النزول كانت محل توافق الفريقين كليهما، وهو ما يعزز البعد التاريخي في أسباب النزول ويربطها بمنهجيات المعرفة التاريخية؛ وهذه في الحقيقة مسلمة منطقية وبديهية قديمة... لكن الالتفات إليها قليل!.

وعلى صعيد المعرفة التاريخية، فإن العلم بأسباب النزول: يعزز من قدرة الإنسان على التعايش الوجداني الحي مع عصر النبوة، «فيعيش مع النص القرآني: كيف نزل ليعالج أمرا وقع أو سؤالا عرض، وتعرف الظرف الزماني والمكاني لذلك الحدث، وتكاد تكون شاهدا له، مشاركا فيه، وتفهم الموضوع بأبعاده ومراميه تماما» (٨). وقد قال أبوالحسن البصري: «ما أنزل الله آية إلا وهو يحب أن يعلم فيما أنزلت، وما أراد بها» (٩) وهذه المقولات لا تخلو من الفائدة التاريخية.

النوازل القرآنية وعلاقتها بأسباب النزول

ولقد ارتبط فهم الوحي قرآنا وسنة بالتاريخ من حيث دلالة الأخير على الواقع في زمن النزول وأسبابه؛ ويمكننا التقاط خيط العلاقة بين النوازل والمعرفة التاريخية من خلال أسباب النزول القرآني (١٠)... تلك النوازل التي تبدو من خلالها الأحداث التاريخية مرتبطة بتساؤلات حول الله تعالى والكون والحياة والإنسان... فكانت تكشف عن مستوى ما بلغه الطموح الإسلامي من جهود في استيفاء شروط الحياة بكافة وجوهها الحضارية والسياسية...

وثمة مواقف بعينها خلدها التاريخ لارتباطها بالوحي في مواضع عديدة، إما من خلال القرآن الكريم مباشرة، وإما من خلال ما ورد عن رسول الله ﷺ مبينا مناسبة النزول؛ فمثلا، «لما نزلت ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾﴾ (الشعراء:٢١٤)، صعد النبي على الصفا، فجعل ينادي: يا بني فهر، يا بني عدي»، لبطون قريش، حتى اجتمعوا، فجعل الرجل إذا لم يستطع أن يخرج أرسل رسولا لينظر ما هو، فجاء أبولهب وقريش، فقال: «أرأيتكم لو أخبرتكم أن خيلا بالوادي تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدقي؟ قالوا: نعم، ما جربنا عليك إلا صدقا، قال: فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد. فقال أبولهب: تبا لك سائر اليوم، ألهذا جمعتنا. فنزلت ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ ﴿١﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ﴿٢﴾﴾ (المسد:١-٢).

ومما يلاحظ - بادئ ذي بدء- أن أسباب النزول بدأت تتداعى بعد هجرة المسلمين إلى يثرب واستقرارهم بها، ومع تنامي المد الإسلامي وتبنيه إجراءات تقنينية منشطة للمسارات الوظيفية التي تعنى بتمدين المجال الحضاري... من خلال وضع آلية تصورية معنية بترتيب تنظيم علاقة المسلمين مع غيرهم، سواء في المجتمع المدني أم خارجه مع مشركي العرب أو الروم وغيرهم؛ ولاشك أن ذلك الحراك المتنامي قد ارتبط بنوازل ومستجدات استثارت تساؤلات واستفسارات كان القرآن والرسول يتفاعلان معها بطريقة لائقة بخير أمة أخرجت للناس.

ولقد كان النبي ﷺ حين يسأل عن شيء، فينزل القرآن ببيان حكمه؛ مثال ذلك: ما ورد عن عبدالله قوله: كنت أمشي مع رسول الله ﷺ في حرث بالمدينة وهو متكئ على عسيب، فمر بقوم من اليهود، فقال بعضهم لبعض: سلوه عن الروح، وقال بعضهم: لا تسألوه عن الروح، فسألوه، «فقام متوكئا على العسيب وأنا خلفه فظننت أنه يوحى إليه، فقال: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾﴾ (الإسراء:٨٥)؛ فقال بعضهم لبعض: قد قلنا لكم لا تسألوه (١١). وهكذا، وردت الآيات متضمنة أكثر من مغزى تاريخي.

والحقيقة أن معرفة أسباب النزول فضلا عن كونها كاشفة عن ملابسات النوازل والمواقف التاريخية التي ارتبطت بها، فإن إجابات المفتين عن هذه النوازل تعد قيمة مضافة للوعي التاريخي؛ وتفيدنا كتب أسباب النزول عن آية التبس على مروان بن الحكم فهمها حين توهم أنه معني بقوله تعالى: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَوا۟ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا۟ بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا۟ فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ

﴿ٱلْعَذَابِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨٨﴾﴾ (آل عمران:١٨٨)، فقال لبوابه: اذهب يا رافع إلى ابن عباس فقل له: لئن كان كل امرئ فرح بما أوتي وأحب أن يحمد بما لم يفعل معذبا لنعذبن أجمعون! فقال ابن عباس: وما لكم ولهذه! إنما دعا النبي ﷺ يهود، فسألهم عن شيء فكتموه إياه، وأخبروه بغيره، فأروه أن قد استحمدوا إليه بما أخبروه عنه فيما سألهم، وفرحوا بما أوتوا من كتمانهم، ثم قرأ ابن عباس: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ...﴾ (آل عمران:١٨٧) حتى قوله: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَوا۟ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا۟ بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا۟ ...﴾ (آل عمران: ١٨٨)، فلم يزل الإشكال إلا بمعرفة سبب النزول (١٢)؛ فتلكما حادثتان تأرختا بسبب فتوى ابن عباس عن سؤال مروان بن الحكم.

إن أحد وجوه الحكمة التاريخية من دراسة فتاوى النوازل في القرآن والسنة النبوية بصفة عامة: إنما تتلخص في كون تلك النوازل وفتاويها أداة كاشفة عن أحد أسرار الثبات والاطراد في السلوك الحضاري، وهو ما يعكس مدى الالتزام الأخلاقي والولاء الروحي والثقافي للنصوص الموجهة لسلوك المؤمنين... ذلك السلوك الذي يبدو وكأنه أشبه بالسنة أو القانون الواجب الالتزام - هذا عند من يقول بأن العبرة في أسباب النزول أو الورود: إنما تكون بعموم اللفظ لا بخصوص السبب. وهذا ما يضع الحوادث التاريخية بكافة تداعياتها في بؤرة الذاكرة الإنسانية المنتعشة بالتلاوة والتدبر إلى انتهاء التاريخ بقيام الساعة.

الهوامش

١- أحمد بن عبدالرحيم ولي الله الدهلوي (ت: ١١٧٦هـ): الفوز الكبير في أصول التفسير، عربه من الفارسية: سلمان الحسيني الندوي، دار الصحوة، القاهرة، ١٤٠٧هـ/١٩٨٦م، ص١٦٥.

٢- محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر ابن عاشور التونسي (ت: ١٣٩٣هـ): التحرير والتنوير «تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد، الدار التونسية للنشر، تونس، ١٩٨٤م، جـ١١، ص٢٨٤.

٣- ولي الله الدهلوي: الفوز الكبير في أصول التفسير، ص١٠٤.

٤- بدر الدين محمد بن عبدالله بن بهادر الزركشي (ت: ٧٩٤هـ): البرهان في علوم القرآن، تحقيق: محمد أبوالفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، عيسى البابي الحلبي وشركاؤه، القاهرة، ١٣٧٦هـ/١٩٥٧م، ص٢٢.

٥- عبدالرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي (ت: ٩١١هـ): الإتقان في علوم القرآن، تحقيق: محمد أبوالفضل إبراهيم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٣٩٤هـ/١٩٧٤م، جـ١، ص١٠٧.

٦- بدر الدين الزركشي: البرهان في علوم القرآن، ص٢٢.

٧- أبوالحسن علي بن أحمد بن محمد بن علي الواحدي النيسابوري (ت:٤٦٨هـ): أسباب النزول، تحقيق: ماهر يا سين الفحل، دار الميمان، الرياض، ٢٠٠٥م، ص٢٠.

٨- عبدالحكيم الأنيس- ضمن حيثيات نتائج تحقيقه كتاب: أحمد بن علي بن محمد بن أحمد بن حجر العسقلاني (ت: ٨٥٢هـ): العجاب في بيان الأسباب، دار ابن الجوزي، الدمام، ١٤١٨هـ، جـ٢، ص٩٢٦.

٩- أبوعبيد القاسم بن سلام بن عبدالله الهروي البغدادي (ت: ٢٢٤هـ): فضائل القرآن، تحقيق: مروان العطية ومحسن خرابة ووفاء تقي الدين، دار ابن كثير، دمشق وبيروت، ١٤١٥هـ/١٩٩٥م، ص٩٧. على أنه يجب الحذر والتحرز تجاه أسباب النزول، فلا تؤخذ على علاتها، بل يجب عرضها على القرآن نفسه، فما وافق القرآن أخذ به، وما عارض القرآن طرح، إذ يوجد تناقض في بعض الروايات، وهناك القصص الخرافي في جانب منه، وهناك الإسرائيليات المطولة التي لا يحتملها النص القرآني، بل وهناك ما لا يوحي بالسبب فيسمى سببا، وقد يطلق في هذا الضوء السبب على اللازم والمتعلق، وهو غير السبب، وقد يطلق السبب على ما يعتبر من باب الجري وقبيل الانطباق، وليسا من الأسباب (محمد حسين علي الصغير: تاريخ القرآن، دار المؤرخ العربي، بيروت، ١٤٢٠هـ، ص٥٣، بتصرف يسير).

١٠- ومما نلاحظه من مآخذ في هذا السياق: ذهاب الواحدي إلى أن سبب نزول سورة الفيل: قدوم أبرهة من الحبشة لهدم الكعبة؛ إذ استدرك السيوطي عليه ناقدا فقال: «والذي يتحرر من سبب النزول أنه ما نزلت الآية أيام وقوعه ليخرج ما ذكره الواحدي في سورة الفيل من سببها قصة قدوم الحبشة به، فإن ذلك ليس من أسباب النزول في شيء، بل هو من باب الإخبار عن الوقائع الماضية كذكر قصة نوح وعاد وثمود وبناء البيت ونحو ذلك، وكذلك ذكره في قوله: ﴿وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا ﴿١٢٥﴾﴾ (النساء:١٢٥)؛ فسبب اتخاذه خليلا ليس ذلك من أسباب نزول القرآن كما لا يخفى» (الإتقان في علوم القرآن، جـ١، ص٦٤)، وإنما هي إشارات تاريخية مجردة لا علاقة لها بمناسبة نزول أو سببه...

١١- أخرجه البخاري عن ابن مسعود، حديث: ٧٤٥٦.

١٢- أبوالحسن مقاتل بن سليمان بن بشير الأزدي البلخي (ت: ١٥٠هـ): تفسير مقاتل بن سليمان، تحقيق: عبدالله محمود شحاته، دار إحياء التراث، بيروت، ١٤٢٣هـ، جـ٥، ص١٤٩.

إدارة الأزمات وتدافع الحجيج

د. رضا عبدالحكيم
باحث أكاديمي

تسجل تقارير المجتمع الدولي وهيئات إدارة شؤون الحج في المملكة العربية السعودية، تعاظم التدفق البشري للحجيج في مواعيده الشرعية، وأن مدن المملكة تستقبل ملايين القادمين من كل حدب وصوب، وذلك لأداء شعائر الحج، يقول المتعال سبحانه: ﴿وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ لِّيَشْهَدُوا۟ مَنَـٰفِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَـٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَـٰمِ ۖ فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْبَآئِسَ ٱلْفَقِيرَ ﴿٢٨﴾ ثُمَّ لْيَقْضُوا۟ تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا۟ نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا۟ بِٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴿٢٩﴾﴾ (الحج:٢٧-٢٩).

كان من الطبيعي أن تبرز التظاهرة البشرية لأداء الشعائر، في أشد صورها، إذا ما علمنا زيادة تعداد مسلمي أرض الله على مليار نسمة، منتهى آمالهم أن تطأ أقدامهم أطهر البقاع لأداء الركن الخامس في الإسلام لمن استطاع إليه سبيلا. لذا أضحى تدافع الحشود البشرية قدرا لا تملك سلطات التنظيم في المملكة العربية السعودية سوى اتباع أفضل ما أنتجته مناهج الفكر الإداري وبحوثه الحديثة لإدارة شؤون الحج، هذا الحدث العظيم المتكرر سنويا.

إن سلامة الحجيج من أهم أولويات من خصهم الله بنعمة استقبال ضيوف الرحمن، وهم سكان مكة المكرمة وأولو أمرها من الحكام والإداريين، قال بحكمته: ﴿لِإِيلَـٰفِ قُرَيْشٍ ﴿١﴾ إِۦلَـٰفِهِمْ رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ ﴿٢﴾ فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَـٰذَا ٱلْبَيْتِ ﴿٣﴾ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ ﴿٤﴾﴾ (قريش:١-٤).

وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾﴾ (القصص:٥٧)، فالحرم الآمن لا يسفك فيه دم، ولا يقتل صيده، ولا يختلى خلاه، ولا تلتقط لقطته إلا من أراد التعريف بها.. كل هذا عناية بهذا البلد؛ لأن الله جعله مهوى أفئدة المؤمنين ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا﴾ (البقرة:١٢٥)، ما أتوا إلا وأفئدتهم تشتاق إليه.

الحشود البشرية، وتشكلها أثناء أداء الشعائر، وأدوات الإدارة الحديثة في مواجهة تدافع البشر، حقل تبنت الأدبيات العلمية الحديثة دراسته ضمن بحوث «علم الحشود». والسطور التالية ترصد بإيجاز مشكلة الحشود أثناء الشعائر، وغني عن القول إن الهدي النبوي قد أسس منذ أربعة عشر قرنا من الزمان أصول السلامة وأمن الحجيج في سبق معرفي إعجازي، وحلول مستقبلية نيرة، أرساها سيد البشر عليه الصلاة والسلام، ضمانا لعودة الحجيج سالمين إلى بلدانهم، بإذن الله تعالى.

مشكلة تدافع الحشود

خلال العقود القليلة الماضية تم رصد أخبار وتقارير تناولت الأضرار الجسام الناشئة عن تدافع الحشود البشرية، وذلك في البيئات المهيأة لاستقبال المئات، بل الآلاف من الأشخاص، وأحيانا ملايين البشر، كما هو شأن حجيج المسلمين في الأرض المقدسة. ورأى المجتمع العلمي المعاصر التصدي بأساليب تقنية وإدارية وفنية من أجل إدارة الأزمات الناشئة عن تدافع الحشود التي يختلط بفعل ديناميتها الحابل بالنابل، ويلقى العشرات والمئات مصرعهم على إثر الفوضى والاضطراب والتزاحم، وهذا ما دلت عليه تجارب عدة، مثل ما حدث في الاستادات الرياضية العالمية، والنموذجين الشهيرين: «كارثة استاد هيلز بورج» و«حادث استاد بورسعيد في مصر»، كذلك تدافع حشود الحفل الموسيقي في روسكيلد في الدنمارك، ونماذج مروعة أخرى حدثت في بقاع شتى من العالم في الهند والفلبين وغيرهما من بلدان المعمورة. وما زالت آثار الدمار الذي حدث فوق جسر الجمرات في المملكة العربية السعودية عام ٢٠٠٦م ماثلة في الأذهان، بفعل مقتل ٣٦٣ من الحجيج أثناء موسم الحج.

وجاء في تحليل لخبراء الطب حول الإصابات التي تسببها الحشود وتدافعها، أن أكثر الأسباب شيوعا والتي تؤدي إلى حدوث حالات وفاة في كوارث الحشود، هي الاختناقات التي تنتج عن نقص الأوكسجين الذي يعقب التزاحم، حيث يتسبب التدافع في الضغط على بطون الضحايا والأقفاص الصدرية مما يؤدي إلى شل حركة الرئتين. وإن الاختناقات الناتجة عن نقص الأوكسجين تحدث بسبب تكدس الناس بعضهم على بعض، رأسيا أو أفقيا، بحيث يتدافعون ويضغط بعضهم على بعض بقوة.

تحركات الحشود وتصرفاتهم أثناء الأزمة كانت محور دراسات - أضف إلى خبراء الطب والجراحات - علماء النفس والإدارة والرياضيات، فصدرت تبعا لذلك العديد من الأدبيات والبحوث، التي تقدم استراتيجيات في الوقاية والعلاج، في ضوء معطيات ردود أفعال الحشود أو التنبؤ بها في مواقف معينة. هذا وقد ابتدع العلماء والباحثون تصميمات

أمنية والاستعانة بتكنولوجيا نظم المعلومات من أجل التخطيط الناجع للحد من كوارث تدافع الحشود (١).

أمن الحجيج أثناء الشعائر

نعلم أن هناك أوجها مختلفة لشعائر الحج، إذ يعد الذهاب إلى جسر الجمرات واحدا من مناسك حج المسلمين لمكة المكرمة، حيث يرمي المسلمون الحجارة على ثلاثة أعمدة مختلفة الواحد تلو الآخر. ويتكون حشد الحجاج من حوالي ٧٥٠٠ فرد يقفون على الجسر. وللأسف، يؤدي هذا إلى وقوع العديد من الحوادث. وبتدخل سلطات المملكة العربية السعودية، وجهود خادم الحرمين الشريفين وخبراء المملكة، تم تنفيذ ابتكارات عدة، مثل تصميم جديد متعدد الطبقات لجسر الجمرات، بحيث يتم توحيد الحجاج المتواجدين في أماكن مختلفة إلى مستويات منفصلة بعضها عن بعض، وبذلك أمكن تحقيق فصل بين الجماهير المتدافعة، كذلك منع التداخلات بين الجماهير، ووضع الحد الأدنى للازدحام والتكدس عند الدرجة الدنيا، لتفادي الكوارث. وجدير بالذكر أن المملكة تطور أنظمة أمنية لأجل الإدارة الرشيدة للحشود البشرية أثناء الحج.

سلامة الحجيج في الهدي النبوي

نهى نبينا المصطفى صلوات الله وسلامه عليه عن حمل السلاح في الحرم.. نهى أن يدخل السلاح إلى الحرم؛ تعظيما لأمنه، حتى يقطع خط الرجعة لمن أراد سوءا و فسادا. وعند النظر إلى السلامة في الحج، نجد أن الإسلام اعتنى بسلامة الأبدان وسلامة الأرواح وسلامة النفوس وسلامة البيئة، كل ذلك اعتنى الإسلام به؛ لكي يؤدي الحاج عبادته في هدوء.

وجد أن الرسول ﷺ يعلمنا كيف نحقق السلامة، فقد أتى لبيت الله لأداء حجة الوداع، وطاف بالبيت، فلما ازدحم الناس عليه والكل يتطلع ليراه، ركب واستكمل طوافه راكبا، وأتى الحجر الأسود فقبله، وأتاه أخرى فاستلمه بيده وقبل يده، وأتى إليه ثالثة فأشار إليه بيده وهو ماش، لم يكرر تقبيل الحجر توخيا للسلامة، ولو قبل الحجر في كل مرة لتمسك الناس بهذا فقبلوه مرات عديدة وألحق بعضهم الضرر ببعض.

رأى النبي ﷺ عمر رضي الله عنه يزاحم فقال: «يا عمر، إنك رجل قوي، قبل إن رأيت سعة وإلا فانصرف». هذا من باب التيسير والتسهيل على المسلمين.

إن الركن اليماني، كما هو معلوم، للاستلام فقط من دون إشارة، ثم إن المسلم في سعيه بين الصفا والمروة يسرع بين العلمين إذا لم يجد مشقة، وإذا وجد ازدحاما فلا يشرع

له الإسلام الإسراع بين العلمين مع المشقة (٢).

ثم نجد أن الرسول ﷺ في انصرافه من عرفة كان يشير بيديه لأصحابه السكينة السكينة.. كل ذلك حرصا على ألا يزدحم الناس. وفي يوم عرفة وقف ﷺ وقال للناس: وقفت هنا وعرفة كلها موقف، وارتفعوا عن بطن عرفة ومزدلفة كلها موقف، وارتفعوا عن بطن محسر ومنى كلها منحر، وللحاج مكة كلها منحر. وأمرهم أن يبقوا في أماكنهم، فقال ﷺ: إنكم على شعيرة من شعائر أبيكم إبراهيم. فلم يخص الوقوف بجزء معين من عرفة، فلو خصه بجزء معين لكان فيه إهلاك للناس، ولكنه ﷺ قال: «وقفت هاهنا وعرفة كلها موقف». ولما أتى المزدلفة قال: «وقفت هاهنا ومزدلفة كلها موقف»، ورخص للضعاف من النساء بالانصراف حتى لا يؤذين من الازدحام. وفي منى رمى جمرة العقبة، ونحر، وحلق، فجاء الصحابة قائل يقول: لم أشعر فحلقت قبل أن أذبح. فقال: «اذبح ولا حرج». فجاء آخر فقال: لم أشعر، فنحرت قبل أن أرمي. قال: «ارم ولا حرج». فما سئل النبي ﷺ عن شيء قدم ولا أخر إلا قال: «افعل ولا حرج». يفهم من هذا حرصه – صلوات الله وسلامه عليه – على تسهيل سلامة الحجيج. نحر في منى وقال: نحرت هاهنا ومنى كلها منحر، وكل فجاج مكة طريق ومنحر.. اشتكت أم سلمة من الطواف ماشية فأذن لها أن تطوف راكبة خلف الناس، وفي هذا تسهيل للحج وأمن الحجيج.

إن أمن الحجيج وإدارة حشودهم تشريع إسلامي ملزم للناس وللحاكم القائم على شؤون الحج. وقد توعد الله من هم في الحرم بسيئة أن ينزل به العقوبة، قال تعالى: ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٥﴾﴾ (الحج:٢٥). فكل من هم في الحرم بسوء ونوى شرا وضررا ببيت المسلمين، فإن الله يعاقبه وإن كان في أقصى الدنيا، بمجرد همه، وإن لم يفعل شيئا؛ احتراما لأمن هذا البلد. والنبي ﷺ رخص لرعاة الإبل وسقاة الحجيج ترك المبيت في منى، وأن يبقوا في أماكن سقيهم للحجيج ورعيهم لإبلهم، ورخص لهم أن يرموا في اليوم الأول ثم لا يرمون إلا في اليوم الثالث، كل هذا من التيسير وسلامة الحجيج.

إن الحج موسم عبادة وقربة إلى الله، قال تعالى: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا﴾ (البقرة:٢٠٠). إن الإسلام جاء بالحج ووضع منهجه، فقال تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ (البقرة:١٩٦)، ثم قال تعالى: ﴿فَإِذَا أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِندَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ ۖ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّالِّينَ ﴿١٩٨﴾ ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٩٩﴾ فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا﴾ (البقرة:١٩٨-٢٠٠).

إن الحج صبغة إسلامية، والحج مؤتمر للتعاون والمحبة والمودة بين الأمة، ومن هدي نبينا المصطفى ﷺ النهي عن المزاحمة، واتخاذ التدابير الأمنية الضامنة لتلافي كوارث الحشود المتدافعة، وإدارة أزماتها، وهذا ما أثبتته الدراسة.

وخير ختام، قال بعزته: ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا عَلَىٰ وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٨﴾﴾ (النمل:١٨).

الهوامش

١- أميرة عبدالمنعم (٢٠١٣م): عندما تتدافع الحشود، مجلة العلم، العدد ٤٤٦، ص:٢٧-٣٣.

راجع أيضا: تقرير (٢٠١٤م) نظم المعلومات يحلل تحركات الحشود البشرية الضخمة، مجلة العربي العلمي، العدد ٢٦، ص:٣٦ و٣٧.

٢- مفهوم السلامة في الحج لفضيلة مفتي عام المملكة العربية السعودية، الشيخ عبدالعزيز بن عبدالله آل الشيخ، مجلة الحج والعمرة، العدد السادس، جمادى الآخرة ١٤٣٦هـ، ص:٣٤-٣٦.

القول المأثور في إحياء الصواب المهجور

(٣٥) الأخيرة

عبدالله أيت الأعشير
مفتش منسق جهوي لمادة اللغة العربية - المغرب

الآن وقد بلغ زورقي مرفأ النهاية، في هذه الحلقات اللغوية التي كانت فواتح معارفها على حبل الذراع، فأضحت عواقب معارفها أعز من بيض الأنوق؛ وكانت بداءتها مجرد قطرة، غير أن اتصالها وتتابعها شهرا بعد شهر، وعاما بعد عام، جعلا فوالجها وثغابها نهرا فياضا سخيا. ولا عجب، فالواحد مع الثاني والثالث يصبحون عصبة، والمدماك إلى المداميك الأخرى تغدو حائطا وصرحا؛ فإنني أعلن على لسان الخليفة الأموي عبدالملك بن مروان أن الناس ليسوا في حاجة إلى شيء أكثر من حاجتهم إلى «إقامة ألسنتهم التي بها يتعاورون القول، ويتعاطون البيان، ويتهادون الحكم، ويستخرجون غوامض العلم من مخابئها؛ ويجمعون ما تفرق منها. إن الكلام فارق للحكم بين الخصوم، وضياء يجلو ظلم الأغاليط، وحاجة الناس إليه كحاجتهم إلى مواد الأغذية» (١)، ولاسيما في هذا الزمن المعاصر، الذي يحرص الأقوياء على فتل شبكات العولمة للضعفاء، للإيقاع بهم في فخ الرضا بكل ما هو غربي، وطي الكشح عن البضاعة العربية الصميمة؛ وما ذلك إلا من عقدة التصاغر التي أصابتنا بها العولمة، ومن ثمة أصبح بعضنا ينظر إلى اللغة العربية الفصحى بعين قذية، تمنع من إبصار جواهرها المكنونة التي يحجبها عنه العمش الثقافي الذي ابتلينا به بأخرة.

أرجو أن تكون هذه القراطيس أجمع للفائدة، وأضبط للصحة والسلامة التي تعود بالفائدة الماتعة على الفصحى، التي كان الأوائل حرصا على إظهارها في أجود مرآتها بعبارات أصفى وأوفى وأجود. ولقد حرصت أن أقيد هذه الحلقات بكلام يجاري بلاغة الأولين، رغبة في أن يستقبلها القراء بالحفاوة التي تجعلهم يشربون كلماتها محلولا منعشا يكنس الخطأ عن لغتنا الغراء، فيعود الاعتراف بالفصاحة، وبحتمية التعلم بالفصحى أرسى وأوكد، ونطرد عنا الكسل اللغوي الذي جعلنا نرضى بركوب ذنب البعير في الصناعة المعرفية بلغة القرآن الكريم الموصوفة باللسان العربي المبين، وبأحسن الحديث الذي لاعوج فيه ولا أمت.

ولقد دفعني هذا المشهد اللغوي العربي، الذي يعج بكثير من التعابير التي تنكبت طريق الفصاحة، إلى قرع ظنبوب الاجتهاد للإسهام في البحث عن حلول علمية لهذه الحالة التي أسود منها المشهد اللغوي العربي، منطلقا من مبادئ اللسانيات التعليمية التي تتفاعل مع كثير من المعارف والعلوم، ناهيك عما توفره اللسانيات التطبيقية من فرص

عديدة لتسهيل التحكم في تعلم اللغة، سواء تعلق الأمر بالاتجاه التقابلي الذي يصرح بإمكانية التنبؤ بالأخطاء والغلطات اللغوية، والذي يرى أن العاميات في العالم العربي هي مصدر الصعوبات التي يعانيها متعلم الفصحى، لأن التقابل بين بنية اللغتين: (العامية والفصحى) هو المسؤول عن نقل بعض الأخطاء من العامية إلى الفصحى. أما الاتجاه الآخر، الذي يعنى بتحليل الأخطاء والغلطات اللغوية بعد وقوعها، فإنه يميز بين أخطاء القدرة، التي تعد نسقية مصدرها الجهل بالقواعد والضوابط اللغوية، وغلطات الإنجاز، التي تعد عرضية نرتكبها سهوا، رغم معرفتنا بتلك القواعد والضوابط اللغوية المقررة التي أسري عليها بليل وفرغ منها.

ولقد قدم هذا الاتجاه تفسيرات مقنعة للأخطاء والغلطات الشائعة، أكتفي في هذا التأزير بالإشارة إلى ما يزيل التلبيس، الذي يكون تذكرة للذاكرين على هذه الشاكلة:

١- غلطات القياس الخاطئ: مثل قياس مصدر «نضجَ» نضوجا على مصدر «دخل» دخولا، بينما الفصيح هو: «نضجٌ»، وهو مصدر سماعي. وقياس جمع مستشفيات على جمع فتيات فقالوا: «إحدى المستشفيات»، والصحيح: «أحد المستشفيات».

٢- الإيهام بالترادف: مثل الاعتقاد بترادف ظرف المكان «حوالي» مع ظرف الزمان «زهاء». وبين «لحظة» و«برهة». وبين الفعل «ضاف» و«استضاف». وبين «التتابع» و«التتايع». و«الرومان» و«الروم». و«التو» و«التوة».

٣- التصحيف والتحريف: ويكثر هذا النوع في تغيير صوت بصوت آخر، أو في الخلط بين حركات المباني بالنسبة إلى اللفظة الواحة مثل: «البث/ البت»، و«الغث والثمين» بدل «السمين»، و«الأذان/ الآذان»، و«الخدمات والخدمات» و«الغرِّ والغُرِّ».

٤- التداخلات اللغوية: مثل عبارة «قلت في رأسي» العامية، بدل عبارة: «قلت في نفسي» الفصيحة، وكذلك تذكير «الكأس»، بينما تؤنثها الفصحى.

٥- الترجمة الحرفية من اللغة الأجنبية: مثل عبارة «تقابلا رأسا لرأس» التي لا ترضاها الفصحى التي تقول: «تقابلا على انفراد».

٦- توهم الأصالة: مثل جمع كلمة «مدير» على «مدراء» توهما من القائل إن «ميم مدير» أصلية في الكلمة، مع العلم أنها زائدة؛ ولذلك تجمع الكلمة جمع مذكر سالما، بخلاف لفظة «وزير» التي تجمع «وزراء»؛ لأن «واوها» أصلية، من فعل: «وزر».

٧- الإملاء العرفي: مثل أسماء الإشارة والموصولة التي لا تكتب كما تنطق، وبعض الألفاظ الأخر: عمرو، وداود، وطاوس، التي تكتب بواو واحدة.

٨- التعميم المتسرع: مثل تعميم لفظة «اليتيم» وعدم مراعاة الدقة اللغوية التي تتميز بها الفصحى، حيث لا يطلق هذا النعت إلا للذي فقد أباه، أما الذي فقد أمه فيقال له: «العجي»، والذي فقد الأبوين يقال له: «اللطيم».

٩- إعادة الاقتراض: مثل تعريب لفظة «الكحول» بدل إحياء اصطلاح «الغول»، الذي نطق به القرآن الكريم.

١٠- الجهل بالقواعد: مثل تكرار «كلما» في الجملة الواحدة. وعبارة: «كم هو جميل!» التي لم تحترم قاعدة التعجب، التي تصاغ وفق الصيغتين: «ما أفعل» و«أفعل به»، ناهيك عن عدم مراعاة وظيفة همزة الإزالة التي تقلب معنى الفعل إلى ضده مثل: «صغى وأصغى»، و«جاء وأجاء»، و«ترب وأترب»، و«قذى وأقذى».

١١- فقدان الحس اللغوي: مثل قول المتأخرين: «سوف لن أفعل كذا»، وقولهم: «كرر القول مرات»، ناهيك عن قولهم: «يعد أسلوبه قمة في الركاكة».. وهي كلها عبارات تفتقد الحس اللغوي العربي الصميم.

١٢- التعريب الأعرج: وآية ذلك الكلمات الأجنبية التي عربناها على شاكلة المهورة إحدى خدمتيها، اعتقادا منا أن مقابلها العربي معدوم، مثل اصطلاحات: «الأرشيف» بدل «الربيدة»، و«البيداغوجيا» بدل «اللقانة»، و«الديكور» بدل «الزخرف».

هذا مجرد ضوء مشكاة، ونغبة طائر، وشعاع من شمس المعرفة باللغة العربية، وبنوفلها اللجي الذي لا ينكش، قدمت منها ذروا، ووضعت زفرها في زفرها خشية الإطالة. أرجو أن أصيب كبد الظبي في ما أومأت إليه من معارف اجتلبتها من معادنها الأصيلة، واحتطبتها من الحذاقيين الذين مخضوا أوطاب الفصحى ومخروا عباب يمها، وأن لا أرمي في رجاف الفصحى بمنجاب خائب؛ وإذ أشهد القارئ إني لست سوى فرع من أيكة الذين مخروا عباب يم الفصحى حتى جاءوا بالمقل، فإنني أرجو أن أكون أنا النذير العريان الذي ينفخ في الصور قائلا: لذام بحب الفصحى لذام، فهي أمنا الرؤوم التي أرضعتنا بلبانها، وهي كل ما تبقى لنا نحن - العرب - في هذا العالم العولمي الذي بلغ طوفانه المدى في المحو وانتهاك الخصوصيات والقيم المميزة للأمم والشعوب. وقديما قيل: «العلم أربعة أصناف: علم للمكسب فذلك مهنة وابتذال، وعلم للمفاخرة فذلك علم السفهاء، وعلم للآخرة وذلك علم الصالحين، ورابع يبعث عليه شرف النفس، وذلك علم النبلاء» (٢)، أرجو أن يكون عملي من شجرة العلمين: الثالث والرابع، وأن أدرك البغية، وألا أغادر هذه الدنيا حتى أرى الفصحى قد استقامت وسالت بها ألسنة شداتنا سهوا رهوا، واللهجات العامية قد تضعضع بنيانها وزوتها الفصحى في حدود ضيقة جدا، كما أرجو الله تعالى أن يقرن منطقي بالسداد، ويجعل لي لسان صدق موصول بالفلاح، ويوفقني لتكون أقوالي موصولة بأعمالي، وأعمالي محققة لشأوي المغرب. آمين.

حرر في بني ملال ليلة الأربعاء ٢٩ ربيع الآخر ١٤٣٦هـ الموافق ١٨ فبراير ٢٠١٥م. المغرب.

الهوامش

١- كتاب الإمتاع والمؤانسة، أبوحيان التوحيدي، تصحيح وضبط وشرح أحمد أمين وأحمد الزين، الجزء٢، الليلة٢٥، ص١٤٤، المكتبة العصرية، بيروت، صيدا.

٢- الفصول والغايات في تمجيد الله والمواعظ، أبوالعلاء المعري، ضبطه وفسر غريبه: محمود حسن زناتي، الجزء ١، ص٤٠٠، المكتب التجاري للطباعة والتوزيع والنشر، بيروت.

العـــودة للديـــار

مياسة النخلاني
قاصة من اليمن

«سنرحل في الصباح».. قالها لزوجته وأولاده الستة. اندس بصمت تحت لحافه محاولا استجداء النوم من دون فائدة، لم يتخيل أبدا أن يأتي اليوم الذي يغادر فيه قريته الصغيرة بهذه الطريقة، لكن بعد آخر نقاش دار بينه وبين أبيه شعر برغبة تلح عليه بالرحيل، قفزت إلى رأسه وطبقها فورا من دون تفكير.

«والدك لا يقصد ما يقول، وأنت تدرك هذا أكثر من غيرك»، قالتها زوجته معاتبة.

«أيا كان، سأرحل طالما يريد مني الرحيل»، رد من دون أن ينظر إليها!

«وهل ستتركه وهو في هذه السن من دون سند أو عون؟! لم تكن سوى كلمة قالها في لحظة غضب»، ردت بإصرار، في محاولة منها لثنيه عن قراره، لكن من دون فائدة، كان قد أزمع الرحيل ولا مجال للتراجع، وأمام عناده الذي لم تفهم له سببا لم تجد بدا من الإذعان له وطاعته في قرار اتخذه.

في الصباح، وحين فتح عينيه، كانت قد أعدت كل شيء للرحيل كما أمرها. شاهد الرفض في عينيها، لكنه تجاهله، حمل الحقائب وترك كل شيء خلفه، والده العنيد وبيته الذي عاش بين جنباته سنوات طويلة.

لم يكن أمر العثور على سكن في المدينة الواسعة بالهين، خصوصا أن لديه عائلة، لكنه وبعد مجهود وجده أخيرا، في حي متواضع لا يكاد يختلف عن الحي الذي عاش فيه في قريته، استأجر شقة صغيرة. وفي اليوم التالي بدأ البحث عن عمل، ليحالفه الحظ بالعمل أجيرا لدى تاجر حبوب، لم يكن العائد كبيرا، لكنه على الأقل يكفيه سؤال الآخرين ويسد جوع عائلته، التي منذ انتقالها إلى المدينة أصبحت تكتفي بوجبتين فقط بدلا من ثلاث.

«هل يمكن أن يوصل العناد صاحبه إلى هذه الحالة؟!»، تساءل كثيرا، بحث عن سبب مقنع يجعله يجبر نفسه وعائلته على اختيار هذه الحياة القاسية بينما لديه بيت وأرض يزرعها ويأكل من خيرها، من دون الحاجة إلى البحث عن عمل لدى الغير وبأقل القليل، ثم والده الذي ليس له أحد سواه، من سيؤنس وحدته، ويطبخ له، ويعتني به في الكبر. حين يأتي إلى هذه النقطة، يعتصر الألم قلبه، يتمنى لو يعود خادما تحت قدميه لبقية حياته، ماذا إن خرجت منه كلمة في لحظة غضب، ألم يتحمله صغيرا؟ ووقف إلى جانبه وسانده شابا؟! «سحقا للعناد حين يتشبث بالعقل ويرفض تركه»، ترددت أصداؤها في أعماقه وهو يهز رأسه ويحاول النوم ليصحو باكرا ويلحق بعمله.

أثناء خروجه إلى العمل صادف العجوز الذي يخرج من البيت المقابل كل صباح وهو يدفع عربة خضار بالكاد يقوى على تحريكها، كان كبيرا في السن، لعله بعمر والده، لكن العمل الشاق قوس ظهره، وقلة التغذية أذهبت اللحم من جسمه.

خفق قلبه بشدة، وسرت رعشة من منتصف ظهره إلى أخمص قدميه حين تذكر والده وتخيله يحرث الأرض ويعمل بجهد بعد هذا العمر. ومن دون تردد، تقدم نحو الجار واستأذنه أن يدفع العربة بدلا منه، ولو لجزء من الطريق، وافق العجوز ممتنا ومشى خلفه من

دون أن ينطق كلمة واحدة، أوصله إلى مفترق الطريق ثم ودعه وسار في طريقه.

لم يغب عن باله طوال ذلك اليوم، وتمنى لو أنه يقابله أثناء العودة لكنه لم يلتق به. في صباح اليوم التالي، تقابلا عند الباب، سلم عليه ودفع العربة المحملة بالخضار، هذه المرة تجاذبا أطراف الحديث، علم أن العجوز يعيش وحيدا بعد وفاة زوجته.

«وأولادك؟!» سأله باستغراب!

«لم يرد الله أن يكون لي أولاد، والحمدلله على كل حال»، أجاب بغصة. لم يعقب هو على كلامه، وواصل طريقه، يدفع العربة بصمت.

في تلك الليلة، دق على باب العجوز وبيده عشاء، جلس معه قليلا قبل أن يغادر، ومن وقتها أصبح يحمل على عاتقه إطعامه، ولولا أن بيته صغير جدا لطلب منه المبيت عنده، حاول ثنيه عن الذهاب كل يوم إلى السوق لبيع الخضار واعدا إياه أن يتكفل بكل مصاريفه. لكن العجوز رفض: «يا بني، قضيت طوال عمري وأنا أعمل وآكل من عرق جبيني، لا أريد أن أعيش أيامي الباقية عالة على الآخرين».

عاد إلى بيته مهموما، سألته زوجته عن السبب، فحكى لها ما صار مع الجار، سكتت هنيهة قبل أن تتساءل: «ووالدك، ألم ترأف لحاله؟!».

نظر إليها بعينين زائغتين، لكنه لم يقل كلمة واحدة.

في اليوم التالي، لم يقابل الجار أثناء خروجه، فرجح أن يكون قد سبقه، واصل طريقه وهو يفكر فيه. عندما عاد، أخبرته زوجته أنها أوفدت ابنها إليه بالطعام، دق على بابه كثيرا ونادى عليه لكنه لم يجب.

وضع الأغراض جانبا وذهب إليه، بعد محاولات عدة دخل الدار ووجد العجوز نائما في فراشه، بالكاد ترمش عيناه، أسعفه من فوره إلى المستشفى.

«والدك أصيب بغيبوبة سكر، بإذن الله تعالى سيتجاوزها ويعود معك إلى البيت سليما معافى»، قال الطبيب وهو يربت على كتفيه!

شعر بدوار وفقدان التوازن، بحث عن كرسي ليرتمي عليه..«والدك!»، تردد صداها في رأسه حتى كاد أن ينفجر، خاف على العجوز الذي أصبح جزءا من عائلته، وعلى والده الذي مضت شهور من دون أن يزوره أو حتى يهاتفه.

«يا لقسوة قلبك»، قالها لنفسه بصوت مسموع وهو عاجز عن مداراة دموعه.

مضت أيام والعجوز يتحسن. وحين حان وقت الخروج، ومن دون حتى أن يستأذنه، أخذه معه إلى البيت. «أعدني إلي بيتي يا بني»، قال العجوز بصوت واهن.

«نم الآن وغدا سأذهب بك إلى بيتك»، قال بحزم.

أخبر زوجته بقراره بالعودة إلى بيته وإلى أبيه، كان تأنيب الضمير والندم قد استبدا بكل تفاصيل عقله حتى أرهقاه، ولن يسامح نفسه إن حدث له مكروه.

شاركها حزم الأمتعة كي لا يتأخروا، فلم يعد يطيق صبرا أن يبيت ليلة أخرى بعيدا عن والده.

«والجار؟!»، سألت زوجته.

«سآخذه معي»، أجاب، ثم أكمل حزم الأمتعة.

في صباح اليوم التالي كان كل شيء معدا للرحيل، رفض الجار في البداية أن يذهب معه إلى قريته لكنه أصر عليه: «يا والدي لدي هناك أرض أزرعها ونأكل من خيرها، وبيت كبير يكفينا جميعا، لن تكون عالة علي، بل ضيفا كريما وأبا عزيزا، كان لدي والد، والآن والدان، والحمد لله على هذه النعمة، سأصونها ولن أفرط في أحدكما أبدا».

أمام كلماته لم يجد الجار بدا من الموافقة، لم يكن لديه الكثير ليأخذه معه، ودع بيته الصغير وعربته رفيقة كفاحه لسنوات طويلة.

عندما وصل إلى القرية، انكب على قدم والده يقبلها، ويطلب منه السماح، لم يكن بحاجة لسماع شيء فدموع والده فرحة بعودة ولده وأحفاده كانت غنية عن كل كلام.

لغة التدريس بين الفصحى والعامية

سالم بن عميران
أديب يمني

اعتنى العلماء والمربون، قديما وحديثا، باللغة العربية الفصحى، تعليما وتأليفا؛ لدورها المحوري في بناء شخصية الأمة وارتباطها بالقرآن الكريم والدين الإسلامي الحنيف.

ولما كانت اللغة العربية الفصحى في العصور المشرقة للإسلام في أوج ازدهارها وقوتها؛ أضحت لغة التعليم في المدارس والجامعات المنتشرة في عواصم الإسلام؛ في دمشق وبغداد والقاهرة وقرطبة والقيروان، حتى إن الطلاب الذين يأتون من أوروبا يلزمهم تعلم العربية لأخذ العلوم الدنيوية من المسلمين؛ كعلم الفلك والطب والكيمياء والبصريات، التي صيغت بلغة عربية فصيحة، ووضع أسسها علماء أجلاء، كابن سينا والرازي وابن الهيثم وابن النفيس.

ولا غرو، فقد كانت اللغة العربية هي اللغة السائدة في تلك الفترة على امتداد بلاد الإسلام؛ من بحر الصين شرقا إلى جبال البرانس غربا.

أما في عصر العولمة والتقدم العلمي والازدهار الحضاري، إذ تقاربت الأفكار والثقافات بين الأمم والشعوب؛ فارتقت لغات، وهددت أخرى بالانقراض والاندثار، وبقيت اللغة العربية الفصحى تشكو من التهميش أو الإقصاء في أكثر من مجال من مجالات الحياة، حتى حوصرت في بعض البلاد في زوايا ضيقة ترتبط بالشعائر الإسلامية، كالأذان والصلاة وخطب الجمعة، وظلت الفصحى حبيسة بطون كتب التراث العربي والإسلامي على رفوف المكتبات تنظر إلى بنيها بطرف خفي من سيعيد لها بهجتها ويجدد عهدها المشرق؟!

إن التحديات التي تواجهها اللغة العربية الفصحى اليوم في مجال التعليم أضحت أمرا جليا وواضحا، فهناك قصور في مهارات تعلم اللغة العربية، كالقراءة والكتابة والمحادثة والسماع. ولعل من أبرز أسباب ذلك شيوع العامية في العملية التعليمية

وجعلها وسيلة اتصال بين المعلم والطالب؛ لفهم المادة العلمية وما يتعلق بها من نشاطات، وهي ظاهرة تستحق الدراسة والبحث؛ لما لها من آثار سلبية على مستوى اللغة العربية في مجال التعليم.

وقبل البحث عن أسباب شيوع هذه الظاهرة وآثارها على العملية التعليمية، تجدر بنا معرفة العلاقة بين الفصحى والعامية، وخلاصة القول في هذه المسألة: إن علاقة الفصحى بالعامية هي علاقة تعايش؛ فما زالت العامية تحتفظ بكثير من الألفاظ التي تعود أصولها إلى الفصحى؛ والفصحى قد تؤدي وظائف ربما لا تنهض بها العامية، وفي الوقت نفسه تقوم العامية بوظائف أخرى ربما لا تنهض بها الفصحى (١)؛ أي: تكون العامية في شؤون الحياة اليومية؛ في السوق والشارع والبيت، وربما ترتقي إلى ما يعرف بالأدب الشعبي الذي يفهمه عامة الناس؛ من حكم وأمثال وقصص وأشعار، أما الفصحى فهي أكثر رقيا ومكانة وتتداول في مجالات التعليم والإعلام والمحافل الرسمية، وهي اللغة التي تكتب بها المقالات العلمية والأدبية الرفيعة في الصحف والمجلات، فمن خلال هذه العلاقة التكاملية فلا مضارة بين الفصحى والعامية إذا استعملت كل منهما في مجالها.

أسباب استعمال العامية في التدريس

هناك أسباب كثيرة أدت إلى شيوع العامية في عملية التدريس في مراحل التعليم المختلفة، من أبرزها:

- ضعف التأهيل اللغوي للمعلم: وهي مسألة مؤثرة في عملية التعليم، تسبب الإخلال بها في تراجع مستوى العربية في مجال التعليم عامة في الفترة الراهنة، وقد مضى زمن كان ينظر فيه إلى المعلم على أنه رمز للمعرفة والحكمة؛ فهو مصدر المعرفة الوحيد في مجتمعه وأهل حيه، وما يحتاجون إليه في أمور القراءة والكتابة (٢) لكفاءته تربويا وعلميا ولغويا.
- تسهيل فهم المادة العلمية للمتعلم: وهي حجة واهية، حيث أكدت الدراسات الحديثة على ضرورة أن يتعلم الطفل في بدايات حياته باللغة العربية، وأن الأصل أن يكون التعلم والتعليم باللغة العربية الفصحى بلا استثناء، في كل المستويات (٣).
- تجاهل الجانب العملي من تعلم اللغة العربية: فلا تزال طرق السرد والحفظ والتلقين يعتمد عليها في عملية التدريس، وقد أثبتت كثير من الدراسات الحديثة أن هذه الطرق لا تثير في المتعلم روح المناقشة والحوار، بالإضافة إلى عدم استيعاب كل المهارات اللغوية، وشحذ أذهان التلاميذ بكم ضخم من الألفاظ غير المألوفة (٤).

وقد تسبب استعمال العامية في عملية التدريس إلى تراجع اللغة العربية في مجال التعليم من خلال المظاهر الآتية:

- ضعف الطالب في المراحل المتقدمة من التعليم في المهارات الأساسية للغة العربية؛ كالقراءة والكتابة والسماع والمحادثة.
- تشويه اللسان العربي من خلال امتزاج الفصحى بالعامية؛ فيقرأ الطالب من الكتاب المدرسي بالفصحى، بينما يسمع معلمه يتحدث بالعامية أثناء عرضه للدرس، وتلك ازدواجية لغوية لها أثر سلبي على الفصحى.
- الشكلية والجمود في تعلم قواعد اللغة العربية، وابتعاد ما يدرسه الطالب عن واقعه الذي يعيشه في حياته اليومية، وهذا الشعور له دور كبير في تفشي الضعف في اللغة العربية (٥).
- عزوف النشء عن القراءة، وقد أثبتت الحقائق أن اللغة العربية الفصحى فيها سر عجيب لو أتقنها المتعلم سيجد فيها شوقا إلى القراءة (٦).
- التقليل من قيمة الفصحى في وسائل الإعلام، والاستهانة بمعلم العربية، حتى صور في بعض المواد الإعلامية بصورة هزلية، بينما يجل معلمو اللغات الأجنبية فيلقون تقديرا ومكانة (٧).

مقترحات للنهوض بالفصحى في مجال التعليم

لقد بذلت جهود كثيرة للحد من العامية في مجال التعليم، بدءا بتأليف الرسائل والكتب التي تهدف إلى الوقاية من الوقوع في شرك الألفاظ العامية (٨) وصولا إلى مشاريع لغوية ناجحة تهدف إلى معالجة كل مظاهر الضعف في اللغة العربية في مجال التعليم. ولعل ما قام به الدكتور عبدالله الدنان في السنوات الأخيرة يصب في هذا الاتجاه؛ حيث وضع نظرية فريدة في تعلم الفصحى بالفطرة والممارسة، واقترح حلا لمشكلة تعليم اللغة العربية الفصحى في المرحلة الابتدائية مبنيا على أحدث النظريات والتطبيقات العلمية الخاصة بتعليم اللغات، التي تفيد بأن القدرة الفطرية الهائلة لاكتساب اللغات عند الأطفال تبدأ قبل سن السادسة، وأنها تبدأ بالضمور بعد هذه السن (٩)، وأن الطفل يبتدئ باكتساب اللغة من خلال اتصاله بالبيئة الثقافية بصورة عفوية تقوم على التقليد والمحاكاة ثم يصير قادرا على إخراج الكلمات والجمل والتعبير بطريقة تلقائية (١٠). وبدأ الدكتور الدنان تطبيق نظريته تلك في بعض المدارس الخاصة ورياض الأطفال، حيث يمارس فيها الطالب اللغة العربية الفصحى لغة وحيدة

للتواصل في المدرسة طوال اليوم المدرسي بحيث لا يسمع الطالب في المدرسة إلا الفصحى ولا يقبل منه إلا الفصحى (١١).

ومن الأمور التي تعزز من استعمال الفصحى في مجال التعليم

- اختيار ألفاظ عامية قريبة من الفصحى بحيث يفهمها التلميذ، فالمعلم الناجح هو من يستفيد من لغة الكلام التي يأتي بها التلميذ إلى المدرسة، وهنا يمكن إحكام الصلة بين لغة التعليم ولغة التخاطب اليومي (١٢).
- استخدام طريقة التسكين في المستويات الأولى من التعليم؛ أي تسكين أواخر الكلمات، ما عدا الكلمات المبنية، فإنها تنطق بحسب حركة بنائها؛ لأنها تلزم حركة واحدة.
- أن تكون دراسة قواعد اللغة عملية أكثر مما هي نظرية من خلال اعتماد مهارات الاستماع والكلام لدى المتعلم في المراحل الأولى؛ ليكتسب من ذلك الجرأة الأدبية على التعامل بالعربية الفصحى (١٣).
- الاستفادة من التقنية العلمية الحديثة والوسائل التعليمية الفعالة في تعلم اللغة؛ حيث يكون دور المعلم ميسرا وموجها للتعلم، متسما بالكفاءة العلمية والتربوية اللازمة. وإن صفا نشيطا يقوده معلم ماهر يستطيع، بكل تأكيد، أن يعالج كل اعوجاج أو نقص في مستوى الطالب (١٤).
- استعمال اللغة العربية الفصحى في كل أنواع النشاط المدرسي، مثل: الطابور الصباحي، الصحافة والإذاعة المدرسية والتمثيل المسرحي والخطابة، والندوات.
- تحفيز التلميذ على القراءة الحرة خارج حدود المدرسة، من خلال ربط الطفل بالكتاب أو المجلة (١٥)، فهي بلا شك تزيد ذخيرته اللغوية وتمده بالمعاني والأفكار وتوسع أفقه وخياله.
- أن تسهم الأسرة في إشاعة الجو الثقافي داخل البيت من خلال توفير مكتبة خاصة للأطفال، واستخدام أسلوب القصص، وممارسة الألعاب اللغوية التي تسهم في تنمية مهارات الفصحى لديهم (١٦).
- إشاعة الفصحى في وسائل الإعلام، خصوصا البرامج الموجهة إلى الأطفال، وأن توطد علاقاتها بالمؤسسات التربوية والتعليمية من خلال الحفاظ على الفصحى ورفع مكانتها لدى الأجيال الحاضرة.

الهوامش

١- انظر: جمعة سيد يوسف، سيكولوجية اللغة والمرض العقلي، الكويت: عالم المعرفة، يناير ١٩٩٠م، ص٦١.

٢- انظر: عبدالعزيز الجلال، تربية اليسر وتخلف التنمية: مدخل إلى دراسة النظام التربوي في أقطار الجزيرة العربية المنتجة للنفط، الكويت: عالم المعرفة، يوليو ١٩٨٥م، ص٨٩-٩٠.

٣- انظر: حوار مع د. محمد الحملاوي، مجلة «الوعي الإسلامي»، العدد ٥١٦، شعبان ١٤٢٩، ص٢٦.

٤- انظر: عبدالعزيز الجلال، مرجع سابق، ص٧٠-٧١.

٥- انظر: سميح أبومغلي، التدريس باللغة العربية الفصيحة لجميع المواد في المدارس عمان -دار الفكر، الطبعة الأولى، ١٩٩٧م، ص٨-٩

٦- انظر: تجربة الدكتور عبدالله الدنان مع خمسين طفلا للقراءة والتلخيص في إحدى المدارس الابتدائية التي يشرف عليها، حيث وجد في نهاية العام أن أقل طالب قرأ ٣٦ كتابا، أما الأول فقد قرأ ولخص ٢٨٤ كتابا، (موقع طريق الدعوة).

٧- انظر: ندوة «أسباب تدهور استعمال اللغة العربية»، موقع: minbar@aljazeera.net، تاريخ الحلقة: ٢٠٠٩/٢/٢٢م.

٨- أشار إليها د. حسين نصار في تحقيقه لمعجم تيمور الكبير في الألفاظ العامية، القاهرة: دار الكتب ج١، ص٩-١٠.

٩- انظر: جمعة سيد يوسف، مرجع سابق، ص٤٩-٥٠.

١٠- انظر: هادي الهيتي، ثقافة الأطفال، الكويت: عالم المعرفة، مارس ١٩٨٨م، ص١٤٢-١٤٤.

١١- أشير إليها في العدد ٥٩٦ ربيع الآخر ١٤٣٦هـ من مجلة الوعي الإسلامي، «نظرية جديدة لتعليم الفصحى» ص٥٨، وله بحث سابق بعنوان «إعداد المعلم وتدريبه على تعليم اللغة العربية الفصحى في المرحلة الابتدائية» مقدم إلى ندوة تعليم اللغة العربية في المرحلة الابتدائية: الواقع والتطلعات المنعقدة في ذي القعدة ١٤٢٠هـ، بالمملكة العربية السعودية.

١٢- ينظر: علي النعيمي، الشامل في تدريس اللغة العربية، دار أسامة الأردن - عمان، ط١، ٢٠٠٤م، ص١٤٢.

١٣- انظر: سميح أبومغلي، مرجع سابق، ص٥٢.

١٤- انظر: انجيلا ميديسي، التربية الحديثة، ترجمة علي شاهين، بيروت: منشورات عويدات، ١٩٦٥م، ص١٢٩.

١٥- وهنا لابد من الإشادة بملحق مجلة «الوعي الإسلامي» (براعم الإيمان) ودورها المتميز في هذا المجال، حيث تمثل وجبة شهية ينتظرها الأطفال نهاية كل شهر.

١٦- هناك رسالة بعنوان «فاعلية استخدام الألعاب اللغوية في تنمية مهارات التعبير الشفهي الإبداعي لدى تلاميذ المرحلة الابتدائية» للدكتور راضي فوزي حنفي.

قصة قصيرة

الرسالة

محمد عباس
كاتب مصري

بدت السماء لمسعود منبثقة من بين الأبنية الإسمنتية المحيطة، مكسوة بطلاء ضوئي سحري، ينبض بسكينة حالمة، تليق بالموقف الذي يحيط به، تمنى لو يزيح تلك الأبنية، ليتسع له مجال الرؤية، يرى باب السماء كما لم يره من قبل. حدق في وجه الشمس، تساءل: هل يمكن أن تموت، وإذا ماتت كم عدد المشيعين الذين سيتبعون جثمانها إلى مثواه؟

ها هي الأقدام من حوله تمضي، أعداد مهولة من الوجوه العابسة، تتحرك في بطء وبلا تدافع، بينما الموت يسير الهوينا أمامهم.

تفجرت خواطره بين عينيه، سحبته من الموقف حوله، جرفت معها هدوءا كان يتوارى خلفه عن أعين الخلق، كونه غريبا هنا وسط غرباء، يحتم عليه أشياء بعينها، عليه ألا يندفع إلى خصومة قد تجره إلى عراك، العراك قد يضطره إلى سماع ما لا يطيق سماعه، لذا فقد وضع نصب عينيه أن يتوارى خلف هدوء، يبدو للعيان طيبة أو تسامحا، أو هو سيماء صلاح، يبتعد به عما لا يعنيه، مركزا اهتمامه فقط في حانوته الصغير الذي يرتزق عن طريقه، والمسجد القريب الذي يؤدي فيه صلواته، ثم بيته الذي يغلقه دوما، قانعا من معرفة الناس حوله بسلام عابر، أو كلمة طيبة لا أكثر، وقد قبل من الأيام تلك الحالة راضيا بحياته كرجل على الهامش، إلى أن مات اليوم رمضان، شيخ الجامع الكبير.. أغلق حانوته فورا، توجه إلى المسجد للصلاة عليه، ثم مرافقة جثمانه إلى مثواه. البلدة كلها هوت أفئدتها إلى المسجد، ثم تبعته إلى المقابر، أعداد رآها مسعود وهو يمضي حاملا شيب نظراته، ووهن خطواته، فتفجرت في صدره براكين خواطر، أغرقت هدوءه، وتركته في جحيم من الحروف المصهورة التي تأكل قلبه بأنياب حداد، فتح عينيه على ما لم يطف بخياله من قبل، سائلا نفسه:

– كم عدد المشيعين لجثمانك لو مت اليوم؟

أشاح بوجهه محاولا الإفلات من إلحاح السؤال على رأسه، ارتفع رنينه أكثر، تردد صداه في أروقة دماغه، ورأى جثمانه يسير هزيلا، وبضعة أشخاص لا يكادون يشدون البصر أو يملأون العين، يسيرون خلفه، أغرقت بحار الأسى عينيه وهو ينعى نفسه متحسرا على حاله، سيذهب إلى الآخرة غريبا كما عاش طوال حياته. هل يبالي أهل الآخرة بكثرة عدد المشيعين للميت، وهل تكون مكانته بينهم مرتبطة بهذا العدد؟

أدار عينيه في الخلق حوله، رؤوس مبذورة في أديم الأرض، كبرت وترعرعت لتسير خلف جثمان رمضان شيخ الجامع الكبير، تودعه في ود غامر ليدخل إلى الآخرة مفاخرا بعدد مشيعيه، كيف له وهو الغريب الذي لا يعرفه إلا من يتعامل معه – وهم قليل – أن يناجي الأرض لكي تنبت رؤوسا مثل تلك لتسير خلفه؟

تكورت الدموع في عينيه، صنعت أمواجا هادرة، ودوامات ما لها من قرار، رأى جثمانه من جديد ملقى على الأرض، لا يجد من يحمله، امرأته وحيدة بالطريق تبكي رجلها الذي لا يجد من يتعطف ويسير خلفه إلى حيث يواريه التراب.. من خلف الدموع المتأججة في عينيه رأى المرئيات من حوله كائنات هلامية، تتحرك في متاهة الأرض.. ظلال تتحرك أو هي أقنعة ترتديها الأرواح، ثم ما تلبث أن تخلعها بعد أداء دورها على مسرح الحياة، لفتت انتباهه بين تلك المرئيات حروف ذهبية مكتوبة على لوحة معلقة على مدخل حانوت قريب، سقطت عليها أشعة الشمس، فأخذت تشد الأعين المارة برونقها، مسح وجهه بباطن كفه، قرأ:

من يفعل الخير لا يعدم جوازيه

لا يذهب العرف بين الله والناس

حدقت عيناه في الكلمات، كأنما يتعرف عليها من الحطيئة لأول مرة، اللوحة تبدو أعلاها سماء صافية الأديم، تحت السماء تلك الكلمات، وتحت الكلمات مباشرة صحراء قاحلة، اصفرارها لامحدود، إلى جانب منها تنزوي نخلتان متجاورتان، يسير تحت ظلهما رجل وحيد، يحمل بيده اليسرى عصا يتوكأ عليها، واليمنى ممسكة بطرف مخلاة من القماش، ملقاة على ظهره المحني قليلا إلى الأمام.. عاد مسعود يمسح عينيه بقوة، يواصل التحديق في اللوحة، يشعر أنه ذلك الرجل السائر وحده وسط الصحراء، حاملا مخلاته في سكينة القانع بأحواله وطول سفره، أن تلك الكلمات هي رسالة هبطت عليه من السماء، رسالة فيها مهمة محدد عليه أن يقوم بها، وإجابة شافية على تساؤله الذي لم يبح به لمخلوق.. عاد للبكاء، لكنه هذه المرة حمدا للذي لم يتركه رغم غربته، ورغم سيره وحيدا في صحراء الوجود.

أحمد شاكر الكرمي

(١٣١٢-١٣٤٦هـ = ١٨٩٤-١٩٢٧م)

د.محمود خلف
باحث في الدراسات الأدبية

هو: أحمد شاكر بن سعيد الكرمي. من أسرة علم وأدب، كاتب صحافي، رشيق الأسلوب دقيق التعبير. تعلم بالأزهر في القاهرة، واشتغل بالصحافة، وأحسن الإنجليزية.

ولد أحمد شاكر الكرمي بن الشيخ سعيد الكرمي، وشقيق الشاعر عبدالكريم الكرمي - أبي سلمى - في مدينة طولكرم، مركز قضاء بني صعب في فلسطين، سنة ١٨٩٤م كما هو مذكور في سجل الأحوال المدنية بدمشق.

تلقى علومه في المرحلة الابتدائية في مدارس طولكرم ثم ولى وجهه شطر القاهرة ليرتشف العلوم والمعارف من معين الأزهر الشريف، وصحبه في رحلته إلى مصر والانتساب للأزهر أخوه محمود الكرمي. وقد جاء في وثيقة بتوقيع الشيخ عيسى منون شيخ رواق الشوام بالأزهر مؤرخة ٥ رجب ١٣٤٢هـ ما يلي: «بالكشف من سجلات رواق الشوام بالأزهر الشريف تبين أن الشيخ أحمد شاكر نجل الشيخ سعيد الكرمي من أهالي طولكرم التابعة لنابلس بفلسطين جاء إلى الجامع الأزهر الشريف، وانتسب برواق الشوام بتاريخ ١١ شوال سنة ١٣٣١هـ واستمر إلى ٩رجب سنة ١٣٣٦هـ».

أصل أسرته من اليمن، يقول الزركلي: وسألت والده عن أصلهم، فكتب لي ما يأتي: «أصلنا من عرب اليمن الذين جاءوا لفتح مصر مع عمرو بن العاص، ولما فتحت مصر وقسمت أرضها على الغانمين بأمر عمر بن الخطاب رضي الله عنه خرج سهمهم في إقليم الشرقية الذي سكنه عدة قبائل لم يزالوا معروفين، والبلدة التي سكنها أهلنا اسمها «شنبارة»، وبما أنه يوجد هناك قريتان بهذا الاسم فتميزت قريتنا باسم «شنبارة الطنينات» (١) ولم يزل أقاربنا فيها للآن، وهم سادتها، ويعرفون ببيت الدحار، وأول من جاء منهم لبلاد فلسطين جد والدي، نزح كما نزح غيره من أهالي قرى مصر لأسباب اختلفوا فيها، فمن قائل: إن نقص النيل عن إرواء الأراضي هو السبب، ومن قائل: إن التكاليف التي طلبها منهم محمد علي باشا هي التي ألجأتهم للهجرة» (٢).

أمضى الأخوان في الدراسة وطلب العلم في رحاب الأزهر نحوا من سبعة أعوام، وعندما نشبت الحرب العالمية الأولى ١٩١٤م وتعذر الاتصال بين مصر وفلسطين سافر أحمد شاكر إلى الحجاز ليحرر في جريدة «القبلة» التي كانت تصدر في مكة المكرمة يومئذ بناء على اختيار الكاتب العربي الفذ والمجاهد الحر الأستاذ محب الدين الخطيب له بالذات لمعاونته في تحرير الجريدة سنة ١٣٣٦هـ / ١٩١٧م. وقد أمضى الكرمي في الحجاز سنة واحدة عاد بعدها إلى القاهرة وعمل محررا في جريدة «الكوكب» الأسبوعية والتي كان يحررها محمد القلقيلي.

أقبل على دراسة اللغة الإنجليزية حتى أجادها، وعاد بعد ذلك إلى مدينته طولكرم فمكث بها فترة وجيزة سافر بعدها إلى دمشق في صحبة والده الذي كان يومئذ نائبا لرئيس المجمع العلمي هناك.

في سنة ١٩٢١م أسهم في تكوين أولى الجماعات الأدبية في سوريا وهي التي سميت باسم الرابطة الأدبية، وفي تحرير مجلتها التي سميت باسمها، ثم تولى تحرير مجلة الفيحاء سنة ١٩٢٣م. وفي سنة ١٩٢٥م أنشأ مجلة الميزان التي عاشت عامين ١٩٢٥م و١٩٢٦م.

اتصل من خلال عمله بالأدباء العرب في مصر والمهاجر، وجرت بينه وبينهم مراسلات، وكان يوقع مقالاته بأسماء متعددة أشهرها قدامة. تزوج ولم ينجب ثم داهمه مرض السل ومات على إثره.

أدبه

أحمد شاكر الكرمي أديب فذ، وكاتب

نابغة، وناقد شجاع، ومترجم مجيد، واسع الثقافة، متنوع المعرفة، كتب العديد من الأبحاث والمقالات في الأدب والنقد. وقد ظفر بنصيب موفور من الشهرة التي تجاوزت حدود بلاده، ونوه به وبأدبه وبموهبته عدد من الأعلام الذين أطروا فكره، وقرظوا هذا الفكر ومدى ملاءمته لروح العصر.

من أول الآثار الأدبية التي خلفها «الكرميات»؛ وهي مجموعة من المقالات تناولت ثلاثة عشر موضوعا في الأدب والتاريخ والفلسفة والأخلاق والاجتماع والترجمة، وقد نشرها الأستاذ محيي الدين رضا في القاهرة سنة ١٩٢١م، وكتب لها مقدمة قرر فيها أن الكرميات تهدف إلى ثلاثة أغراض:

ترقية اللغة الكتابية؛ ويظهر ذلك جليا من أسلوبها المنسجم الذي يميل إلى السهولة والمتانة، فقد طارد كاتبها الأساليب القديمة.

التهذيب الخلقي؛ فقد علم صاحب الكرميات أن النفوس أصبحت مقفرة من المكارم، نفورة عن الفضائل، تعشقت الشرور، وركبت لها كل مركبة. فأبرز لنا حقائق لو اتبعها الناس لاستراحوا وأراحوا، وانصرفوا إلى الخير... ومن أقواله: «إن هذه الدنيا ما هي إلا مسرح تعرض عليه الأعمال كما هي، والناس يتلقفون ما يرونه ذا صلة بنفوسهم».

مدحه أديب العربية محمد إسعاف النشاشيبي، بقوله: «النابغ، الناقد، مازني الشام، وعقاده». وفي سنة ١٩٦٤م كتب الأستاذ فؤاد الشايب مقدمة طويلة لكتاب أحمد شاكر الكرمي الذي أصدرته وزارة الثقافة والإرشاد القومي، مديرية التأليف والترجمة، قال فيها عن الكرمي ما يلي: «عربي النفس والطبيب، أزهري الدراسة والتربية، إنساني الثقافة والشوق بما تيسر له من اطلاع على الأدب الغربي عن طريق إتقانه اللغة الإنجليزية. هذه هي ملامح الصورة التي صعدت حولها أنظار الدمشقيين، وعلقت بها عام ١٩٢٠م عندما حط على روضهم هذا الطائر العربي النادر صاحب الجناحين الملوين والمنقار الكاسر، لم يكن فلسطينيا، ولا حجازيا ولا مصريا، ولا شاميا. هذا الفتى العربي الجريء الذي ما لبث أن تصدر صحن الدار الشامية، وكأنه ولد فيها مع ليمونتها، أو نقش كبيت شعر على صدر قاعتها...».

ويقول الباحث علي مواسي: «يعتبر أحمد شاكر الكرمي من الشخصيات الثقافية والأدبية والبحثية التي تركت أثرا مهما في الساحة الفلسطينية السورية قبل نكبة عام ١٩٤٨م، وذلك بما قدمه من إسهامات لافتة وجدية في حقلي النقد الأدبي والترجمة تحديدا. فعلى الرغم من أن الحركة النقدية في فلسطين - سوريا، شأنها في ذلك الزمان شأن النقد في سائر العالم العربي، لم يقدها نقاد متخصصون في هذا الحقل، إنما كان كتاب النقد في غالبيتهم من المشتغلين في حقول الثقافة والأدب العامة، إلا أن الكرمي استطاع أن يقدم نموذجا للناقد المتخصص الموضوعي الباحث، الأمر الذي دفع حسام الخطيب إلى اعتباره (بالمعنى الدقيق لكلمة نقد).. أول ناقد متخصص في الحياة الأدبية الفلسطينية الحديثة».

نظراته

في الكتاب الذي أصدرته مديرية الترجمة بوزارة الثقافة والإرشاد القومي في الجمهورية العربية السورية سنة ١٩٦٤م قسم أبوسلمى آثار أخيه أحمد شاكر إلى الأقسام السبعة الآتية:

١- مفكرة المحرر.
٢- آراء أحمد شاكر الكرمي.
٣- المعرض العام.
٤- النقد.
٥- الشعر الغربي.
٦- القصص.
٧- أقوال ورسائل.

● نموذج من أدبه:

قال أحمد شاكر الكرمي في إهداء كتابه «الكرميات» إلى الأستاذ محيي الدين رضا: «ما الملك العظيم في سلطانه، والظالم المستبد بين حراسه وأعوانه، والغني الكبير بين غلمانه، إلا مظاهر باطلة من مظاهر الحياة. وقد درج الناس منذ القدم على أن يحرقوا ذكاءهم بخورا أمام هذه الجنائز الثلاث، أما أنا فإن لي طريقا آخر أسير فيه. لا أهدي كتابي للملوك والظلام لأنني أبغضهم. ولا أقدمه للأغنياء والمترفين لأنني أحتقرهم، ولكني أرفعه لك يا محيي الدين يا صديقي العزيز ليكون ذكرى لصداقتنا الوثيقة واعترافنا بأدبك وفضلك».

آثاره

● خالد: رواية مترجمة عن الإنجليزية للقصصي الأميركي ماريون كراوفورد (١٩٢٣م).
● الكرميات: مجموعة مقالات وقصص - القاهرة - (١٩٢١م).
● مجلة الميزان: (١٩٢٥-١٩٢٦م).
● مذكرات بكويك: رواية مترجمة عن الإنجليزية نشرت تباعا في مجلة الميزان.
● مي، أو الخريف والربيع: رواية مترجمة عن الشاعر الإنجليزي جيوفري تشوسر (١٩٢٢م).

وفاته

في التاسع من تشرين الأول/أكتوبر سنة ١٩٢٧م انطفأت شعلة حياته، ودفن في مقبرة «باب الصغير» بدمشق، وكتب على قبره: «هنا يرقد أحمد شاكر بن الشيخ سعيد الكرمي، مات غريبا إلا من إخوانه، وتحت هذه الكلمة كتب هذان البيتان من الشعر، للشاعر السوري المشهور محمد البزم:

ثوى تحت هذا الثرى أحمد
فأشعل في القلب نيرانه
وأسرع يبغي رضا ربه
وتاريخه ود غفرانه

الهوامش

(١) ورد اسمها في كتاب «قوانين الدواوين» وكتاب «تحفة الإرشاد» باسم «شنبارة الطنانات»، وتعرف حاليا باسم «الصوة» بمركز أبوحماد بمحافظة الشرقية، محمد بك رمزي، القاموس الجغرافي للبلاد المصرية: (٧٨/٢).
(٢) الأعلام: (١٣١/٧).

عثرات الأقلام (٤)

التحرير

رأت مجلة «الوعي الإسلامي» إعادة نشر السلسلة الماتعة من «عثرات الأقلام» المسطرة بين طيات مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق، والتي تهدف إلى نقد ما تهفو به أقلام بعض الكتاب فيما يكتبونه ويحبرونه.
واجتهد المجمع في الاقتصار على ما ظنه خطأ من القول، مما لا يحتاج فيه إلى الرد والمناقشة، تفاديا للمجادلات والمناقشات التي طالما كانت سببا في خفوت الأصوات، وموت المشروعات. وزيادة في تجنب أسباب الجدل والمناقشة، اكتفى المجمع بنقد القول دون ذكر اسم كاتبه أو الصحيفة التي كتب فيها.
سائلين الله عزوجل أن يقع هذا العمل موقع الرضا والقبول، فيتدبروا هذه الملاحظات، ويراعوا العمل بها كلما سنحت في كتاباتهم، إذ ليس الغرض من ذلك كله إلا خدمة اللغة العربية الكريمة، وإحياء فصيح تراكيبها وبليغ أساليبها، والله الموفق والمعين.

أخذنا ننشر من عهد قريب تحت هذا العنوان بعض الأغلاط الشائعة في الكتابات العصرية مما نطلع عليه في الجرائد وغيرها، مع الإشارة إلى وجوه تصحيحها، مقتصرين في ذلك على ذكر ما كان منها صريحا لا يقبل التخريج أو التأويل، وما كان جوهريا لا عرضيا؛ تفاديا من المناقشات التي لا تجدي نفعا، وخوفا من أن يفوتنا ما نقصده من إقبال الكتاب على تصحيح كتاباتهم من دون أن يتمحلوا الحجج والأعذار لإصلاح بعض ما نبهنا عليه من تلك العثرات.

غير أنه من موجبات الأسف أن كثيرين من أولئك الكتاب لم يزالوا يكررون تلك الأغلاط بعد التنبيه عليها، كأنه يعز عليهم الإقلاع عما تعودوه من الخطأ والركاكة والعادة طبيعة ثانية، أو كأنهم يفضلون الاستمرار على الغلط أنفة واستكبارا ومكابرة في الحقائق. وهذا الإهمال أو التهاون، وإن كان من المثبطات، لا يمنعنا من متابعة عملنا والمثابرة عليه إلى أن نرى كتابنا آخذين في تقويم أود كتابتهم وتنزيهها عن شوائب الأوهام. ومما يشجعنا على ذلك أن كثيرين من أهل العلم والفضل نشطونا باستحسانهم صنيعنا، وبعض الكتاب قد استفادوا من انتقاداتنا فهذبوا ألفاظهم وصححوا عباراتهم، وبعض الأدباء رغبوا في اتباع مثالنا والنسج على منوالنا، فنشروا على صفحات الجرائد بعض الأغلاط، وأشاروا إلى وجوه تصحيحها، وهو عمل ممدوح، لأنه يدل على شغفهم بهذه اللغة الشريفة وغيرتهم عليها، فنحن نثني عليهم، ونتمنى أن يكثر أمثالهم في الوطن العزيز، لكننا نستأذنهم في إيراد الانتقادات الآتية:

١- إنهم اتخذوا لانتقاداتهم العنوان الذي اتخذناه نحن، وهذا ما يدعو إلى الالتباس، حتى يعسر على القارئ التمييز بين ما ننشره نحن وما ينشرونه هم، ويعرض المجمع العلمي إلى أن ينسب إليه ما لم يكن موافقا عليه. وقد كان في إمكان أولئك الأدباء أن يتخذوا لانتقاداتهم عنوانا آخر؛ دفعا للالتباس، لأن الألفاظ الدالة على هذا المعنى كثيرة. والعجيب أن أحدهم زاد على عنواننا لفظة الألسنة، ولم نر سببا لتلك الزيادة إلا إذا كان يظن أن عثرات الأقلام غير عثرات الألسنة، والذي نظنه نحن أن من يصحح عثرات قلمه يصحح عثرات لسانه.

٢- إنهم كرروا تصحيح بعض الأغلاط التي نبهنا عليها وصححناها، وما عهد ذلك ببعيد فينسى، فكأنهم لم يطلعوا على ما نشرناه أو اطلعوا عليه وتجاهلوا لسبب لا نعلمه.

٣- إنهم أنكروا على الكتاب استعمال ألفاظ وتراكيب صحيحة كـ«عوائد» في جمع «عادة»، و«صنائع» في جمع «صناعة»، وكتعدية «أحس» بالباء.. وغير ذلك مما لا ينكر استعماله. أما «عوائد» فقد نص على صحتها في كتب اللغة، قال في «تاج العروس»: ومن جموع العادة عوائد، ذكره في «المصباح» وغيره، وهو نظير «حوائج» في جمع «حاجة» (أ.هـ). فالظاهر من هذا النص أن هذا الجمع منقول من العرب؛ لثبوته عند أئمة اللغة. وقد ورد استعماله في كتابات البلغاء، قال ابن خلدون في مقدمته: «العوائد ترسخ بكثرة التكرار».

وأما «صنائع» فهي جمع «صناعة» على القياس، كما يتبين ذلك من مراجعة أقوال العلماء، قال أبوعلي الفارسي في كتاب «الإيضاح»: إن ما كان على وزن «فعالة»

(أي مثلث الفاء) يجمع سالما ومكسرا، فيقال في جمع: «ذؤابة وسحابة ورسالة ذؤابات وذوائب وسحابات وسحائب ورسالات ورسائل». وجاء مثل هذا القول في كتاب «التسهيل» لابن مالك وكتاب «شرح الألفية» للأشموني. والمستفاد من ذلك أنه يجوز أن تجمع «صناعة» على «صنائع» كما نص على ذلك في بعض المعاجم، وقد وردت هذه اللفظة أيضا في مقدمة ابن خلدون مئات من المرار، كقوله: إن الأمصار إذا قاربت الخراب انتقضت منها الصنائع، لما بينا أن الصنائع إنما تستجاد إذا احتيج إليها.

وأما تعدية «أحس» بالباء فقد نص عليها القاموس قال: أحس الشيء بالشيء علمه وشعر به.

ومما أنكره أحدهم على الكتاب قولهم: «ما كان لي أن أقول لك». وصححه بقوله: «ما يكون لي أن أقول لك»، أو «ما يصح لي».

واستشهد بقول القرآن: ﴿سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ﴾ (المائدة:١١٦). ومفاد ذلك أن استعمال الماضي بدلا من المضارع في مثل هذا التعبير خطأ. ولا نرى وجها لهذه التخطئة؛ لأنه إذا قال زيد لعمرو: «لم لم تخبرني بالأمر حين زرتني بالأمس؟». وأجابه عمرو: «ما كان لي أن أخبرك به قبل اليوم»، أي ما صح لي، أو ما جاز لي، كان التعبير صحيحا لا غبار عليه على أنه يجوز استعمال الماضي في موضع المضارع في مثل هذا المقام، وقد ورد ذلك في القرآن الكريم مرارا عديدة كقوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ﴾ (التوبة:١١٣)، وقوله أيضا: ﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُواْ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ﴾ (التوبة:١٢٠)، وقوله: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ﴾ (الأنفال:٦٧)، وقوله: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا﴾ (الشورى:٥١). والمعنى في هذه الآيات وأمثالها: ما يصح، وما ينبغي، وما يجوز؛ وذلك دليل واضح على جواز استعمال «كان» في موضع «يكون» في الجملة المعترض عليها. وأما قول المعترض: ولك أن تقول أيضا ومعناه يقرب من معنى ما سبق «لم أكن لأقول لك، وما كنت لأقول لك» ففيه نظر؛ لأن المعنى في هذه الجملة نفي القول، والمعنى في الجملة السابقة نفي جواز القول، والفرق بين المعنيين بعيد، فلا يصح أن يعبر عن أحدهما بما يعبر به عن الآخر، فالمأمول في أدبائنا ألا ينشروا انتقادا من دون تحقيق، ولا يتطرفوا في انتقاداتهم إلى حد أنهم يمنعون استعمال الجائز في اللغة، لأن هذا المنع مضر بها كتجويز الممنوع، فكما أن استعمال الخطأ يفسدها كذلك ترك الصواب يضيق نطاقها ويثبط عزائم الكتاب ويغل أيديهم.

هذه انتقاداتنا أوردناها بالإخلاص، ولم نقصد بها المناظرة أو المناقشة، وإنما قصدنا بيان الحقيقة وإثبات الفائدة والله المسؤول أن يرشدنا جميعا إلى محجة الصواب.

● ومن عثراتهم قولهم: «وقد أعرب الحاكم عن حسن نواياه نحوهم»، صوابه: «عن حسن نياته»؛ لأن «نية» تجمع على «نيات» لا نوايا.

● ومنها قولهم: «وقد دعا الوزير ذوات البلد وكلمهم في الأمر»، صوابه: «وجهاء البلد وأعيان البلد». و«ذوات» جمع «ذات»، وإن كانت بمعنى نفس الشيء لم ترد بمعنى الوجهاء أو الأعيان في كلام الفصحاء.

● ومنها قولهم: «كما وأن هذه المسألة نالت استحسانا من الجميع»، صوابه: «كما أن» بحذف الواو إذ لا معنى لزيادتها في هذا المقام.

● ومنها قولهم: «لابد من السعي لأجل نوال هذه الأمنية»، صوابه «لأجل نيل هذه الأمنية»، أما «النوال» فمعناه «العطية والعطاء».

● ومنها قولهم: «ولم تظهر بعد نتيجة هذا التطاحن». لا معنى للتطاحن هنا وصوابه: «التقاتل، أو التصاول، أو التجاول».

● ومنها قولهم: «أي متى تنفرج الأزمة»، صوابه: «متى تنفرج» أو «إيان تنفرج» فهما للاستفهام عن الزمان المستقبل، أما «أي» فللاستفهام مطلقا، و«متى» تفيد الاستفهام بنفسها، فلا معنى لدخول أداة استفهام على أخرى.

ومنها قولهم: «أجال طرفه إلى الناس»، صوابه «أجال (أي أدار) طرفه ونظره فيهم» لا إليهم.

● ومنها قولهم: «باشروا بالإحصاء منذ أمس»، صوابه: «باشروا الإحصاء» من دون باء.

● ومنها قولهم: «سوف لا يهملون مصلحة البلاد». سوف والسين كالجزء من الفعل فلا يفصل بينهما بفاصل، فالواجب أن يقال: «سوف يهملون» (في الإثبات)، و«لا يهملون» (في النفي)، وإذا أريد تأكيد الاستقبال مع النفي قيل: «لن يهملوا» فهو نفي واستقبال معا.

● ومنها قولهم: «وهو من المحكومين بالسجن المؤبد»، صوابه: «من المحكومين عليهم»؛ لأنه يقال: «حكم عليه القاضي» لا «حكمه القاضي».

ومنها قولهم: «وقد أصبحت القلوب تشعر رحمة وحنانا على البؤساء»، صوابه: «تشعر برحمة وحنان»؛ لأن فعل «شعر» يتعدى بحرف الجر لا بنفسه.

● ومنها قولهم: «وقد شجب دولة الحاكم هذا الرأي وصوب الرأي الأول»، بمعنى «أهلكه وأحزنه»، ولا تكون بمعنى «قبحه وعابه»، كما يستعملها بعض الكتاب.

«الإنصاف في معرفة الراجح من الخلاف»

على مذهب الإمام المبجل أحمد بن حنبل

للقاضي علاء الدين علي بن سليمان المرداوي (ت: ٨٨٥هـ)

التحرير

كتاب «الإنصاف»، جليل القدر عظيم الفائدة، وإذا كان الخلال – رحمه الله– هو جامع كتب الرواية عن الإمام أحمد؛ فإن علاء الدين المرداوي جمع ما وقع له من كتب الرواية، ومن الكتب الجامعة لها، ومن كتب المتون في المذهب، وما لحقها من الشروح والحواشي والتعاليق والتخاريج والتصحيح والتنقيح، وربطه بكتاب «المقنع» لابن قدامة، الذي يعد قاعدة انطلاق لمسائله، ثم أتبعها في كل باب ما فاته، وضم إليه من الفوائد، والتنبيهات، وثمرات الخلاف في المذهب وغيره، ما تقر به عين الفقيه، ويبهر المتبحر، فضلا عن الطالب المتعلم؛ فصار كتاب «الإنصاف»، بهذا الاعتبار، مجددا للمذهب، جامعا لشمله، مصححا ومنقحا لرواياته وتخاريجه؛ حتى أغنى عن سائر كتب المذهب قبله أو كاد. وكتاب «الإنصاف» بالنسبة إلى روايات المذهب؛ يعتبر مثل كتاب: «جامع الأصول» و«كنز العمال» في السنة، بجمع الروايات ومن خرجها؛ فصار بهذا ديوان المذهب، ويصح أن يطلق عليه مكنسة المذهب في الروايات، كما أطلق على كتاب الفروع: مكنسة المذهب؛ أي من حيث الفروع (١).

مقتطفات من تقريرات المرداوي في مقدمته البديعة

بين الإمام المرداوي – رحمه الله – في مطلع مقدمته سبب تأليف كتابه، وتعلقه بغيره؛ فقال ما فائدته:

«إن كتاب «المقنع في الفقه» لموفق الدين ابن قدامة المقدسي، من أعظم الكتب نفعا، وأكثرها جمعا، وأوضحها إشارة، وأسلسها عبارة، وأوسطها حجما، وأغزرها علما، وأحسنها تفصيلا وتفريعا، وأجمعها تقسيما وتنويعا، وأكملها ترتيبا، وألطفها تبويبا. قد حوى غالب أمهات مسائل المذهب، فمن حصلها فقد ظفر بالكنز والمطلب. إلا أنه أطلق في بعض مسائله الخلاف من غير ترجيح؛ فاشتبه على الناظر فيه الضعيف من الصحيح؛ فأحببت – إن يسر الله تعالى – أن أبين الصحيح من المذهب والمشهور، والمعمول عليه والمنصور، وما اعتمده أكثر الأصحاب وذهبوا إليه، ولم يعرجوا على غيره ولم يعولوا عليه».

ثم أوضح أن ابن قدامة في كتابه المقنع؛ له اصطلاحات وإطلاقات ينبغي معرفة ما ترمز إليه، حتى تتسنى الفائدة من الكتاب، وقد طول في هذا الفرع لجليل الفائدة المرجوة منه، ومن ذلك قوله:

المصنف – رحمه الله تعالى – يكرر في كتابه أشياء كثيرة، عبارته فيها مختلفة الأنواع، فيحتاج إلى تبيينها، وأن يكشف عنها القناع. فإنه تارة يطلق «الروايتين» أو «الروايات» أو «الوجهين» أو «الوجه» أو «الأوجه» أو «الاحتمالين» أو «الاحتمالات» بقوله: «فهل الحكم كذا؟ على روايتين، أو على وجهين، أو فيه روايتان، أو وجهان، أو احتمل كذا واحتمل كذا» ونحو ذلك؛ فهذا وشبهه الخلاف فيه مطلق. والذي يظهر أن إطلاق المصنف وغالب الأصحاب ليس هو لقوة الخلاف من الجانبين، وإنما مرادهم حكاية الخلاف من حيث الجملة؛ بخلاف من صرح باصطلاح ذلك، كصاحب الفروع، ومجمع البحرين وغيرهما.

وتارة يطلق الخلاف بقوله مثلا: «جاز، أو لم يجز، أو صح، أو لم يصح، في إحدى الروايتين، أو الروايات، أو الوجهين أو الوجوه»، أو بقوله: «ذلك على إحدى الروايتين، أو الوجهين»، والخلاف في هذا أيضا مطلق، لكن فيه إشارة ما إلى ترجيح الأول.

وتارة يذكر حكم المسألة مفصلا فيها، ثم يطلق روايتين فيها، ويقول: «في الجملة» بصيغة التعريض؛ أو يحكي بعد ذكر الحكم إطلاق الروايتين عن الأصحاب، ويكون في ذلك أيضا تفصيل، فنبينه إن شاء الله تعالى.

وتارة يقول بعد ذكر حكم المسألة: «في رواية»؛ أو يقول: «في وجه»؛ ففي هذا يكون اختياره في الغالب خلاف ذلك، وفيه إشعار بترجيح المسكوت عنه، مع احتمال الإطلاق.

وتارة يحكي الخلاف وجهين، وهما روايتان، وقد يكون الأصحاب اختلفوا في حكاية الخلاف؛ فأذكر ذلك إن شاء الله تعالى.

وتارة يذكر حكم المسألة، ثم يقول: «وقيل عنه كذا»؛ أو: «وحكي عنه كذا»؛ أو: «وحكي عن فلان كذا»؛ بصيغة

التعريض في ذلك، وقد يكون بعضهم أثبته لصحته عنده فتبينه.

وتارة يحكي الخلاف في المسألة، ثم يقول: «قال فلان كذا» بغير واو. ولا يكون ذلك في الغالب إلا موافقا لما قبله؛ لكن ذكره لفائدة؛ إما لكونه أعم، أو أخص من الحكم المتقدم، أو يكون مقيدا أو مطلقا، والحكم بخلافه ونحوه.

وتارة يقول بعد ذكر المسألة: «في ظاهر المذهب. أو وظاهر المذهب كذا. أو في الصحيح من المذهب. أو في الصحيح عنه. أو في المشهور عنه»؛ ولا يقول ذلك إلا وثم خلاف، والغالب: أن ذلك كما قال. وقد يكون ظاهر المذهب. والصحيح من المذهب عنده دون غيره. و«ظاهر المذهب» هو المشهور في المذهب.

وتارة يقول: «في أصح الروايتين، أو الوجهين، أو على أظهر الروايتين، أو الوجهين»، ولا تكاد تجد ذلك إلا المذهب، وقد يكون المذهب خلافه، ويكون الأصح والأظهر عند المصنف ومن تابعه.

وتارة يطلق الخلاف، ثم يقول: «أولاهما كذا»؛ وهذا يكون اختياره، وقد يكون المذهب.

وتارة يقول بعد حكايته الخلاف: «والأول أصح، أو وهي أصح»؛ ويكون في الغالب كما قال، وقد يكون ذلك اختياره.

وفي بيانه أمر اختلاف الرواية عن الإمام أحمد قال رحمه الله:

إذا روي عن الإمام أحمد رواية، وروي عنه: أنه رجع عنها، فهل تسقط تلك الرواية ولا تذكر، لرجوعه عنها، أو تذكر وتثبت في التصانيف؟ وعمل الأصحاب على ذكرها، وإن كان الثاني مذهبه.

وقد توقف عند مسألة قوة الخلاف، وتكافؤ الأقوال من حيث المآخذ والأدلة؛ فقال:

إذا كان الخلاف في المسألة قويا من الجانبين ذكرت كل من يقول بكل قول، ومن قدم وأطلق، وأشبع الكلام في ذلك. وإن كان المذهب ظاهرا أو مشهورا، والقول الذي يقابله ضعيفا أو قويا، ولكن المذهب خلافه، أكتفي بذكر المذهب وذكر ما يقابله من الخلاف، من غير استقصاء في ذكر من قدم وأخر.

ثم سرد مجردة طويلة للكتب والمصادر التي نقل منها، ولم أطول بذكرها تيسيرا على القارئ، ويمكن من أراد مراجعتها، قراءة المقدمة من كتاب «الإنصاف»، وقد قال في ذلك:

نقلت في هذا المصنف من كتب كثيرة؛ من كتب الأصحاب من المختصرات والمطولات، من المتون والشروح.

كما أنه بين منهجه في كتابه، جملة وتفصيلا؛ من حيث العزو والنقل والترجيح وغير ذلك، فقال رحمه الله:

طريقتي في هذا الكتاب: النقل عن الإمام أحمد

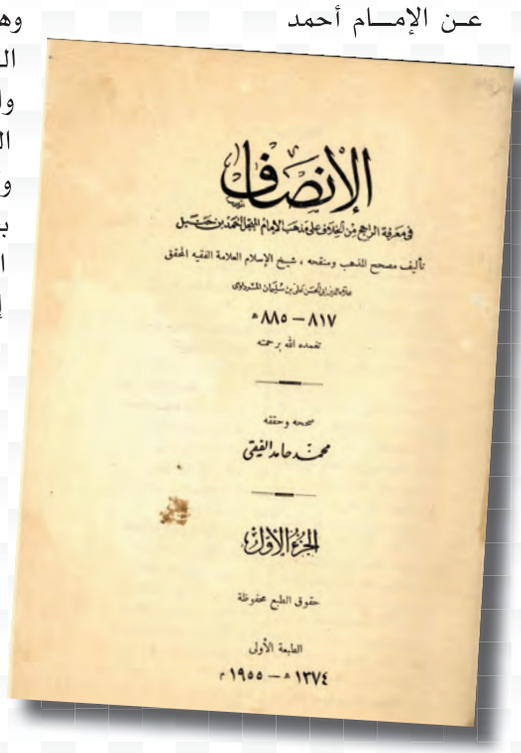

والأصحاب. أعزو إلى كل كتاب ما نقلت منه. وأضيف إلى كل عالم ما أروي عنه. فإن كان المذهب ظاهرا أو مشهورا، أو قد اختاره جمهور الأصحاب وجعلوه منصورا، فهذا لا إشكال فيه. وإن كان بعض الأصحاب يدعي أن المذهب خلافه، وإن كان الترجيح مختلفا بين الأصحاب في مسائل متجاذبة المأخذ، فالاعتماد في معرفة المذهب من ذلك على ما قاله المصنف، والمجد، والشارح، وصاحب الفروع، والقواعد الفقهية، والوجيز، والرعايتين، والنظم، والخلاصة، والشيخ تقي الدين، وابن عبدوس في تذكرته؛ فإنهم هذبوا كلام المتقدمين، ومهدوا قواعد المذهب بيقين؛ فإن اختلفوا فالمذهب: ما قدمه صاحب «الفروع» فيه في معظم مسائله؛ فإن أطلق الخلاف، أو كان من غير المعظم الذي قدمه، فالمذهب: ما اتفق عليه الشيخان، أعني المصنف والمجد؛ أو وافق أحدهما الآخر في أحد اختياريه.

وهذا ليس على إطلاقه، وإنما هو في الغالب؛ فإن اختلفا فالمذهب مع من وافقه صاحب القواعد الفقهية، أو الشيخ تقي الدين، وإلا فالمصنف.

وأما عن منهجه في الترجيح فبينه بقوله:

الترجيح إذا اختلف بين الأصحاب إنما يكون ذلك لقوة الدليل من الجانبين، وكل واحد ممن قال بتلك المقالة إمام يقتدى به؛ فيجوز تقليده والعمل بقوله، ويكون ذلك في الغالب مذهبا لإمامه؛ لأن الخلاف إن كان للإمام أحمد فواضح، وإن كان بين الأصحاب، فهو مقيس على قواعده وأصوله ونصوصه.

هامش

١- المدخل، للشيخ بكر أبوزيد، ٢/٧٢٩.

صور من ذكاء الصحابة

نجاح عبدالقادر
كاتب صحفي

إن المؤمن كيس فطن، ذكي واسع الأفق، حسن في تصرفه، حكيم في تدبيره. وقد تعلم الصحابة -رضوان الله- عليهم من معلمهم ﷺ ذلك. وهذه صور من ذكاء الصحابة، تبين -بجلاء- رجاحة عقولهم، وعبقرية تفكيرهم. وقد حرصنا على أن نقدم ثلاث صور: الأولى لصحابي جليل، والثانية لصحابية جليلة، والثالثة لأسرة طيبة من أسر الصحابة.

الصحابي حذيفة بن اليمان

قال ابن إسحاق: قال حذيفة بن اليمان: والله لقد رأيتنا مع رسول الله ﷺ بالخندق وصلى رسول الله ﷺ هويا من الليل ثم التفت إلينا فقال: «من رجل يقوم فينظر لنا ما فعل القوم ثم يرجع -فشرط له رسول الله ﷺ الرجعة- أسأل الله أن يكون رفيقي في الجنة». فما قام رجل من شدة الخوف وشدة الجوع والبرد، فلما لم يقم أحد دعاني، فلم يكن لي بد من القيام حين دعاني، فقال ﷺ: «يا حذيفة، اذهب فادخل في القوم، فانظر ماذا يفعلون، ولا تحدثن شيئا حتى تأتينا». قال: فذهبت فدخلت في القوم والريح وجنود الله تفعل بهم ما تفعل، لا تقر لهم قدرا ولا نارا ولا بناء، فقام أبو سفيان فقال: يا معشر قريش، لينظر امرؤ من جليسه. قال حذيفة: فأخذت بيد الرجل الذي كان إلى جنبي، فقلت: من أنت؟ قال فلان ابن فلان (عند الواقدي: معاوية عن شماله، وعمرو عن يمينه (١). ثم قال أبو سفيان: ... ارتحلوا فإني مرتحل. ثم قام إلى جمله وهو معقول، فجلس عليه، ثم ضربه فوثب به على ثلاث، فما أطلق عقاله إلا وهو قائم، ولولا عهد رسول الله ﷺ إلي: «لا تحدثن شيئا حتى تأتيني» لقتلته بسهم. قال حذيفة: فرجعت إلى رسول الله ﷺ وهو قائم يصلي... فلما سلم أخبرته الخبر. وقد روى هذا الحديث مسلم بن الحجاج في صحيحه (٢).

فانظر كيف تصرف حذيفة رضي الله عنه في هذا الموقف العصيب، لقد استخدم مهاراته العقلية في ذكاء خارق، وبسرعة بديهة لا تحتمل التأخر لحظة، فعلى الرغم من أنه جلس بين اثنين من أذكى العرب (معاوية رضي الله عنه وعمرو بن العاص رضي الله عنه) فإنه تفوق عليهما، وأثبت أنه - في هذا الموقف- أذكى منهما، وتمثّل ذلك في:

أولا - مبادرته بالسؤال الفوري السريع لهما: حين قال أبو سفيان: يا معشر قريش، لينظر امرؤ من جليسه؟ فإذا بحذيفة يبادر مسرعا، ويأخذ بيد الرجل الذي كان إلى جواره ويسأله في حزم: من أنت؟ فأُسقط في يد من إلى جواره وكان لا بد له من الإجابة قائلا: فلان ابن فلان.

ثانيا - تجنب حذيفة، بذكائه وحسن تصرفه، أن ينكشف أمره، لأنه لو عُرف لكانت النتائج وخيمة عليه وعلى الجيش المسلم المرابط.

ثالثا - تحكم حذيفة في نفسه، واستخدم منتهى الحكمة بعدم رميه أبا سفيان بسهم يقتله؛ لأنه، من ناحية، لا يضمن أن ينفذ السهم فيقتل فعلا أبا سفيان. ومن ناحية أخرى، سيكون قد خالف رسول الله ﷺ في طلبه منه ألا يحدث شيئا. فكان هذا في قمة الذكاء وحسن التصرف.

الصحابية أم سليم

عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: اشتكى ابن لأبي طلحة، قال: فمات وأبو طلحة خارج، فلما رأت امرأته أنه قد مات، هيأت شيئا، ونحته في جانب البيت، فلما جاء أبو طلحة قال: كيف الغلام؟ قالت: قد هدأت نفسه، وأرجو أن يكون قد استراح. وظن أبو طلحة أنها صادقة. قال: فبات، فلما أصبح اغتسل، فلما أراد أن يخرج أعلمته أنه قد مات، فصلى مع النبي ﷺ، ثم أخبر النبي ﷺ بما كان منها، فقال رسول الله ﷺ: «لعل الله أن يبارك لكما في ليلتكما». قال رجل من الأنصار: فرأيت لهما تسعة أولاد، كلهم قد قرأ القرآن (٣).

هذا الحديث يبرهن على ذكاء أم سليم رضي الله عنها. ويَظهرُ ذكاؤها في هذا التدرج الواعي في إعلام زوجها بخبر موت طفلهما الصغير أبي عمير الذي كان النبي ﷺ يمازحه ويقول له «يا أبا عمير، ما فعل النغير». وكان أبو طلحة يحبه حبا شديدا. وتمثل هذا التدرج في كتمان الخبر عنه تماما في البداية، ثم تعمدها أن تتزين له لتسليه وتنسيه قلقه على ولده، ولو مؤقتا، ثم استخدامها أسلوب التعريض بقولها: «وأرجو أن يكون قد استراح». ثم استخدامها أسلوب تهيئة النفس لتلقي الخبر المؤلم بقولها في رواية مسلم: «يا أبا طلحة، أرأيت لو أن قوما أعاروا أهل بيت عارية فطلبوا عاريتهم ألهم أن يمنعوهم؟ قال: لا».

ثم لما تأكدت من عدم اعتراضه على أن يسترد صاحب العارية عاريته، قالت: فاحتسب ابنك.

ولا يخفى علينا ما في تصرف أم سليم من صبر جميل، وهي الأم التي مات طفلها الحبيب، وما في تصرفها كذلك من جلد وتحكم هائل في مشاعر الحزن والألم إلى الدرجة التي تزينت فيها لزوجها، حتى تغشاها. ولا يخفى كذلك علينا ما في قلبها من رسوخ الإيمان بقدر الله، والتسليم لقضائه، وهذا في منتهى الحكمة والذكاء. فكان طبيعيا أن يبارك الله لهما في ليلتهما -كما دعا رسول الله ﷺ لهما- ويرزقا تسعة من

الولد كلهم قد حفظ القرآن وعلمه. يقول ابن حجر: وفي قصة أم سليم هذه من الفوائد: مشروعية المعاريض الموهمة إذا دعت الضرورة إليها. وشرط جوازها ألا تبطل حقا لمسلم. والمبالغة في الصبر والتسليم لأمر الله تعالى ورجاء إخلافه عليها ما فات منها، إذ لو أعلمت أبا طلحة بالأمر في أول الحال تنكد عليه وقته ولم تبلغ الغرض الذي أرادته، فلما علم الله صدق نيتها بلغها مناها وأصلح لها ذريتها... وفيه بيان حال أم سليم من التجلد وجودة الرأي وقوة العزم (٤).

أبو طلحة وأم سليم

قال البخاري: عن أبي هريرة قال: أتى رجل رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، أصابني الجهد. فأرسل النبي ﷺ إلى نسائه فلم يجد عندهن شيئا، فقال النبي ﷺ: «ألا رجل يضيف هذا الليلة، رحمه الله؟». فقام رجل من الأنصار فقال: أنا يا رسول الله. فذهب إلى أهله فقال لامرأته: ضيف رسول الله ﷺ لا تدخريه شيئا. فقالت: والله ما عندي إلا قوت الصبية. قال: فإذا أراد الصبية العشاء فنوميهم، وتعالي فأطفئي السراج ونطوي بطوننا الليلة. ففعلت. ثم غدا الرجل على رسول الله ﷺ. فقال ﷺ: «لقد عجب الله عز وجل -أو: ضحك- من فلان وفلانة». وأنزل الله عز وجل:

﴿.. وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ..﴾ (الحشر:٩) (٥).

وفي الرواية الأخرى: عن أبي هريرة رضي الله عنه أن الرجل قال لامرأته: أكرمي ضيف رسول الله ﷺ.

فقالت: ما عندنا إلا قوت صبياني. فقال: هيئي طعامك، وأصبحي سراجك، ونومي صبيانك إذا أرادوا عشاء. فهيأت طعامها، وأصبحت سراجها، ونومت صبيانها، ثم قامت كأنها تصلح سراجها فأطفأته، فجعلا يريانه أنهما يأكلان. فباتا طاويين (٦).

وفي رواية لمسلم تسمية هذا الأنصاري بأبي طلحة رضي الله عنه: «فقام رجل من الأنصار يقال له أبو طلحة» (٧).

هذا الحديث الشريف يبدو فيه جليا الذكاء الجميل المختلط بالحفاظ على الإحساس والشعور في أعلى درجاته. ويتمثل ذلك في:

أولا- إثارة أبي طلحة اهتمام زوجه بالضيف إلى أقصى درجة بذكاء شديد، وذلك بقوله لها «أكرمي ضيف رسول الله ﷺ». وهو بهذا الأسلوب الموجز البليغ يحثها على أمرين: طاعة رسول الله ﷺ بإكرام ضيفه، ثم طاعة الزوج الواجبة في المعروف، فقدمت للضيف طعام أولادها، ونفذت أمر زوجها: «ضيف رسول الله ﷺ لا تدخريه شيئا».

ثانيا - ذكاء أم سليم في ردها على زوجها لتتأكد منه، فتقول له: «والله ما عندي إلا قوت الصبية».

وقد حرصت على ذلك، كأنها تستأذن زوجها في أنها ستقدم للضيف طعام أولادها الذي ليس في البيت سواه! واستئذانها هذا يقطع الطريق على لوم زوجها إياها إذا ما حدث مكروه لطفل من الأطفال أو قام من نومه باكيا من الجوع، وكأنها تقول له: لنكن متفقين على ذلك.

ثالثا - الذكاء الشديد وحسن التصرف مع الصبية الصغار. قال: «نومي صبيانك إذا أرادوا عشاء».

ونحن لا ندري كيف استطاعت أم سليم أن تنوم صبيانها بغير عشاء، اللهم إلا بذكائها الشديد وحسن تصرفها.

رابعا - الحرص على إحساس الضيف، وتنفيذ دواعي الإكرام معه كاملة، ومنها الجلوس مع الضيف وتناول الطعام معه، وهذه عادة عربية أصيلة أقرها الإسلام وشجع عليها. لكن السؤال هنا: كيف سيجلس أبو طلحة وزوجه لتناول العشاء مع الضيف، والطعام قليل ولا يكاد يكفي إلا هذا الضيف وحده؟! إن حل هذه المعضلة يحتاج إلى ذكاء شديد، وهذا ما فعله أبو طلحة وأم سليم، لقد قال لها: «فنوميهم وتعالي فأطفئي السراج». ففعلت ذلك بمنتهى الذكاء: «ثم قامت كأنها تصلح سراجها فأطفأته» فجعلا يريانه أنهما يأكلان وهما في الحقيقة لا يأكلان.. إنه الحرص على تنفيذ آداب الضيافة، من إيناس للضيف، وإيثاره بالطعام المتوافر، مع إيهامه بأنهما يأكلان معه.

خامسا - لقد علم أبو طلحة وأم سليم بذكائهما الإيماني أن إرضاء رسول الله ﷺ هو في الحقيقة إرضاء لله عز وجل، وأن في هذه الطاعة، وفي هذا التصرف الأخلاقي الذكي ثمرات عظيمة عند الله عز وجل، فإذا بأبي طلحة حين يصبح ذاهبا إلى المسجد يبادره النبي ﷺ بقوله: «ضحك الله الليلة أو عجب من فعالكما». ونسبة الضحك والتعجب إلى الله مجازية، والمراد بهما الرضا بصنيعهما.

لقد علم رسول الله ﷺ عن طريق الوحي بما صنع أبو طلحة وزوجه مع الضيف، ففرح بحسن تصرفهما، وبشرهما بنزول قول الله تعالى فيهما وفي من يصنع مثلهما: ﴿.. وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾﴾.

الهوامش

١- المغازي للواقدي ٤٨٩/٢.
٢- البداية والنهاية لابن كثير، ج٤ ص١٣٠.
٣- البخاري ٥٣/٥ ومسلم ٢٢١/١٢.
٤- فتح الباري لابن حجر ٣٥٠/٤.
٥- تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٧١/٨.
٦- البخاري ١٥٧/١٢.
٧- مسلم ٣٨٠/١٣.

تنمية روح الإبداع عند الطفل

محمد شعطيط
خبير أسري

في طفولة بيل جيتس، دخلت عليه أمه البيت فوجدته شارد الذهن، فسألته: «ماذا تفعل يا بيل؟». فأجابها قائلا: «أنا أفكر. هل سبق لك يا أمي، أن فكرت؟». ظنت الأم أن بطفلها لوثة من جنون، فأخذته إلى الطبيب النفسي، الذي قرر بعد جلسة مطولة مع الطفل، الذي لم يتجاوز السادسة من عمره حينها، أن يحضر له مجموعة من الكتب لإشباع فضوله وتنمية رغبته الملحة في التفكير والإبداع.

لم يكن بيل جيتس بدعا من سائر الأطفال في حب الاستطلاع، الذي يعتبر منصة إطلاق الطفل إلى عالم الإبداع. لكنه وجد الأسرة الحاضنة التي آمنت بقدراته واستعداداته، التي جبله الله تعالى عليها، وعملت على دعمها، واستثمارها، وتوجيهها، وسقيها، حتى اشتدت، واستوت، وآتت من كل زوج بهيج.

وإذا كان للأسرة هذا الدور الفعال والإيجابي في التنشئة الإبداعية للطفل، فإنها أيضا سيف ذو حدين.. عامل تثبيط وقتل لموهبة الإبداع. ولذلك، إذا أرادت أي أسرة أن توفر البيئة المناسبة لتنمية روح الإبداع لدى أطفالها، فإنه يتحتم عليها الاشتغال على واجهتين نراهما رئيسيتين. إلا أنه وقبل الحديث عنهما لا بأس من تقديم تعريف مقتضب للإبداع وهو كما يلي: الإبداع مصدر بدع الشيء يبدعه بدعا وابتدعه: أنشأه وبدأه. وركي بديع: حديثة الحفر. والبديع والبدع: الشيء الذي يكون أولا. وفي القرآن الكريم: ﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ الرُّسُلِ﴾ (الأحقاف:٩)، أي ما كنت أول من أرسل. والبديع: المحدث العجيب. وقوله تعالى: ﴿بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ (البقرة:١١٧)، أي خالقها ومبدعها ومخترعها لا عن مثال سابق.. ورجل بدع، وامرأة بدعة: إذا كان غاية في كل شيء كان عالما أو شريفا أو شجاعا. هذا من الناحية اللغوية. أما عند ذوي الاختصاص، فيمكن الاكتفاء بتعريف الموسوعة الفلسفية العربية، فقد جاء جامعا مانعا، وقد عرفت الإبداع كما يلي: «إنشاء شيء جديد أو صياغة عناصر موجودة بصورة جديدة في أحد المجالات، كالعلوم والفنون والآداب».

أما الواجهتان اللتان ينبغي على الأسرة توجيه اهتمامها إليهما فهما:

١ - العمل على تطوير محفزات الإبداع.

٢ - إقصاء معوقات الإبداع، أو العمل على تقليصها والتضييق عليها ما أمكن.

والخطاطة التالية يمكن أن تشكل خلاصة هذه المعوقات والمحفزات؛ حتى يسهل التعامل معها وتذكرها، بل يمكن رسمها وطبعها على ورقة وتعليقها في سبورة البيت عند الطفل أو باحة البيت أو على شاشة الهاتف أو القارئ اللوحي أو غيرها.

وتجدر الإشارة هنا إلى أن هذه العوائق والمحفزات لا يمكن الضرب بينها بسور يقطع الصلة بينها. بل ما يكون عاملا محفزا عند طفل قد يكون عائقا لدى طفل آخر. ذلك للعلاقة الدينامية بين مختلف هذه العوامل. فثقافة الوالدين مثلا، التي تكون عامل تحفيز عند بعض الأطفال، قد تسهم في قتل الإبداع عند آخر. فالوالدان المثقفان - مثلا وأحيانا وليس دائما - يسقطان تجربتهما على أبنائهما، فيحاولان تدارك الأخطاء التي ارتكبت معهما من حيث اغتنام الوقت وفترة الصبا في التحصيل، مما يؤدي إلى المبالغة في ملء فراغ الطفل بالأنشطة والبرامج والدورات، من دون أخذ احتياجاته بعين الاعتبار، مما يؤدي إلى ملل الطفل وامتعاضه، وقد يدفعه إلى ترك الجمل بما حمل. فتتبغض إلى قلبه كل أشكال الحرص على المعرفة واغتنام الوقت والتحصيل وبرامج الإبداع. ولذلك وجبت الإشارة

إلى دراسة كل عامل، والاستفادة منه، من دون إفراط ولا تفريط، فإن المنبت لا أرضا قطع ولا ظهرا أبقى. فإلى الخطاطة:

من خلال قراءة خطاطة الحوافز والمعوقات يمكن تسجيل الملاحظات التالية:

- تلعب العوامل الموضوعية دورا مهما في تنمية الإبداع لدى الطفل من خلال إشباع روح المبادرة لديه عن طريق استثمار حبه للمعرفة، وتقديم الدعم اللازم والمناسب، مع التركيز على التواصل، وإعطاء هامش من الحرية المسؤولة للطفل، إضافة إلى التشجيع والتحفيز المستمر.

- دور التلاحم العاطفي وإبعاد الطفل مطلقا عن المشاكل الزوجية والأسرية والعائلية. فالأسر المضطربة الهائجة المائجة تغذي روح الانعزال والانطواء لدى الأبناء. كما أن كثرة لوم الطفل وتقريعه وتأنيبه بمناسبة وبغير مناسبة تفقده الثقة بنفسه كما أثبتت ذلك بعض الدراسات.

- اغتنام كثرة أسئلة الطفل وحبه للاستطلاع في تنمية روح الإبداع لديه بتعليمه كيفية الإبحار الآمن في الإنترنت، وتوجيهه التوجيه الناعم اللين إلى بعض المواقع العلمية والتربوية الهادفة التي تشبع نهمه المعرفي. فكثرة أسئلة الطفل هي مفتاح الإبداع وبدايته المشرقة. ومن كانت بدايته محرقة كانت نهايته مشرقة كما تقول الحكمة.

- تنمية التعلم الذاتي لدى الطفل، وتعليمه كيف يصطاد السمكة بنفسه وصنارته مع الصبر الدؤوب، ونشر روح الاستمتاع واللعب، واستثمار مختلف النظريات التربوية التي قربت الشقة وكفت المؤنة.

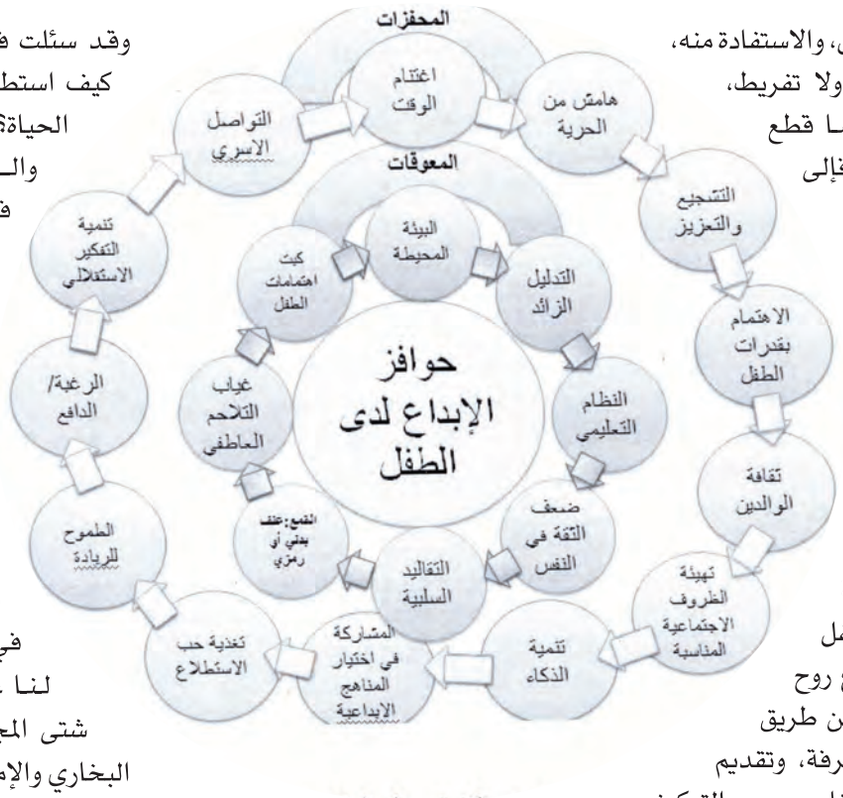

أما المعوقات فإن إكراهاتها تبدو لأول وهلة صعبة المنال، لكن زرع الورد في الحقل منذ البداية والاعتناء به يغنيان في النهاية عن مشقة اقتلاع الأشواك. ومن شغل نفسه بالفضائل كفى نفسه تعب اقتلاع الرذائل. فإذا تمعنا في الخطاطة وجدنا أن أهم المعوقات الأسرية للإبداع تتجلى أساسا في الجانب النفسي والعاطفي. أو في الجزء الأكبر منه. فلا إبداع مع غياب التلاحم العاطفي والإشباع الروحي لنفسية الطفل. لا إبداع مع القمع والإرهاب والعنف الأسري. ولا إبداع مع ضعف ثقة الطفل بنفسه، والتي تلعب الأسرة دورا بارزا في تغذيتها وفي رعايتها منذ نسائم فجر الطفولة الأولى. كما أنه لا إبداع مع التدليل الزائد أو التقاليد السلبية المقيدة التي تلبس لبوس الدين أو العرف المبالغ فيه، مما ينعكس بالسلب على روح المبادرة والطموح والإبداع.

وقد سئلت فتاة في إحدى المجلات: كيف استطعت تحقيق أهدافك في الحياة؟ فكانت إجابتها: لقد آمن والداي بقدراتي ومواهبي فشجعاني، ولم يكونا في أي لحظة عامل تثبيط أو إعاقة لطموحاتي وأفكاري وإبداعي.

لقد كانت الأمة العربية والإسلامية رائدة بين الأمم حينا من الدهر لأنها شجعت ونمت التفكير المستقل والإبداع الخلاق في شتى المجالات، فأنتجت لنا عباقرة ومبدعين في شتى المجالات من أمثال: الإمام البخاري والإمام أحمد والشافعي وابن تيمية والغزالي وابن رشد والبيروني وابن البيطار وابن النفيس وابن الهيثم والجزري.. وغيرهم كثير. وإن الأمة أضحت اليوم ولودة بحمد الله، وقد استيقظت من سبات عميق. ويقع النصيب الأوفر على الأسر الكريمة للمساهمة في هذه النهضة من خلال تربية روح الإبداع لدى أبنائها وفلذات أكبادها بطرق علمية بعيدا عن الارتجالية من جهة، أو الإهمال وترك الحبل على الغارب من جهة ثانية، فالعصر عصر علم، وما كان على أساسه وبني على قواعده أعطى ثماره ولو بعد حين، وواقع الأمم الغربية خير شاهد، فهل نتعلم ونستفيد؟ وهل نسارع إلى المشاركة في دورات تدريبية لتعلم كيفية تنمية روح الإبداع لدى الأبناء؟ وهل نقوم بزيارات دورية أو سنوية للمبدعين والعلماء والعباقرة في مختلف المجالات؟ وهل ننهل من المعارف الحديثة لتحقيق هذا الهدف النبيل؟ نعم، في الإمكان أفضل مما كان، وكم ترك الأول للآخر، وعطاء الله ممدود، فهل نبسط الكف؟

الأهمية التربوية لتقدير الذات

الزبير مهداد
كاتب تربوي

يعد تقدير الذات هدفا تربويا تحرص التربية الحديثة على تحقيقه في الناشئة. وتقدير الذات هو الحكم الذي تصدره الذات على نفسها، وهو دعامة أساسية للشخصية على مستوى رصيدها المعرفي وكيانها الوجداني ونشاطها السلوكي، بل أكثر من ذلك، فنوع التقدير إيجابيا أو سلبيا للذات يؤثر على حاضرها ومستقبلها، واختياراتها وقراراتها، ونجاحها أو فشلها. فإذا كان إيجابيا، يتيح للفرد إمكانية القيام بردود أفعال مناسبة والشعور بالتوافق والسعادة، وهذا ما يمنح الذات القدرة على مواجهة صعوبات الحياة والأزمات والأحداث غير المتوقعة عاملة فاعلة ومحفزة على تحسين أدائها ونجاحها المدرسي وعلاقاتها بالآخرين وتوافقها النفسي ودرجة طموحها. أما إذا كان سلبيا فسيؤدي ذلك إلى الإحساس بالدونية، وفقدان الثقة بالنفس والشعور بالمعاناة، ما يعيق تواصلها مع الأشخاص وتكيفها مع الوقائع والأحداث، ويؤثر سلبا على صحتها النفسية. فإن أي خلل أو سوء في تقدير الذات وكفاءاتها من شأنه التأثير سلبا على أداء الطفل في المدرسة أو غيرها، وعلى صحته النفسية.

تتوزع مجالات تقدير الذات إلى العلاقة مع الجسد والعلاقة مع الآخرين والعلاقة مع الإنجاز أو العمل. فالطفل يحس بتقديره لذاته منذ الوعي بجسده كائنا مستقلا، ويأخذ هذا الوعي عدة مظاهر سلوكية بدنية، ومعرفية ووجدانية. فهو يحاول دائما إرضاء والديه وانتظار ردود أفعالهما الإيجابية، كما يسعى إلى انتزاع مكانة خاصة داخل أسرته، بين إخوته. ومن جهة أخرى، يحرص على البحث عن مظاهر التميز أمام أقرانه. أما في فترة المراهقة فيصبح تقدير الذات ضرورة ملحة، خصوصا مع التغيرات الجسدية المؤثرة التي يعيشها المراهق.

وهذا السياق يقتضي منا التفكير والتأمل في ذواتنا، وذلك من خلال طرح الأسئلة التالية: من أنا وكيف ينظر إلي الآخرون؟ هل شكلي جميل؟ هل هيأة بدني مقبولة؟ هل يقدرني الآخرون؟ هل إنجازي يضاهي إنجاز غيري؟ هل أستطيع أن أكون أفضل، وكيف؟ وغير ذلك من الأسئلة التي تكون بمثل هذه الصيغة، أو لا تكون واضحة للعيان، لكنها عموما، هذه الأسئلة أو غيرها أو مثيلتها، تتبادر إلى ذهن الناشئ بشكل أو بآخر.

بهذه الأسئلة يحاول الناشئ البحث عن السبيل الذي يوصله إلى تحقيق توازن نفسي وتكيف اجتماعي ونجاح، حتى يحظى بتقدير غيره، ويحتل في جماعته المكانة التي يطمح إليها. وهذا بطبيعة الحال مرتبط بالصورة التي ينشئها الفرد عن ذاته في شموليتها، فيسعى جاهدا إلى البحث عما يمنحه القوة، وما يعزز لديه تقديره لذاته. وهي الرغبة تبدأ في الاشتغال منذ الطفولة، وتزيد حدتها في المراهقة، وتتواصل في سن الرشد. فالتقدير الإيجابي يدفع الفرد، ذكرا كان أو أنثى، إلى السلوك الإيجابي والاستقلالية والمبادرة، مدفوعا دوما بالرغبة في تطوير إنجازه وإنضاج تجربته والسعي الحثيث لتحقيق النجاح ومواجهة التحديات. في حين أن التقدير السلبي يكبل الناشئ الذي يحكم على نفسه مسبقا بالفشل والعجز والاتكالية، ما يحول دون قدرته على حل مشكلاته والتغلب على تحدياته واتخاذ قرارات مستقلة، فيستسلم بسرعة معتقدا أن الفشل قدره المحتوم. وحتى السلوك الأخلاقي يكون متدنيا لديه، ويتجلى ذلك في سعيه للغش والتملق وغيرهما.

وقد انتبه الفقهاء والمربون المسلمون إلى هذه القيمة التربوية، فأبرزوها في مصنفاتهم ورسائلهم ونصائحهم، وكانوا من خلال ذلك يبرزون قاعدة إسلامية تعتبر من الأمور المعلومة في الدين بالضرورة، وهي قاعدة تكريم الله عزوجل للإنسان.

التكريم الإلهي للإنسان

إن الإسلام يقر بكرامة الإنسان، ومظاهر التكريم الإلهي للإنسان كثيرة، منها الخلق في أحسن تقويم، والتأهيل بالعقل والعلم والقدرات الذاتية، ثم تسخير الكون له، حتى يتهيأ لتحمل مسؤوليته باعتباره مكلفا، ويتحمل أعباء التكليف بأداء واجبه في إثراء الحياة الدنيا بعطائه ومساهماته في تلبية حاجاته وحاجات غيره.

فالفقهاء والمربون يتفقون على أن الله عزوجل كرم الإنسان بأن خلقه في أحسن تقويم، وسخر له كل ما يناسب طبيعته ويفي بحاجاته من أرض وماء وحيوان وسماء ونبات، ومكن له في الأرض تمكينا يتيح له الارتقاء بكل شيء في الأرض والطبيعة.

قال ابن كثير: «يخبر تعالى عن تشريفه لبني آدم، وتكريمه إياهم، في خلقه لهم على أحسن الهيئات وأكملها، كما قال: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ (التين:٤)، أي: يمشي قائما منتصبا، ويأكل بيديه، وجعل له سمعا وبصرا وفؤادا، يفقه بذلك كله، وينتفع به، ويفرق بين الأشياء، ويعرف منافعها وخواصها ومضارها في الأمور الدنيوية والدينية». ويورد ابن كثير شهادات أخرى تفيد أن من أهم دلائل تكريم الله عزوجل للإنسان أنه خلقه بيديه، بخلاف غيره من المخلوقات التي قال لها سبحانه وتعالى كن فكانت.

آيات كثيرة في القرآن الكريم تدلنا

على مظاهر التكريم المختلفة وترشد إليها، منها قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ (الإسراء:٧٠). يقول القرطبي في تفسيره «كرمنا، أي جعلنا لهم كرما وشرفا، وهذا الكرم نفي النقصان لا كرم المال» (١).

قال تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا﴾ (الشمس:٧-٨)، قال أحد المفسرين: «أي خلقها سوية مستقيمة على الفطرة القويمة، وبين لها ما أن تأتي أو تذر من خير أو شر أو طاعة أو معصية».

ومن دلائل تكريم الله للإنسان أن خصه بالذكاء والتفكير وعلمه دون سائر المخلوقات، قال تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ۝٢ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ﴾ (الرحمن:١-٤)، وقال أيضا في كتابه الكريم: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا﴾ (البقرة:٣١). فالعلم سابق على الجهل، والمعرفة الإنسانية بدأت بتعليم الله سبحانه وتعالى الإنسان وهو ما ترشد إليه الآية الكريمة: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ (العلق:١-٥). كرم الله الإنسان بأن خصه بالعقل، وحثه على التفكير وطلب العلم؛ لبلوغ درجة التقوى الموصلة إلى السعادة في الدارين، الدنيا والآخرة.

أهل الله الإنسان بمؤهلات وأسباب جعلته متمكنا في التصرف في الكون الطبيعي، ومن هذه المؤهلات: العقل والبيان. فقد جعل الله للعقل العالم بمقتضى أحكام الشريعة السمحة السلطان الأعلى في إدراك حكمة ما حدده القرآن من المبادئ العامة لخدمة الحق والخير ومكارم الأخلاق، وهذا السلطان العقلي الذي أمر الله الناس أن يحتكموا إليه، هو سلطان مطلق وشامل، يتناول بسلطته كل معنى في الوجود. لهذا اعتبرت الشريعة حفظ العقل إحدى الضروريات الخمس أو مقاصد الشريعة (٢). ويقول العلماء إن الله عزوجل قد جعل للعقل إدراكا مسلما لما لا يحل فعله، وزاجرا عن فعله، وهو ما يرشد إليه الحديث الشريف «دع ما يريبك إلى ما لا يريبك» (٣). يقول الماوردي: «أس الفضائل وينبوع الآداب هو العقل، الذي جعله الله تعالى للدين أصلا وللدنيا عمادا، وأوجب التكليف بكماله، وجعل الدنيا مدبرة بأحكامه» (٤).

والتكريم مرتبط بالإيمان، لأن الله خلق الإنسان في أحسن تقويم ثم رده أسفل سافلين ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ (التين:٦)، أبقى عباده المؤمنين العاملين الصالحين مكرمين، خصهم بالمكانة العلية، ولم يرددهم إلى أسفل. وبين الله عزوجل كيف خص بالعزة ذاته الجليلة ورسوله الذي بعثه بالحق والمؤمنين الذين آمنوا به وصدقوا رسله، يقول الله عزوجل: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ (المنافقون:٨)

التربية تتأسس على قاعدة التكريم

وهذا المنطلق هو الذي تتأسس عليه العلاقة التي تربط المربي بالمتعلم، والتي تقتضي تعاملا يتأسس على احترام الناشئ وتقديره، حتى يتشرب الناشئ هذا الاحترام ويصبح مقدرا لذاته. وهو الذي تستلهمه الحيثيات التي تستند إليها فتاوى الفقهاء بعدم جواز استخدام المعلم للصبيان المتعلمين، وقد شرحه بتفصيل ابن حجر الهيثمي في كتابه «تحرير المقال» (٥)، وهو الذي عبر عنه القابسي عند تناول موضوع عقاب الصبي وتأديبه، احتاط للأمر بتحديد أماكن الضرب وعدد الضربات، واستدرك بتنبيه المعلم وتذكيره بأن الأمر يتعلق بكرامة المسلمين وأبشارهم وأعراضهم، فلا يجوز التهاون في تناولها (٦). وابن خلدون الذي أكد في مقدمته أن من غايات التربية مساعدة الناشئ على الاندماج الاجتماعي وتحقيق النمو السليم لشخصيته، مبينا أن شرط ذلك هو قيام العلاقة التربوية على احترام ذات المتعلم وكرامته، مذكرا بمخاطر الشدة على المتعلم وآثارها في عرقلة نموه السليم واضطراب شخصيته، «وفسدت معاني الإنسانية التي له من حيث الاجتماع والتمرن والحمية والمدافعة عن نفسه ومنزله». ويدعو بإلحاح إلى تربية الأفراد بطريقة وأساليب تراعي كرامتهم، وتجعل منهم مواطنين صالحين يقدرون ذواتهم.

وابن حزم في كتابه «مداواة النفوس» أحصى عددا من صفات وسمات الشخصية السوية، ناصا على أن تقدير الذات هو أهمها ومحورها، وحددها في قبول الفرد لذاته واحترامه لها، والشعور بالرضا عن حياته؛ وهذا الشعور شرط تحقيق السعادة الفردية؛ تقبل الآخرين وتقديرهم والتفاعل معهم ومبادلتهم الأخذ منهم بالعطاء لهم؛ والتعاون معهم، وهذا التفاعل ضروري لسعادة الجميع؛ الشعور بالكفاية لمواجهة مواقف الحياة، والتحمل والصبر، بحيث يجب على الفرد أن ينمي إمكاناته ليكون قادرا على مواجهة مختلف مواقف الحياة، ولتحقيق هذه التنمية يجب تعرف الذات والوقوف على نقائصها والسعي لتكميلها. وبين ابن حزم في كتابه المذكور أن التسامي بالإيمان وبالعلم، وبالعمل والإنتاجية وبالجود ومساعدة الآخرين، يعد من أهم

أسباب الرضا عن الذات وتقديرها.

كيف نحقق تقدير الذات؟

إن كل المربين، القدامى والمعاصرين، يتفقون على أن الإنسان مفطور على حب وجوده وكماله، يسعى إلى ضمان سلامته وأمنه؛ حماية لهذا الوجود. ودوافعه وسلوكه وحاجاته وعلاقاته إنما تسعى إلى إبراز ذاته، وتأكيدها، وإثبات أهميتها، وترسيخ مكانتها في المجتمع، وإظهار قيمتها وفعاليتها وجدواها؛ لكسب ثقة الغير واحترامهم وتقديرهم ومودتهم.

فتقدير الذات مهم جدا من حيث إنه هو البوابة لكل أنواع النجاحات الأخرى المنشودة، فطرق النجاح مهما كانت سهلة وقريبة، لا يمكن أن يسلكها الفرد إذا كان لا يولي اعتبارا لذاته، أو كان تقييمه وتقديره لها ضعيفا، فلن ينجح في سلوك سبل النجاح لأنه يرى نفسه غير قادر وغير أهل وغير مستحق لذلك النجاح.

وتقدير الذات يكتسبه الناشئ من التنشئة التي خضع لها منذ طفولته في الأسرة، ومن التربية المدرسية وتجاربه وفعالياته ضمن الحياة المدرسية والاجتماعية، وعلاقاته بغيره من الراشدين والأقران، هذه الحياة التي تعرضه لمواقف وتستدعي استجابته وردود فعله. فمرحلة الطفولة مهمة جدا في تكوين نظرته إلى ذاته وتقديره أو تبخيسه لها، بحسب نوع المعاملة التي لقيها والتنشئة والتربية التي خضع لها. فالطفل الذي يلقى المحبة والتقدير والتشجيع على مواجهة المواقف والدعم للتغلب على الصعوبات، هو غير الطفل الذي يتعرض للإهمال ولا يلقى دعما للتغلب على الصعوبات والمشكلات التي تواجهه. فالأول ينشأ لديه تقدير إيجابي لذاته بخلاف الثاني.

فالعمودان اللذان يتأسس عليهما تقدير الفرد لذاته هما:

١- النظرة إلى الجسد: ففي مرحلتي الطفولة والمراهقة بالخصوص يجب أن يستشعر الفرد، ذكرا كان أو أنثى، أنه مخلوق في أجمل صورة وأحسن تقويم، مصداقا لقول الله تعالى في سورة التين. فتحسين صورة الجسد أساس الرضا الذاتي، وشرط قبول الفرد لذاته واعتزازه بها. تحقيق التوازن النفسي والوجداني، خصوصا إذا كانت نظرة الطفل إلى جسده سلبية أو غير واضحة، فالجسد يستحق التقدير والاعتزاز به، لأن الله عزوجل خلقه بيديه. وفي ذلك قمة العطف والرحمة والحنان الإلهي.

٢- النظرة إلى المهارات والإنجاز: يجب أن يستشعر الناشئ أن كل الخيارات متاحة له ليرتقي بإنجازه ويحقق أحلامه، فالله قد سخر له الكون، وزوده بالمهارات اللازمة لاستثمارها، ويدرك أنه يتوفر على المهارات الضرورية، بحيث يمكن تنمية مهاراته البارزة، والبحث في ذاته عن مهاراته الكامنة. فذاته تحتوي على كنوز من المهارات والقدرات يكفي أن يتعرفها ويطورها. كما ينبغي في جميع الحالات تقدير إنجازه وعدم تبخيسه، فالإنجاز الجيد يستحق التنويه والشكر والتشجيع، والإنجاز الرديء أو الضعيف ينبغي مساعدة الناشئ على تطويره وتحسينه، والفرص قائمة دوما لأجل ذلك. والمبادرة بيد الأسرة والمربين لتحقيق ذلك ومساعدته على بلوغ النجاح.

فالعلاقة مع الناشئ، وعلاقات الناشئ بأقرانه، يجب أن تراعي ما سبق، حتى يشعر بأنه مقبول، وأن حياته مقدسة، وعرضه مصون، وأمنه ثمين، وأنه قادر على تحقيق الإنجاز الجيد، والمساهمة بدوره في إغناء الحياة وتطوير واقعه والتحكم فيه. فيؤسس لعلاقاته مع أقرانه على الندية والتعاون والتكامل والاحترام المتبادل، وليس على الخنوع والرضوخ واستجداء العطف والشفقة، ويكون انتماؤه لجماعته موضع تقدير. فسلوكيات كثيرة يظهرها أبناؤنا وبناتنا في تفاعلهم الاجتماعي، كالانزواء والعنف والتلعثم خلال الحديث، أو الكذب، وغياب روح المبادرة ورفض تحمل المسؤوليات، والإحساس بالعجز عن تحقيق الإنجاز الجيد، واسترخاص الحياة والعرض وغير ذلك، إنما تعد علامات لتقدير سيئ للذات وتبخيسها.

إن التقدير الإيجابي للذات شرط أساسي لتحقيق التوازن النفسي والشعور بالرضا، فهو يترجم الكرامة التي خص بها الله تعالى عباده، ويدل على القيمة التي نمنحها لناشئتنا والمحبة التي نسبغها عليهم. وبذلك نفسح لهم السبل ونبين لهم المسالك التي يمكن أن تقودهم إلى كل خير ونجاح وكل ما ينتظره مجتمعهم منهم كأفراد يتمتعون بكرامته ومستعدين لبناء مجتمع الكفاءة والأمن والسلم والتعاون.

الهوامش

١- القرطبي، كتاب الجامع لأحكام القرآن، جزء٩، ص: ٢٩٤.

٢- الشاطبي، الموافقات، جزء٢، ص: ١٠.

٣- الصنعاني، بلوغ المرام، جزء٤، ص:٢٨١.

٤- الماوردي، أدب الدين والدنيا، ص:١٧.

٥- تحقيق هشام نشابة ضمن «التراث التربوي في خمس مخطوطات»، ص:٢٤٣.

٦- الأهواني، أحمد فؤاد: التربية في الإسلام، ص:٣١٥.

المكتبة المنزلية.. غائب نتمنى عودته

عثمان إسماعيل
صحفي مصري

وسط التحديات الفكرية المتباينة والتي فرضت علينا فقدنا الكثير من مفاتيح السعادة الأسرية ووسائل الدفء الأسري ومنها «المكتبة المنزلية» التي فقدت هويتها إثر تغيرات حياتية ومجتمعية طارئة أو مفروضة، ولكن هناك من يصر على أن تكون المكتبة المنزلية من لوازم الحياة لما لها من آثار ملموسة في الرقي الفكري والعقلي والسلوكي للفرد خاصة والأسرة عامة.

وبداية المكتبة المنزلية تكمن في هوية «الأب» الذي له ميوله القرائية والمعرفية في فرع خاص أو فروع ثقافية عدة، بعدها يحاول جادا نشر هذه الهواية بين أبنائه وتشجيعه لهم، كل حسب ميوله، هنا تكتمل هوية المكتبة المنزلية بمعارفها المختلفة وثقافاتها المتعددة، وعقب ذلك تصبح القراءة سلوكا معتادا يصير الكتاب من خلاله خير جليس حول مائدة الأسرة لتتذوق أشهى مناهل المعرفة وإشباع الميول والرغبات لما تصبو إليه.

ومما لاشك فيه أن المكتبة المنزلية لها آثارها التي لا ينكرها أحد وتتمثل في:

إيجاد هوية الحوار الأسري حيث تعمل المكتبة المنزلية على خلق نمط خاص للغة الحوار في محيط الأسرة، ذلك الحوار الذي أساسه احترام الرأي والرأي الآخر، والذي يقوم على التفاهم وأسلوبية عرض القضايا الخاصة والعامة، وكيفية طرحها للنقاش لإيجاد المخرج والحل المناسب الذي يرضي أطراف الحوار، دون المساس بذات العلاقة الأسرية، مما يساعد على تقبل النقد بروح وشعار: «إن الاختلاف في الرأي لا يفسد للود قضية».. فالقراءة واكتساب الثقافات المختلفة يضفي على الحوار إيجابية تبادل الرأي واكتساب سلاسة الحوار وفهم أبعاده المتباينة، حسب ما تخضع له من ثقافات الآخرين، وما يتسم به من لباقة اللغة وحسن اختيار وانتقاء اللفظ، مما يساهم في إيجاد هوية خاصة للحوار الأسري، إثر قراءات وثقافات مختلفة كانت نتاج ما تحويه أرفف المكتبة من ميول وأهواء.

ومما تساعد المكتبة المنزلية على بنائه هو «التكوين العقلي» لأفراد الأسرة، حيث تعمل على خلق وسائل تطور الفكر وتنمية مساحات العملية الذهنية إزاء احتدام الصراع للمواقف والمشكلات والتعرض لها، فثقافات المكتبة المنزلية وصداقة الكتب توجد نوعا من المواجهة بين صراعات التفكير، الأمر الذي تتطور معه مراحل النمو العقلي والتفكير أسلوبا وطريقة.

ومع القراءة واكتساب المعارف المختلفة تتسع آفاق التفكير وفرص التعامل العقلي بالمنطق السليم، ومادام المناخ الأسري أساسه التفكير المنطقي، وبما ينتج عنه من

تناغم وتآلف وتقارب في الملاءمات العقلية؛ فهذا أيضا نوع من السعادة المنزلية التي تصل بالحكم على الأشياء بكل رضا وقناعة وألفة.

وأروع ما تحققه المكتبة المنزلية هو «الجلسة الأسرية» والتي تصقلها هوية أفرادها ثقافة وتفكيرا وحوارا وميولا، تلك الجلسة الثقافية الدافئة التي نلمس فيها روح الفكر وشفافية النقاش وأخلاقيات الحوار الهادف وثقافة المخاطبة، مما يقوي الترابط الأسري وتزيد معه المودة والألفة ونقاء السريرة وصفاء النوايا.

إن تلك الجلسة الأسرية إن كانت يومية أو أسبوعية فإنها أروع أساليب التربية الأسرية نحو حياة أفضل، تحقق من خلالها ما تتمناه طموحا وآمالا وأهدافا.

ونلمس أهمية المكتبة المنزلية ودورها المهم في «القضاء على وقت الفراغ وانحراف الشباب» تجاه أمور يأباها المجتمع وتنفر منها الأسرة، وهذا يتم بتعويد أبناء الأسرة حسب مراحلهم العمرية المختلفة على صنوف القراءة، وبما يتلاءم معهم، مما يجعل المكتبة صديقا وعالما يتعايشون معه في حياتهم اليومية، هذا العالم الذي يكسبهم الرقي الأخلاقي والنضج السلوكي واحترام الذات وصون النفس الآدمية التي أكرمنا بها الله عزوجل، فلا نلقي بها في عالم التهلكة والدمار.

فالمكتبة المنزلية وملازمة الكتاب والولوج في أغواره خير وسيلة للقضاء على الفراغ الذي يتعرض له الشخص ويلقي به في عالم المجهول، ذي العواقب الوخيمة، فخير جلسة وأفضل حوار مع أرفف المكتبة وما عليها من علماء وكتاب وشعراء وشخصيات وثقافات.. مما ينعكس على عالم القارئ ذاته وصداقاته الخارجية التي ستكون صدى لتلك التربية الأسرية الثقافية؛ حيث الهدف والطموح.

وإرضاء الذات بما يتفق وما دعا إليه الدين الحنيف من صقل النفس بالأخلاق وصونها من كل سوء وعبث يشوه هويتها.

وإضافة لما سبق تستطيع المكتبة المنزلية «إيجاد هوية خاصة للأسرة وأفرادها» حيث تساهم المكتبة المنزلية وبما تكتسبه الأسرة وما تنهل من علوم وثقافات في وضع الأسرة موضع الإجلال والاحترام والتقدير، بعد أن سلكت الطريق التربوي السليم وهيأت لنفسها العوامل التي تجبر الآخرين أن تبادلهم وتقدم لها أرقى درجات الاحترام والهيبة والإجلال، وبما يحمل من سمو التعامل المتبادل وأن تجد لنفسها مكانها المميز في محيط مجتمعها، حيث السمعة الطيبة والسيرة العطرة الحسنة، مما يكسبها الهيبة والوقار.

كل ذلك بسبب الرقي العقلي والسلوكي والفكري الذي هو نتاج الدفء المعرفي والثقافي والسمو العلمي بثقافاته المتباينة، إضافة إلى أن المكتبة المنزلية تساعد على تهيئة مناخ صحي يعمل على حسن تصريف الأمور؛ بما تختزن لديها من خلفية معرفية ثقافية تساهم في وضع الأمور في نصابها.

د. محمد طونيو
كلية الآداب والعلوم الإنسانية سايس
فاس - المملكة المغربية

حتى لا يعاندك المراهق

ثمة شبه إجماع لدى المربين على أن سلوكيات فئة عريضة من المراهقين والمراهقات تتسم بضعف التوازن بسبب التمرد والعناد، وبالأخص في المدرسة وفي الأسرة، وهما المؤسستان اللتان تعدان روافد التربية والتثقيف وغرس القيم المؤثرة في المشاعر الإيجابية والسلوك المنتج.

وإذا كان منتظرا تضافر آراء الوالدين والمدرسين على الجهود التربوية ونتائجها المنشودة، بالنظر إلى الهدف التربوي الموحد لكلتا المؤسستين، فإنه من الغريب العجيب أن آراء المربين فيهما تتفق على وصف حالة المراهقين - أقل ما يقال عنها - بأنها ليست على ما يرام.

صحيح أن ثمة عدة وسائط تربوية أخرى ذات تأثير قوي، كالإعلام وشبكة الإنترنت باعتبارها قارة سادسة يختلي فيها المراهقون بعيدا عن واقعهم المعاش. لكن - في تقديري - إن مرد ذلك الانزعاج، الذي يعاني منه المتعاملون مع الرصيد التربوي للمراهقين الذي لا يسمح بتواصل فعال ومؤثر، إلى أسباب متعددة، أركز هنا على السبب الرئيسي، وهو العنف في الصغر واعتماد التسلط والتحكم لفرض الرأي في أجواء مشوبة بالصراخ والنقد الدائم واللوم الذي لا ينقطع، يضاف إلى ذلك التركيز على سلبيات الطفل والغفلة عن إيجابياته. وجدير بالذكر هنا أن العنف لا يقتصر على العقاب والضرب فقط، وإنما يتعدى ذلك إلى فرض الرأي بالتهديد والحرمان من الحاجات النفسية.

لذلك أظن أن المراهق المتمرد يمارس انتقاما ضد أسرته ومدرسته، وذلك بتعمد الانحراف السلوكي والفكري؛ كي يعبر عن نفسه وكينونته لمن يعتبرهم قد مارسوا عليه عنفا سابقا لما كان طفلا، وهو الآن في مرحلة عمرية يشعر بذات مستقلة فوق العنف، قادرة على الرفض والمقاومة؛ لذلك يتصرف من موقعه الجديد وكأنه امتلك القوة المقرونة بالحرية، التي يحقق من خلالها ذاته، كما يرى نفسه قد تجاوز الطفولة وأضحى ينافس الراشدين، إذ يعبر بألفاظ صريحة، أو يلمح بحركات وإشارات عن عدم رغبته في تنفيذ ما يطلب منه قاصدا الانتقام. وهو حينئذ يستحضر ما تعرض له من تعنيف سابق، حيث ينظر إلى المواجهة على أنها معركة وأنانية من الكبار تمنعه من حقوقه واستقلاليته، مما يستلزم في نظره الدفاع عن ذاته. وقد حذر القرآن الكريم من الغلظة والجفاء في معاملة الغير في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ﴾ (آل عمران:١٥٩).

ولا يخفى ما ينجم عن الصدام مع المراهق من مضار مختلفة، منها كرهه لمن سبب له الألم، والعزلة والانطواء، والتغيب عن المدرسة، واختلاق الأعذار للتملص من الواجب. وهي نتائج خطيرة أشار إليها العلامة ابن خلدون، رحمه الله، بالقول: «إن إرهاف (١) الحد في التعليم مضر بالمتعلم، سيما أصاغر الولد، ومن كان مرباه بالعسف (٢) والقهر من المتعلمين سطا به القهر وضيق على النفس في انبساطها وذهب بنشاطها ودعاه إلى الكسل وحمل على الكذب والخبث، وهو التظاهر بما في ضميره خوفا من انبساط الأيدي بالقهر عليه (...) فينبغي للمعلم في متعلميه والوالد في ولده أن لا يستبدوا عليهم في التأديب» (٣).

وهنا يقترح أغلب المهتمين والباحثين في قضايا المراهقة بإجراء حوارات مع المراهقين، وهو توجيه مطلوب، إلا أن السؤال الملح هنا: لماذا - غالبا - تكون ثمة صعوبات تضعف هذا الحوار أو تحد من فعاليته، وبالأخص إذا لم يكن الراشد يمتلك ما يكفي من المهارات والقدرات المنهجية لتدبير الاختلاف مع المراهق؟

الذي يبدو لي كجواب بديهي، أن المراهقين المعاندين لم يتعودوا على الحوار ولم يدركوا قيمته وقواعده، لذلك هم يختارون أسهل المسالك وهو ألا يتواصلوا، وبذلك يحافظون على مواقعهم ومواقفهم الرافضة والمستعدة للصدام الانفعالي. وهي وضعية لا يمكن أن تجد حلولا عملية لها إلا بالحوار، والحوار وحده ولا شيء غير الحوار.

لكن مبدأ الوقاية هو الأهم في الحقل التربوي، حيث منذ الصغر يجب على المربين، سواء كانوا أسريين أو مدرسيين أو إعلاميين، أن يدربوا الطفل على الحوار باعتباره الأداة الفعالة لحل المشكلات، فيترعرع في أوساط تقوي عنده المناعة الحوارية التي تؤهله إلى سن المراهقة وقد زاد رصيده في قيم التواصل وضوابطه، وحينئذ يكون اكتسب الكفايات التواصلية التي تفيده في إيجاد الألفة مع الغير والتفاوض معه وفق الآداب الإسلامية، ففي الحديث النبوي: «ما نحل والد ولده من نحلة أفضل من أدب حسن» (٤). ومن ذلك الانتباه إلى السلوكيات المرغوبة عند الطفل، والثناء عليه كي يكررها وتصبح عنده عادة، ومنها أسلوب الحوار العائلي الناجح.

وليس من شك في أن هذا المنهج هو الكفيل بإعداد مراهق يقدر ذاته، ويحمل صورة إيجابية عن قدراته وإحساسه بقيمة نفسه بين من حوله، وهي قيم تبعده عن العناد، وتقربه من النضج الفكري والإصلاح السلوكي. وبهذه المقومات يتأهل لتغيير تفكيره وتعديل إحساسه، ثم الانتقال إلى السلوك المنشود المؤسس على قاعدة من المنهج التربوي الأسمى، وصيغتها «بالحوار في الصغر نبني الألفة في الكبر». والله أعلم وأحكم.

الهوامش

١- شدة.

٢ - الظلم.

٣- مقدمة ابن خلدون، ص٥٣٩، تحقيق درويش الجويدي، طبعة ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م، المكتبة العصرية، بيروت.

٤- أخرجه الإمام الترمذي في السنن، كتاب البر والصلة، باب ما جاء في أدب الولد.

أفشوا الثناء.. بين صفوف العاملين

هنادي الشيخ نجيب
كاتبة لبنانية

يقول الشاعر:

يهوى الثناء مبرز ومقصر
حب الثناء طبيعة الإنسان

فهل المطلوب منا - نحن المسلمين - تحطيم هذه النزعات البشرية؟ بل هل المفهوم عندنا تهشيم تلك الكوامن البشرية؟

ولماذا يصادر كثيرون جهود الآخرين، ويقفزون فوق إنجازاتهم، ويتغافلون عن أعمالهم، ويغمضون أعينهم عن مواهبهم، بحجة أن الثناء عليهم سيفسد نفوسهم ويشوش عليهم؟

ألا يوجد من خط وسط بين الثناء والمدح وبين النفاق والمجاملة الكاذبة؟ وكيف نحافظ على التوازن في المدح بين التطرف والاعتدال؟!

قال أحدهم: «ذقت طعم الحياة فوجدت فيها أمرا يسوق لك وللآخرين الإسعاد والسرور، وهذا الأمر هو احترام مواهب الناس، والاعتراف بقدراتهم، وتشجيع طموحاتهم، وعدم مصادرة جهودهم وعدم إلغاء أدوارهم».

قولوا لنا بربكم - قراءنا الكرام - هل يتحقق كل ذلك إلا بكلمات طيبة تثني على الخير في الناس، فتثبتهم عليه، وتحفزهم على الزيادة منه، وتحث غيرهم لينافسوهم في البذل وإحسان العمل؟!

لقد جرت العادة فينا أننا إذا جلسنا مجلسا فأثنى بعضنا على أحد بخير يعلمه منه، قام آخر رافعا صوته مبديا سخطه وغضبه، وقال مستنكرا: «أحثوا التراب في وجوه المداحين، لقد قطعتم عنق صاحبكم، هذا الفعل لا يجوز، ولا يتناسب مع الإخلاص لله»!، ثم سرعان ما يتوجه هذا الغاضب إلى الممدوح، مشككا في نيته، مخوفا إياه من الوقوع في الرياء، معترضا على استبشاره بسماع كلمات الثناء، بدل الخوف على نفسه من العجب والكبرياء..!

لاشك أن مقاومة أضرار المديح

(المبالغ فيه) أشد صعوبة من مقاومة الإساءة والذم.

وقد يتوازن الإنسان عندما يواجه الطعنات، لكنه قد يفقد هذا التوازن عندما يواجه المجاملات والإطراءات.. وهذا ما يدفعنا للبحث عن طريق وسط، ليس فيه إفراط ولا تفريط.

إن المدح والثناء من الأمور التي تسر النفوس، وتحفزها على زيادة العطاء، والاستمرار في الخير، وتبرز وجوه الفضل فيها، وتجعل منهم قدوات يتأسى بهم من حولهم.

المدح المؤدب المقتصد يؤثر في الناس، وهو ليس غريبا في ديننا، ولا مرفوضا بشكل مطلق، بل هو وسيلة فعالة من وسائل التربية المفيدة، إن استخدم في وقته وبمقدار محسوب مدروس.

الثناء، بصدق وأمانة، هو عامل تشجيع وأداة تحفيز للابن في البيت، للطالب في المدرسة، للموظف في المؤسسة، للمتطوع في الجمعية، للعامل في المصنع، وللجندي في المعركة، والمقصود منه، دفع الممدوح إلى الأمام، وإمداده بطاقة معنوية إضافية ليقدم الأحسن والأفضل.

وقد يستعمل المدح عند أقوام حبا وتشجيعا وثناء، وقد يستغله أقوام تكسبا ونفاقا ورياء...

لذلك فقد ورد عن نبينا ﷺ التحذير من التوسع في المدح فقال: «البذاء والبيان شعبتان من النفاق».

أتى بعضهم إلى رجل من الصالحين فرفع بصره إلى السماء قائلا: «اللهم إن هؤلاء لا يعرفونني، وأنت وحدك تعرفني».

وقال سفيان بن عيينة: «لا يضر المدح من عرف نفسه».

نعم، من عرف نفسه، وعرف تقصيره وذنوبه، لن يسكر برشفة مديح أو ثناء. لكن ذلك لا يجيز لنا أن نصادر حقه في أن يستبشر ويفرح بما يسمعه من ثناء الناس.

فقد أخرج مسلم في صحيحه، عن أبي ذر رضي الله عنه، أنه قال: قيل لرسول الله ﷺ: أرأيت الرجل يعمل العمل من الخير ويحمده الناس عليه؟

قال ﷺ: «تلك عاجل بشرى المؤمن».

قال الإمام النووي معلقا: «هذا كله إذا حمده الناس من غير تعرض منه لحمدهم، وإلا فالتعرض مذموم».

وقد ذكر ابن القيم بأن الإخلاص في القلب ومحبة المدح والثناء والطمع فيما عند الناس لا يجتمعان، إلا كما يجتمع الماء والنار.

وفي كتاب الله مدح لأنبياء الله ورسله وأنصارهم وأصحاب كل فضيلة وخير، وفي سنة رسول الله من الأحاديث في مناقب الصحابة ووصف كل واحد منهم بما وصف به من الخصال الجميلة.

ومن هذه الأحاديث قوله ﷺ: «أرأف أمتي بأمتي أبوبكر، وأشدهم في دين الله عمر، وأصدقهم حياء عثمان، وأقضاهم علي، وأقرؤهم أبي، وأمين هذه الأمة أبوعبيدة بن الجراح».

فالمدح المحمود المباح هو أن يقدم المسؤول أو الراعي الثناء على من ولي إدارة مواهبه، وأن يذكر بعض الخير الذي منه، ثم يحفزه بفعل بعض المأمورات، أو ترك بعض المنهيات.

فقبل أن يوجه رسول الله ﷺ عبدالله ابن عمر إلى قيام الليل قال له: «نعم الرجل عبدالله، لو كان يصلي من الليل»، فكان بعد لا ينام من الليل إلا قليلا.

وكذلك مدح النبي ﷺ عمر بن الخطاب في حضوره فقال له: «ما رآك الشيطان سالكا فجا إلا سلك فجا غير فجك».

وقد علق ابن حجر العسقلاني على هذه الرواية قائلا: «وهذا من جملة المدح، لكنه لما كان صدقا محضا وكان الممدوح يؤمن معه الإعجاب والكبر، مدح به، ولا يدخل ذلك في المنع».

هكذا وازن العقلاء بين الثناء المقتصد والمدح الصادق، وبين مداراة النفوس والحرص على صفائها وإخلاصها..

هكذا فهموه: لا إغفال لمواطن الخير في الناس حد التجاهل، ولا مبالغة في الإطراء والمجاملة، حد النفاق.

ومع وجود ما يسمى بالنفاق الاجتماعي والاستغلال الكلامي، لابد أن نحذر القارئين من تلك الفئة المتجاوزة.. فمن مدحك بما ليس فيك في رضاه، ذمك بما ليس فيك في غضبه.

ورحم الله القائل: «من مدح الرجل بغير ما فيه، فقد بالغ في ذمه».

على أن لا نتفاجأ من وجود فئة ثانية ترى الخير لكنها تبحث فيه عن ألف شر:

ومن يك ذا فم مر مريض
يجد مرا به الماء الزلالا!

نموذج للمدارس الرائدة

مَدْرَسَةُ الأَمْرِ الأَوَّل "ILKEMIR"

استطلاع : تركي النصر

خلال رحلتها العلمية إلى مدينة إسطنبول التاريخية، حيث يفوح عبق العلم والحضارة الإسلامية، في مدينة شهدت عزة الإسلام وقوة الخلافة؛ زارت مجلة «الوعي الإسلامي» مدرسة «الأمر الأول» يوم الاثنين ٤ مايو ٢٠١٥م قبيل صلاة الظهر، والتقى رئيس التحرير الأستاذ فيصل يوسف العلي بمدير المدرسة الأستاذ سعد الدين إيكاي، الذي اصطحب رئيس التحرير في جولة مؤثرة في أرجاء هذا الصرح الشامخ، الذي يمثل واحدا من الآثار الطيبة لثقافة الوقف في المجتمع التركي.

أصل التسمية

لقد انتقى القائمون على هذا المشروع العلمي الرائد اسم المدرسة بدقة، حيث يعبر عن المقصد الأسمى للأمة الإسلامية وهو العلم والثقافة.

والأمر الأول هو «اقرأ»، أول أمر من الله جل وعلا لنبيه محمد ﷺ جاء مسطرا في قوله تعالى: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ۝١﴾ (العلق:١).

نشأة المدرسة وأهدافها

لعل ما يميز هذه المدرسة الرائدة أنها أنشئت مستقلة، لا تتبع أي جمعية، وإنما كان إنشاؤها لأمر عظيم رسمه القائمون على تأسيسها لإفادة دينهم ومجتمعهم.

ومن أهم من أهم أهداف المدرسة استغلال طاقات الطلاب الأذكياء لتكون في خدمة دينهم وبلدهم.

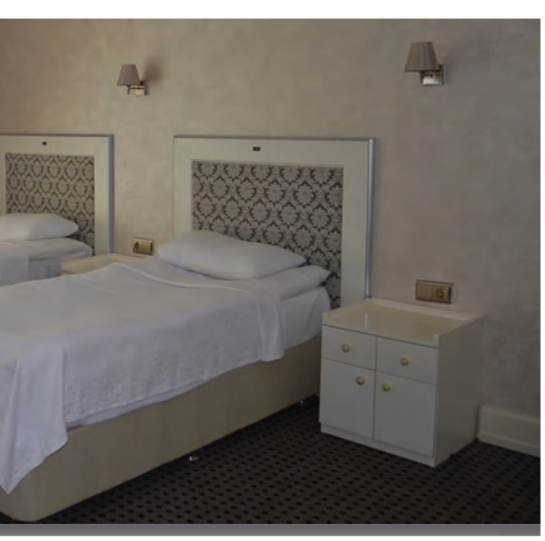

رئيس التحرير يتوسط مسؤولي المدرسة

وتنمية العقول النيرة، والحفاظ عليها من الهجرة.

وكذلك إعادة التجربة القديمة التي كانت متبعة في الدولة العثمانية، وهي: العناية بالطلاب الأذكياء وتخريجهم علماء لخدمة أمتهم.

وتخريج نخبة من المتميزين تأسسوا تأسيسا صحيحا على مبادئ الدين الإسلامي والأخلاق الحميدة.

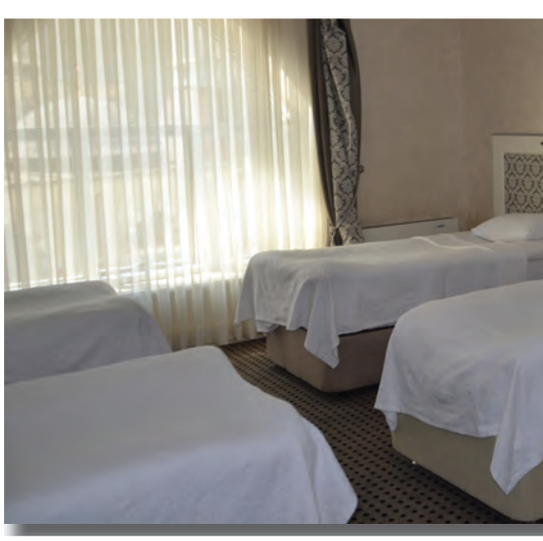

اختيار الطلاب

تقوم إدارة مدرسة «الأمر الأول» – التي تعتني بتدريس طلابها وإعدادهم بالمجان – باختيار الدارسين فيها وفق ضوابط محددة منها:

عمل مسح شامل وزيارات مكثفة لعموم المدارس، والتركيز على مدارس الأئمة والخطباء المتوسطة.

ومقابلة الطلاب الراغبين، واختبار قابليتهم للتعليم، وإجراء اختبار القدرات.

واختيار ٢١٦٢ طالبا، كإجراء مبدئي، وعمل اختبار تصفية أولية لهم، واختيار ٥٠٧ طلاب منهم.

وكذلك دعوة الطلاب المختارين إلى مقر المدرسة، وإجراء مقابلة خاصة لكل طالب، مدتها ساعتان، وفق نظام اختبار «wisc-r» الأميركي المعمول

به منذ مئة عام.

● بعد إجراء هذه الاختبارات والمقابلات الخاصة لعموم الطلاب، والتي استمرت أربعة أشهر ونصف الشهر، تم اختيار ١٠٣ طلاب من أصل ٥٠٧.

● تم تقسيم هؤلاء الطلاب إلى مجموعات.

● تمت المراقبة العلمية والنفسية للطلاب لاختبار التوجهات العلمية أو المهنية لديهم.

● مراقبة ميول الطلاب (الأدبية، الرياضية، القيادية، الفكرية...).

● ثم تم عمل اجتماع لأستاذة الطلاب الذين أشرفوا عليهم عن قرب (من الحضانة إلى المتوسطة)، ودعوة الأهالي، وتم اختيار ٨٥ طالبا من أصل ١٠٣ كتصفية نهائية.

منهج التعليم في المدرسة

تتبع مدرسة «الأمر الأول» نظام منهج التعليم المزدوج المكثف، حيث تقوم بتدريس المنهج الحكومي في الفترة الصباحية، وتدريس العلوم الإسلامية في فترة ما بعد العصر، وذلك من خلال توزيع الطلاب على قاعات مجهزة لجميع التخصصات، وسميت كل قاعة باسم عالم من علماء المسلمين؛ ليكون قدوة لهؤلاء الطلاب.

ومن الأهداف الأساسية في العملية التعليمية تنمية الشعور الإيماني لدى الدارسين، حيث يهدف القائمون على العملية التدريسية إلى تحفيظ الطلاب القرآن الكريم خلال خمس سنوات، حيث يحفظ الطالب في الصيف مئة صفحة من المصحف، إضافة إلى دراسة «الفقه والأخلاق والتفسير والحديث واللغة العربية».

ويهتم القائمون بالمنهج الإسلامي الديني فيها؛ حيث يخرجون طلابا في المرحلة الثانوية يكونون بقوة طلاب كلية الشريعة، وربما أقوى،

حيث يكون الطالب المتخرج مؤهلا لمرحلة الماجستير مباشرة.

وتحتوي المدرسة على جميع الأقسام الدراسية حتى المتوسطة، وهي الآن بصدد افتتاح المدرسة الثانوية التي تم تأسيس بنائها على أرض وقفية بمساحة ٢٠٠ الف متر مربع.

أما بالنسبة إلى اختيار التخصصات الجامعية، فيتم اختبار ميول الطلاب فيما بعد المرحلة الثانوية.

وأما عن إقامة الطلاب ومبيتهم فإنه قد تم تخصيص سكن للطلاب يليق بهذا المشروع الرائد، وهو سكن داخلي، يعد بمنزلة سكن فندقي راق من حيث الترتيب والنظافة اللذين يدرب الطلاب عليهما. ويهدف القائمون أيضا من إقامة الطلاب في هذا السكن إلى تنشئتهم على نظام إسلامي دقيق.

وتمنح إدارة المدرسة إجازة أسبوعية للطلاب لزيارة أهلهم؛ حيث يغادرون المدرسة ظهر السبت، ويعودون إليها مساء الأحد؛ لكي يعدوا أنفسهم لاستئناف دراستهم صبيحة الاثنين.

ومما تجدر الإشارة إليه أن العناية الفائقة التي توليها المدرسة، لا تقتصر على الطلاب فقط؛ بل تمتد لتشمل عائلاتهم، فإذا كانت هذه العائلة فقيرة وبحاجة إلى العناية المادية والاجتماعية؛ أولتها المدرسة العناية اللازمة.

ومن خلال جولة ميدانية بصحبة مدير مدرسة الأمر الأول السيد سعد الدين؛ في جنبات المدرسة ومرفقاتها، اتضح لنا الدقة في بنائها لتكون مؤسسة تعليمية نموذجية من حيث مراعاتها لأدق تفاصيل الترتيب والأمن والسلامة.

وخلاصة القول: تعتبر هذه المدرسة نموذجا خاصا للمدارس العلمية التربوية الرائدة التي تهدف إلى نشر العلم الحديث مكتسيا بثوب من الثقافة الإسلامية والأخلاق الحسنة.

إعداد : خالد خلاوي

الداعية د. عصام الروبي: الشباب كنز الأمة المخبوء

أكد الداعية د. عصام الروبي، أن الشباب مرحلة الحرث والجد والاجتهاد، ويحصد لاحقا ما اجتهد فيه طوال تلك الفترة، موضحا أن الشاب إن لم ينل حظا وافرا من التعليم وحسن الثقافة في هذه المرحلة فمتى يتعلم؟ وإذا لم ينتج ويزرع في تلك الفترة فمتى يفعل؟ مشيرا في حواره مع «الوعي الشبابي»، أنه يهتم خلال مناقشته مع الشباب بموضوعات الرقائق التي تأخذ بقلوبهم نحو الرقة وتحببهم في رحمة الله، فإلى نص الحوار:

● ما أبرز الموضوعات التي ناقشتها ولاقت صدى بين الشباب؟

– الموضوعات التي يتقبلها الشباب بقبول حسن هي موضوعات الرقائق التي تأخذ بقلوبهم نحو الرقة التي تحببهم في رحمة الله الواسعة، وأظن أنه ليس من الحكمة أن نتكلم مع الشباب وهم في فترة القوة والعنفوان عن مظاهر الترهيب والتخويف، فالشاب أحوج ما يكون أن نحببه في ربه، ونعلمه كيف يحب دينه ونبي الله، ومجتمعه ووطنه.

● وما أبرز المخاطر التي تهدد الشباب المسلم في الوقت الحالي؟

– هنالك عقبات كثيرة تهدد الشباب، أولا مسألة الإلحاد التي أطلت برأسها الخبيث، ولابد أن نتصدى لها وأن نواجه هؤلاء العابثين الذين يقولون إنه لا إله وأن هذا الكون خلق عبثا!!، وأيضا هناك التطرف الفكري الذي ينشأ نتيجة عدم فهم النصوص الإسلامية فهما صحيحا، أو الجهل المركب؛ كل هذا يؤدي إلى التطرف، وبالتالي علينا أن نجفف منابعه الفكرية ونواجه الفكر بالفكر والحوار.

● كيف يقي الشباب أنفسهم من الإحباط والتشاؤم؟

– الأمر يتوقف على الإيمان، فإذا كان لديهم إيمان قوي بحرارة متمكنة في القلب، ستكون النفوس سوية، راضية، مرضية، حرة، عزيزة أبية، ولا يمكن أن يتسلل إليه الجزع أو الخوف أو القلق، أو الاكتئاب أو التقلبات المزاجية، بينما أي شاب يسرف على نفسه وينحرف في المسار اللاأخلاقي ويتعدى حدود الله، يصاب بتقلبات مزاجية عالية، وحالة من القلق والضيق والنكد والكرب، وصدق الله تعالى إذ يقول ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ﴾ (طه:١٢٤).

● إدمان التكنولوجيا سبب في انعزال كثير من الشباب عن العالم حوله. كيف يمكن حل ذلك؟

– التقدم العلمي التقني الذي أذهل الشباب، كما أذهل غيرهم، فرض نفسه على الساحة فرضا لا يمكن أبدا أن نتغافل عنه، فهذه وسيلة من وسائل التقدم؛ خيرها خير، وحسنها حسن، وقبيحها قبيح، لكن علينا أن نرشد الوقت ونحن نتعامل مع هذا التقدم العلمي التقني، هذا من خلال الدور المنوط بالأبوين نحو أبنائهم، فلابد أن تكون هنالك مراقبة أسرية ومجتمعية ومدرسية، وتعليمية، وثقافية، ويجب أن تكون هنالك مراقبة دولية على ما ينشر في هذه الوسائل، لأنها تغرس قيما في نفوس الشباب، وإذا كانت إيجابية فسيرتقي المجتمع ويتقدم، وإذا كانت سلبية فلاشك أن ثمارها ستكون مرة تعود مرارتها على الفرد والمجتمع وكل من حوله.

● كيف تعلم نفسك بنفسك؟

الآن أصبحت مصادر التعلم كثيرة، عربية، وغير عربية، العديد من الجامعات العريقة والمراكز التعليمية تتيح مواد تعليمية على مواقعها على شبكة الإنترنت. حدد أولا ما تريد أن تتعلمه، ولماذا تريد أن تتعلم ذلك؟.

وإن كنت تريد أن تصبح متعلما ذاتيا قادرا على الحصول على المعلومات من المصادر المختلفة، ومعالجتها، والإبقاء عليها وفهمها دون الحاجة لشخص يقوم بشرح المعلومات لك، فعليك اتباع هذه الخطوات:

١- أوجد الدافع

لابد من التأكد من وجود الدافع في التعلم، والرغبة في اكتساب المعلومات، تأكد من أنك فعليا تريد أن تتعلم من أجل التعلم، أوجد السبب والدافع وراء التعلم، اسأل نفسك في البداية، ماذا تريد أن تتعلم؟، ثم لماذا؟

٢- ابحث عن المعلومات التي قد تحتاجها للتعلم

الآن، انظر في المعلومات المتاحة لديك، فإن كانت لا تكفي فابحث عن المزيد من المعلومات، اجمع كل ما قد تحتاج إليه لاحقا، جميع الكتب، ملفات الفيديو، والمواد التي تستخدمها، البعض لا يفضل جمع كل المعلومات، ويفضل البحث عما يحتاجه في كل مرة يقوم فيها بعملية التعلم.

٣- ابدأ في التعلم

الآن بعدما أصبح لديك المعلومات اللازمة، قم بالبدء في التعلم، افهم المعلومات جيدا، ابدأ تدريجيا ولا تتسرع.

٤- ابدأ في الممارسة والتطبيق

إن كنت تريد تعلم التصميم، أو البرمجة، أو غيرها من الأشياء التي تتطلب الممارسة، قم بالممارسة وتطبيق

المعلومات والخبرات التي تعلمتها، هذا بالتأكيد لا يمنع من الإبداع، والتجديد، لكن الممارسة هي جزء مهم جدا لا يمكن التخلي عنه لإتمام عملية التعلم الصحيحة.

٥- تركيز الوقت في التعلم

لابد من إنفاق المزيد من الوقت في عملية التعلم، إن إتقان أي شيء يترتب على الوقت الممنوح له، فلا تترك يوما يمضي دون التعلم أو الممارسة والتطبيق ولو قليلا من الوقت.

٦- نظم عملية التعلم الخاصة بك

لابد من التنظيم، والتحضير لما ستتعلمه في المرة القادمة، فالتنظيم من الخطوات الأساسية نحو النجاح.

«طالب».. تجربة لشاب كويتي استفاد منها ٥١٤ ألف مستخدم

بعد مرور خمس سنوات على انطلاقتها باتت المبادرة الوطنية للتعليم الإلكتروني (طالب) تجربة رائدة متعددة الأبعاد لاسيما في التواصل بين الأضلاع الأربعة للمنظومة التربوية. وحقق هذا المشروع التفاعلي الذي أطلقه شاب كويتي انتشارا واسعا في دولة الكويت غطى أكثر من ٥٠٠ مدرسة في مختلف المناطق التعليمية وشمل نحو ٥١٤ ألف مستخدم.

ولم تتوقف هذه المبادرة عند نظامها الأول لدى إطلاقها بل وصلت إلى النسخة السادسة حيث يمكن الولوج إلى هذا النظام عبر تطبيقات الهواتف النقالة والأجهزة اللوحية الذكية، وما أضفى عليها خصوصية أخرى هي الرعاية التي تحظى بها من كلية علوم وهندسة الحاسوب بجامعة الكويت.

وعن هذا المشروع قال عميد الكلية الدكتور فواز العنزي: إن الكلية دعمت هذه المبادرة في العام الدراسي ٢٠١٣/٢٠١٤م وتبنتها بغية المساهمة في تطويرها وجعلها منتجا منافسا عالميا وليس إقليميا فحسب.

وأضاف الدكتور العنزي أن الكلية لاحظت أن البرنامج وصل إلى مراحل متقدمة في التعليم الإلكتروني، بل بات أحد أكثر البرامج الناجحة في الإقليم العربي، وأصبحت الكلية الهيئة العلمية الراعية للمبادرة، وتم تطوير نظامها إلى النسخة السادسة منه ليطبق في أكثر من ٥٠٠ مدرسة.

ولفت إلى أن المبادرين أنشأوا تطبيقا للهواتف الذكية تحت مسمى «طالب» يقدم خدمات كثيرة تتعلق بالطالب وولي الأمر والمعلم والإدارات المدرسية بحيث يمكن متابعة السجل اليومي للطالب بكل سهولة ويسر.

طالب Taaleb
المربع الإلكتروني للتعليم المتكامل
E-square for integrated education

طالبات يبتكرن تقنية لتخليص الكبار من سلس البول

صمم عدد من طلاب وطالبات السنة النهائية في بكالوريوس الهندسة بجامعة خليفة، مجموعة مشاريع للتخرج، وركزوا فيها على المشاريع التي تخدم مجالات تخصصهم ومنها، الهندسة الطبية، والمجال الصحي، حيث صمم عدد منهم «عضلة صناعية قابضة للجهاز البولي».

وبحسب ما أفادت جامعة خليفة فقد صممت كل من الطالبات، سارة حمودة، وانتصار العامري، وهبة أبوسل، ولطيفة الزعابي، من تخصص الهندسة الطبية الحيوية، وملوك العامري، من الهندسة الميكانيكية، «عضلة صناعية قابضة للجهاز البولي»، يستفيد منها كبار السن والسيدات الحوامل، ممن يشكون من سلس بولي بسبب ضعف العضلة القابضة في الجهاز البولي.

وأوضحت الطالبات، أنهن بحثن على الإنترنت ووجدن خمسة أجهزة موجودة في هذا المجال، ولكن كل جهاز له مشاكل خاصة فيه، ومنها تمزق الأنسجة في حال وجود ضغط عال، واستطاعت الطالبات تخطي هذه المشكلة، حيث إن الطبيب يتحكم بضغط العضلة، التي تعمل بالإشارة الإلكترونية.

وأضافت الطالبات، أنهن قدمن للحصول على براءة اختراع، بعد أن استشرن مجموعة من الأطباء المختصين ونصحوهن بعدد من التعديلات على الجهاز، سيعملن على تطويره وتحسينه بها قريبا.

كنوز الذاكرة .. ركن نرجع فيه بالقارئ الكريم إلى بدايات القرن الماضي وما تلاه، نقرأ لعباقرة ذاك الزمان، بحروف وطباعة تلك الأيام، حتى نعيش معا الذكرى بشكلها ومضمونها.

مبتدعات القراء
فى قراءة القرآن الكريم

من حق القرآن على قرائه أن يلتزموا قوانينه التى نزل بها، وأمر الله بها رسوله الكريم، بقوله تعالى « ورتل القرآن ترتيلا »، وألا يحيدوا عنها إلى مااستحدثه أهل البدع والأهواء من أنغام وألحان؛ فقد حذر رسول الله صلى الله عليه وسلم من ذلك فقال « اقرءوا القرآن بلحون العرب، وإياكم ولحون أهل الفسق والكبائر، فإنه سيجىء أقوام من بعدى يرجعون القرآن ترجيع الغناء والرهبانية والنوح، لا يجاوز حناجرهم، مفتونة قلوبهم وقلوب الذين يعجبهم شأنهم »

وقد ابتدع القراء فى القراءة أشياء كثيرة، لا تحل ولا تجوز، لأنها تكون فى القراءة؛ إما بزيادة عن الحد الوارد، أو بنقص عنه، بواسطة الألغام، التى اتبعوها لقصد صرف الناس إلى سماعهم، والإصغاء إلى نغماتهم.

فمن ذلك: القراءة بالألحان المطربة المرجعة، كترجيع الغناء، فإن ذلك ممنوع؛ لما فيه من إخراج التلاوة عن أوضاعها، وتشبيه كلام رب العزة بالأغانى، التى يقصد بها الطرب، وستأتى جملة من أقوال العلماء فى ذلك، فى باب خاص إن شاء الله تعالى.

ومنها: القراءة بالترقيص، ومعناه: أن الشخص يرقص صوته بالقرآن، فيزيد فى حروف المد حركات، بحيث يصير كالمتكسر الذى يفعل الرقص. وقال بعضهم: هو أن يروم السكت على الساكن، ثم ينفر عنه، مع الحركة، فى عدو، وهرولة.

ومنها: القراءة بالتحزين؛ وهو أن يترك القارىء طباعه وعادته فى

مجلة كنوز الفرقان

صدرت بتاريخ ١٣٦٨ - ١٣٧٢ هـ عن الاتحاد العام لجماعة القراء بمصر، مجلة علمية دينية ثقافية؛ تعنى بعلوم القرآن الكريم، كان رئيس تحريرها: الشيخ علي محمد الضباع شيخ عموم المقارئ المصرية رحمه الله، وقد صدر العددان الأول والثاني منها في محرم / صفر سنة ١٣٧٢هـ الموافق: أكتوبر سنة ١٩٥٢م.

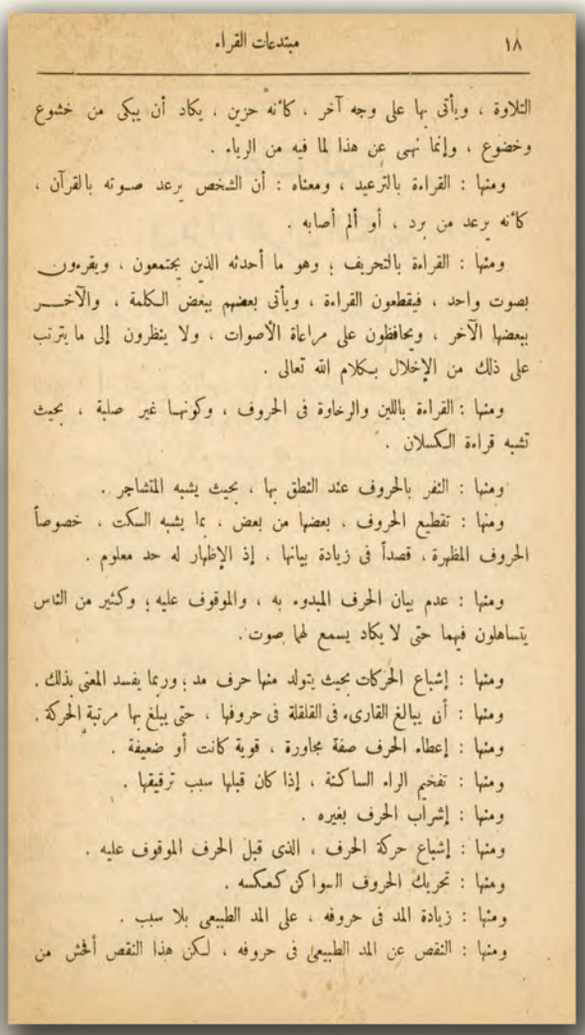

١٨ مبتدعات القراء

التلاوة ، ويأتي بها على وجه آخر ، كأنه حزين ، يكاد أن يبكي من خشوع وخضوع ، وإنما نهى عن هذا لما فيه من الرياء .

ومنها : القراءة بالترعيد ، ومعناه : أن الشخص يرعد صوته بالقرآن ، كأنه يرعد من برد ، أو ألم أصابه .

ومنها : القراءة بالتحريف ، وهو ما أحدثه الذين يجتمعون ، ويقرءون بصوت واحد ، فيقطعون القراءة ، ويأتي بعضهم ببعض الكلمة ، والآخر ببعضها الآخر ، ويحافظون على مراعاة الأصوات ، ولا ينظرون إلى ما يترتب على ذلك من الإخلال بكلام الله تعالى .

ومنها : القراءة باللين والرخاوة في الحروف ، وكونها غير صلبة ، بحيث تشبه قراءة الكسلان .

ومنها : النفر بالحروف عند النطق بها ، بحيث يشبه المتشاجر .

ومنها : تقطيع الحروف ، بعضها من بعض ، بما يشبه السكت ، خصوصاً الحروف المظهرة ، قصداً في زيادة بيانها ، إذ الإظهار له حد معلوم .

ومنها : عدم بيان الحرف المبدوء به ، والموقوف عليه ؛ وكثير من الناس يتساهلون فيهما حتى لا يكاد يسمع لهما صوت .

ومنها : إشباع الحركات بحيث يتولد منها حرف مد ؛ وربما يفسد المعنى بذلك .

ومنها : أن يبالغ القارىء في القلقلة في حروفها ، حتى يبلغ بها مرتبة الحركة .

ومنها : إعطاء الحرف صفة مجاورة ، قوية كانت أو ضعيفة .

ومنها : تفخيم الراء الساكنة ، إذا كان قبلها سبب ترقيقها .

ومنها : إشراب الحرف بغيره .

ومنها : إشباع حركة الحرف ، الذي قبل الحرف الموقوف عليه .

ومنها : تحريك الحروف السواكن كعكسه .

ومنها : زيادة المد في حروفه ، على المد الطبيعي بلا سبب .

ومنها : النقص عن المد الطبيعي في حروفه ، لكن هذا النقص أفحش من

الشيخ الضباع

هو نور الدين علي بن محمد الملقب بالضباع؛ شيخ عموم المقارئ بالديار المصرية؛ إمام مقدَّم في علوم القرآن، ممن أخذ عنه القراءات العشر الشيخ عبدالعزيز عيون السود، والشيخ أحمد حامد الريدي التيجي شيخ القراء بمكة المكرمة.

توفي العلامة الضباع بعد حياة حافلة بالخدمات الجليلة لكتاب الله العزيز في ١٤ رجب ١٣٨٠ هـ.

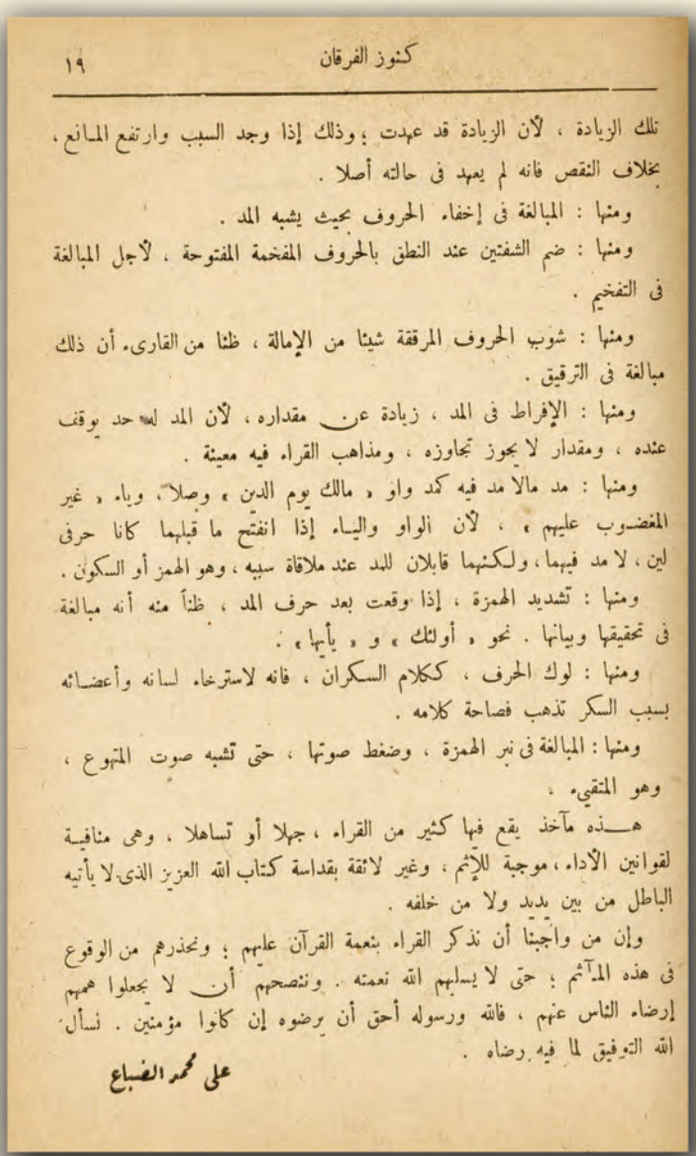

كنوز الفرقان ١٩

تلك الزيادة ، لأن الزيادة قد عهدت ؛ وذلك إذا وجد السبب وارتفع المانع ، بخلاف النقص فانه لم يعهد في حالته أصلا .

ومنها : المبالغة في إخفاء الحروف بحيث يشبه المد .

ومنها : ضم الشفتين عند النطق بالحروف المفخمة المفتوحة ، لأجل المبالغة في التفخيم .

ومنها : شوب الحروف المرققة شيئا من الإمالة ، ظنا من القارىء أن ذلك مبالغة في الترقيق .

ومنها : الإفراط في المد ، زيادة عن مقداره ، لأن المد له حد يوقف عنده ، ومقدار لا يجوز تجاوزه ، ومذاهب القراء فيه معينة .

ومنها : مد مالا مد فيه كمد واو « مالك يوم الدين » وصلا ، وياء « غير المغضوب عليهم » ، لأن الواو والياء إذا انفتح ما قبلهما كانا حرفي لين ، لا مد فيهما ، ولكنهما قابلان للمد عند ملاقاة سببه ، وهو الهمز أو السكون .

ومنها : تشديد الهمزة ، إذا وقعت بعد حرف المد ، ظناً منه أنه مبالغة في تحقيقها وبيانها . نحو « أولئك » و « يأيها » .

ومنها : لوك الحرف ، ككلام السكران ، فانه لاسترخاء لسانه وأعضائه بسبب السكر تذهب فصاحة كلامه .

ومنها : المبالغة في نبر الهمزة ، وضغط صوتها ، حتى تشبه صوت المتهوع ، وهو المتقيء .

هذه مآخذ يقع فيها كثير من القراء ، جهلا أو تساهلا ، وهي منافية لقوانين الأداء ، موجبة للإثم ، وغير لائقة بقداسة كتاب الله العزيز الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه .

وإن من واجبنا أن نذكر القراء بنعمة القرآن عليهم ؛ ونحذرهم من الوقوع في هذه المآثم ؛ حتى لا يسلبهم الله نعمته . ونصحهم أن لا يجعلوا همهم إرضاء الناس عنهم ، فالله ورسوله أحق أن يرضوه إن كانوا مؤمنين . نسأل الله التوفيق لما فيه رضاه .

علي محمد الضباع

إعداد : د. عمرو عبد الكريم

موضوع العدد

معركة الوعي: سؤال التغريب

تعود جذور المعركة الحضارية الضارية بين العالمين العربي الإسلامي والعالم الغربي الاستعماري التوسعي إلى أكثر من قرنين من الزمان، حاول فيهما العالم الغربي فرض التغريب، أو إن شئنا الدقة «غربنة» العالم كله، بما فيه العالم الإسلامي، وفرض منهجه وطريقته في الحياة على شعوبه.

وربما كان سلاح الوعي أحد أهم أسلحة تلك المواجهة الحضارية: وعي الذات ووعي الآخر، وإدراك الفروقات الحضارية، ومناطق الفراغ والثغرات، التي تسرب منها تيار التغريب، ليس على مستوى التطبيق والأدوات والمنتجات، بل على مستوى الأفكار والمناهج والتصورات.

انتهت حروب الفرنجة، المعروفة في كتب التاريخ باسم «الحروب الصليبية» (وهو تعبير في تصورنا مضلل، فمصطلح الحروب الصليبية كمصطلح الصهيونية كلاهما يستخدمان ديباجات دينية لشحذ همم العوام في الديانتين لتحقيق أهداف سياسية واستعمارية) التي كانت تستهدف الغزو المباشر لديار المسلمين ومحاولة استنزاف خيراتها وثروات شعوبها. وكان من أهم نتائجها اكتشاف أهمية توظيف المعارف الدقيقة عن ديار المسلمين: لغة وعادات وثقافات وتقاليد، فكان ظهور علم الاستشراق.

وفي الغزوة الغربية الحديثة كان التغريب أهم أسلحة حركة استعمار العالم الإسلامي، فمن دون معلومات دقيقة عن أوضاع المسلمين وثغراتهم المنكشفة لا يمكن اقتحام تلك الحصون المنيعة، فكانت أهداف حركة التغريب جوهرها فتح الحصون من داخلها، والحصون لا تفتح إلا من داخلها.

فنشأ تيار التغريب، وهو تيار فكري كبير ذو أبعاد سياسية واجتماعية وثقافية وفنية، يرمي إلى صبغ حياة الأمم عامة، وحياة المسلمين خاصة، بالأسلوب الغربي، وذلك بهدف إلغاء شخصيتهم المستقلة وخصائصهم المتفردة، وجعلهم أسرى التبعية الكاملة للحضارة الغربية.

ومن ثم فجوهر «التغريب» هو: «فرض أنماط وأساليب ومعايير الحياة الغربية» بحيث تكون هي المعايير التي يتم الاحتكام إليها في أي قضية: اجتماعية كانت أو فكرية، سياسية كانت أو اقتصادية.

وربما كانت البدايات الأولى لحركة التغريب في ديار المسلمين حسنة النية إلى حد كبير، فلقد كانت محاولة من العالم الإسلامي لتحديث جيوشه وتعزيز قدراته، سواء أكانت عن طريق الابتعاث أم استقدام الخبراء الغربيين لبناء نهضة حديثة، وذلك لمواجهة الغزوة الضارية التي بدت من رغبة الدول الأوروبية في بسط نفوذها الاستعماري في ديار المشرق.

وعلى مدار قرنين من الصراع ومحاولة التغريب المستمرة، كانت المشكلة الأبرز هي أن العلوم التي تم استجلابها أو ابتعاث الطلاب لتحصيلها، هي علوم متحيزة حتى النخاع للنموذج الغربي، فكما يقول أستاذنا الدكتور عبدالوهاب المسيري: تنبع العلوم الإنسانية الغربية من رؤية غربية للعالم، ومن تجربة الإنسان الغربي التاريخية. وقد زعم الإنسان الغربي أن هذه الرؤية «عالمية» و«صالحة لكل زمان ومكان»، وهذا ما يُطلق عليه التمركز حول الذات الغربية، وهذه هي الترجمة الدقيقة لعبارة Euro-centricity.

لقد حملت الأفكار التغريبية مركزية شديدة حول الغرب، وأصبح الانفتاح على العالم هو الانفتاح على الغرب، وأصبح العلم هو ما يجود به هذا العالم على البشرية، في عملية اختزال بغيضة تلاشت فيها كل التكوينات الحضارية التي تشكل ما يطلق عليه «العالم».

ومن ثم، يمكن القول إن مشكلة الغرب من الناحية الحضارية أنه لم يعد غربا وإنما فرض نفسه عالميا.

ومشكلته من الناحية السياسية والاقتصادية أنه صار المركز، وليس أحد أطراف العالم. ومشكلته الفلسفية - وهي المشكلة الأشد إلحاحا - أنه صار المطلق الوحيد في هذا العالم.

والحلول ببساطة أن يعود الغرب غربا، وأن يعود أحد أطراف العالم، وأن يعود نسبيا، أو يستعيد نسبيته ويتخلى عن إطلاقيته.

وهذا لا يمكن أن يتم إلا باستعادة المنظور العالمي والتاريخي المقارن، بحيث يصبح التشكيل الحضاري الغربي تشكيلا حضاريا واحدا، له خصوصيته وسماته وتاريخه، تماما كما أن لكل التشكيلات الأخرى خصوصياتها وسماتها وتاريخها. والمنظور المقارن لا يعني علاقة التأثير والتأثر الشائعة في الدراسات الجامعية، وإنما يعني محاولة الوصول إلى رؤية عالمية حقة من خلال مقارنة البنى الحضارية والتجارب التاريخية المختلفة والنماذج المتعددة، التي تعامل الإنسان من خلالها مع العالم فأبدع أشكالا حضارية خاصة متنوعة لها قوانينها الداخلية، وتتبع إنسانيتها من خصوصيتها لا من خلال اتساقها مع قانون عالمي عام وهمي، هو في نهاية الأمر «قانون غربي». كما يقول أستاذنا الدكتور عبدالوهاب المسيري.

وأتصور أن أي جهد حقيقي لمواجهة تيار التغريب لا يكون بصوغ قصائد الهجاء، وإنما بإبداع حضاري حقيقي، يقدم حلولا لمشكلات المجتمعات المعاصرة، ويجيب على أسئلتها الملحة، وتقديم إبداع فكري متماسك يعبر عن إنسان هذه الأرض وتصوراته الفلسفية ومعتقداته ورؤيته الكلية عن الإنسان والكون والحياة. فالنقد المجرد لا يقدم فكرا، ولا يبني أرضا، ولا يصنع حضارة.

إن التقليد، سواء للأقدمين (اغتراب في الزمان) أو للآخرين (اغتراب في المكان)، لا يصنع حضارة، ولا يرشد نهضة.

والتقليد ضد الإبداع، فالتقليد استلاب، والاستلاب لا يمكن أن يؤدي إلى تقدم على أي مستوى.

فعلى الرغم من أن كثيرا من رموز تيار التغريب قد عادوا وأعلنوا تراجعهم بشكل حاسم عن أفكار التغريب ومفاهيمه، فإن الآلة الإعلامية التي يسيطر عليها هذا التيار نفسه تجاهلت تلك العودة، وأسدلت عليها الستار. ورغم مرور عشرات السنين فإن الناس لا يعرفون إلا مقولات التغريب ورموزه.

وحري بنا، ونحن على هذه الثغرة الثقافية، أن نعمل على استعادة الرموز الوطنية، خصوصا أن العبرة بالخواتيم، وكانت عودتهم صادقة، فيما نحسب، وأعلنوا عن تراجعهم عن كثير مما كانوا يعتقدون ويرجون له، ودفع كثير منهم ثمن هذه الأوبة، وأهيل التراب إعلاميا على مراجعاتهم ونظراتهم النقدية لما كانوا يعتقدون.

فعميد الأدب العربي، أبرز رموز تيار التغريب، أعلن عودته، ونشر ذلك أستاذنا الكبير الدكتور محمد عمارة في كتابه: «طه حسين من الانبهار بالغرب إلى الانتصار للإسلام».

لقد كانت المرحلة الأخيرة من حياة طه حسين هي مرحلة الإياب الصريح والحاسم إلى أحضان العروبة والإسلام، ولقد أفصح طه حسين في تلك المرحلة عن إيابه الروحي إلى الإسلام الدين، وعن قناعته الحضارية بأن العرب والعروبة هما مادة الإسلام.

عاد طه حسين لا ليكون «درويشا» على الطريقة الإسلامية، ولا «درويشا» على الطريقة الغربية، وإنما عاد وآب ليمثل عقلا إسلاميا متألقا، وليقدم نموذجا من نماذج المراجعات الفكرية والتطور الفكري، كما يقول أستاذنا الكبير الدكتور محمد عمارة.

ودفن طه حسين في القبر، الذي أوصى أن يحفر عليه هذا الدعاء النبوي الذي كان أثيرا إلى قلبه، قريبا من لسانه، وهو: «اللهم لك الحمد، أنت نور السموات والأرض، ولك الحمد أنت قيوم السموات والأرض، ولك الحمد أنت رب السموات والأرض ومن فيهن، أنت الحق، ووعدك الحق، والجنة حق، والنار حق، والنبيون حق، والساعة حق. اللهم لك أسلمت، وبك آمنت، وعليك توكلت، وإليك أنبت، وبك خاصمت، وإليك حاكمت، فاغفر لي ما قدمت، وما أخرت، وما أسررت وما أعلنت، أنت إلهي.. لا إله إلا أنت».

ومن أبرز نماذج العودة المباركة عودة أحد أهم مؤسسي التيار التغريبي في مصر خلال القرن العشرين، وهو منصور فهمي، الذي يصل في عام ١٩٣٩م إلى نتائج يرفض فيها كل ما كان يدعو إليه، فكتب يقول: «سبحانك اللهم، فليست بيئتي التي أعيش بها ولها وفيها هي بيئة الغرب (...) وهذا ما ورثناه من عادات ومحن وظروف وصروف غير ما ورث الغرب. أفتكون مكوناتنا غير مكوناته، ومميزاتنا غير مميزاته، وظروفنا وصروفنا غير ظروفه وصروفه. ثم يراد بنا أن نكون كالغربيين، ويحاول داعية صريح أن يقنعنا بأن نتخذ من الغرب إماما نأتم به في كليات ما يسير عليه الغرب وفي جزئياته؟».

ولا يمكن أن ننسى مراجعات مفكر بوزن محمد حسين هيكل، خصوصا ما كتبه في كتابه «في منزل الوحي» عام ١٩٣٦م.

وأحسب أن تلك المراجعات بحاجة إلى دراسة شاملة يكتب لها الذيوع الإعلامي.

في المفاهيم والمصطلحات الحضارية

في مفهوم الحضارة

مفهوم الحضارة عند صمويل هنتنجتون:

«الكيان الثقافي الأوسع، الذي يضم المجموعات الثقافية مثل القبائل والجماعات العرقية والدينية والأمم، ولذا فالحضارة هي بمنزلة القبائل الإنسانية الكبرى».

مفهوم الحضارة عند الدكتور أحمد شلبي:

«وعلى هذا فالحضارة الإسلامية هي ما قدمه الإسلام للمجتمع البشري من فكر يرفع شأنه وييسر أمور حياته. ونقول للمجتمع البشري وليس للمجتمع الإسلامي فحسب، إذ إن الإسلام قدم مآثره للبشر جميعا، وبعض هذه المآثر يتضح مع غير المسلمين أكثر مما يتضح مع المسلمين».

مقولات في الوعي الحضاري

«العلم دون دين أعرج. والدين دون علم أعمى».

(ألبرت أينشتاين)

«استراتيجية الإلهاء هي عنصر أساسي في التحكم في المجتمعات. وهي تتمثل في تحويل انتباه الرأي العام عن المشكلات المهمة والتغييرات التي تقررها النخب السياسية والاقتصادية، ويتم ذلك عبر وابل متواصل من الإلهاءات والمعلومات التافهة».

(نعوم تشومسكي)

«إن وجود الغنى الفاحش بجانب الفقر المدقع في مجتمع واحد، يؤدي إلى الانفجار، عاجلا أو آجلا. ومهما طلي هذا التفاوت في الثروة بطلاء من الدين أو الخلق أو الشرف، فإنه مكشوف في أعين الناس تتقزز منه النفوس».

(علي الوردي)

عرض كتاب

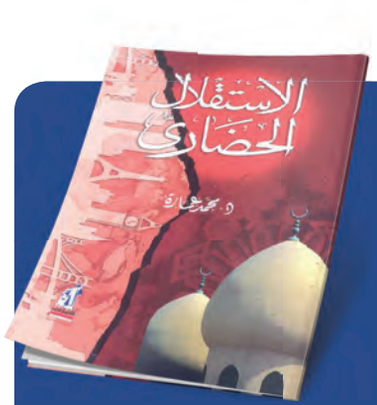

«الاستقلال الحضاري» الدكتور محمد عمارة

يعالج هذا الكتاب قضية محورية من خلال دراسات ثلاث، تمثل أقساما ثلاثة في هذا الكتاب وهي:

١- الاستقلال الحضاري.. وماذا يعني في النهضة المنشودة لأمتنا؟

٢- العلاقة بين «موروثنا» العربي الإسلامي و«الوافد الغربي».

٣- ونموذج تطبيقي لهذه العلاقة، من خلال دراسة موقف واحدة من أعرق مؤسساتنا الفكرية والتعليمية (الأزهر) وموقفها من التغريب والجمود والتجديد.

وصولا إلى الإسلام في بلورة «معالم المشروع الحضاري» الذي ينير لأمتنا طريق الخروج من مأزقها الحضاري، ويناقش هذا الكتاب عددا من القضايا الفكرية الخلافية والشائكة.

ومعالم الهوية العربية الإسلامية. وموقعها من «الثبات» و«التغيير».

والموقف من الحضارات الأخرى: أهو «التفاعل».. أم «التبعية».. أم «الانغلاق»؟

هذا الكتاب محاولة لرصد محاولات المصلحين والمفكرين والمجددين في العصر الحديث للبحث عن «الاستقلال الحضاري» للأمة.. بين أصحاب الجمود وأصحاب فكرة الجامعة الإسلامية، مثل الأفغاني ومحمد عبده وابن باديس والكواكبي..

إنها باختصار: «معالم للنهضة».. ودليل عمل للإقلاع الحضاري.

تعتبر قضية الموقف من الغرب من القضايا الفكرية الخلافية.. ذات إشكالية كبيرة، تكاد أن تصبح ثغرة بين مفكرينا ومثقفينا، فانقسمت أفكارهم ونصوصهم بين «سلفية نصوصية»، تسعى إلى معاكسة قوانين التطور، التي هي سنة من سنن الله في الكون والمجتمع، وتسعى إلى جعل الحاضر والمستقبل في القوالب ذاتها التي صنعها «سلفها الصالح» في عصور الانحطاط والتخلف تحت حكم المماليك.. وتحكم العثمانيين!.. وبين «سلفية نصوصية متغربة» تسعى هي الأخرى إلى جعل حاضرنا ومستقبلنا في القوالب التي صنعها «السلف الغربي»، بدءاً من اليونان القدماء، وحتى نهضة الأوروبيين المحدثين!

وإذا كان الخيار الأول سيقودنا إلى «انغلاق» يقف بنا عند «التخلف الموروث»، الأمر الذي سيجعلنا عاجزين عن تقديم البديل، وإبداع المشروع الحضاري الكفيل لنهضتنا، وتحررنا من قبضة الهيمنة الغربية.. فإن الخيار الثاني سيقودنا إلى «التبعية» للمركز الحضاري الغربي، وهي تبعية يسعى إليها الغرب، ويسمح بها، شريطة ألا تتعدى إطار السلبيات وأمراض نموذجه الحضاري، الذي بدأ بلوغ نهاية الطريق المسدود!

ويسعى الدكتور محمد عمارة من خلال صفحات هذا الكتاب إلى التبشير بطريق ثالث متميز في الصراع الدائر حول الموقف من الحضارة الغربية. طريق التمييز بين الثوابت وبين المتغيرات، طريق النضال من أجل الحفاظ على نقاء الهوية الحضارية للأمة، في وجه محاولات المسخ والنسخ والتشويه التي تمارسها فكرية التغريب وتيار المغتربين... طريق فتح نوافذ العقل على مختلف الحضارات في موقع الراشد المستقل، الباحث عن عوامل القوة، يدعم بها ذاتيته المتميزة ونهضته الحضارية المستقلة... والرافض لكل عوامل الاستلاب لشخصية القومية وللمسات التي ميزت حضارة أمته عبر قرون تاريخها الطويل المجيد.

تلك هي الرسالة التي تحاول الوفاء بها صفحات هذا الكتاب.

فالاستقلال الحضاري يحدث للأمم عندما تتمكن من الاحتفاظ بشخصيتها القومية ونمطها الحضاري، بعد أن تعبر مرحلة جهلها بتراثها وعصورها المظلمة، وأيضا بعد أن تتخلص من انبهارها بحضارة الآخرين وتكتشف تراثها الحضاري وتستلهمه، فتنهض لتجعل حاضرها ومستقبلها امتدادا متطورا لهذا التراث ولا تحاكي غيرها من الحضارات، وهذا ما فعلته أوروبا التي استلهمت نهضتها الحديثة من حضارتنا العربية الإسلامية، وبعد نضجها تخلصت من التصور العربي الإسلامي وعاد مفكروها إلى نصوص تراثهم يستلهمونه ويقومونه، واحتفظت حضارتهم بسماتها ولم تصبح امتدادا لحضاراتنا الإسلامية.

القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٥م، ٢٤٠ صفحة.

إعداد : د. محمود محمد الكبش
عضو هيئة تدريس
جامعة أم القرى - مكة

لعظيم شأن الفتوى في النوازل المعاصرة، وتقريبا للعلم والاستفادة منه؛ استحدثت هذه الصفحة المباركة - في كل عدد - من أجل عرض نازلة معينة، بالوقوف على مصادرها، ومظانها المختلفة، وتجلية صورها، وبيان أحكامها، وأدلتها.

اللحوم المستوردة والذبائح

اللحوم المستوردة من بلاد أهل الكتاب يحل أكلها، إذا توفرت شروطها الشرعية، وأما المستوردة من البلاد المجوسية والشيوعية؛ فيحل أكلها إن كان معها شهادة من جهة إسلامية موثوقة.

وحل مشكلة اللحوم المستوردة يكون بـ: الإكثار من تربية الحيوانات، والعناية بتنميتها، واستيراد ما يحتاج إليه منها، وإنشاء مجازر خاصة بالمسلمين في البلاد التي يراد استيراد اللحوم منها إلى البلاد الإسلامية.

والأصل في التذكية الشرعية أن تكون من غير تدويخ للحيوان، إلا عند العجز عن السيطرة عليه إلا بتدويخه، فتجوز تذكيته بعد التدويخ بشرط ألا يؤدي التدويخ إلى موته لو ترك.

● القرارات، والتوصيات، والبحوث الصادرة من المجامع واللجان الفقهية، والهيئات الشرعية بخصوص هذا الموضوع:

● أولا: ما عرض على لجنة الفتوى الكويتية (ج٢/ص٢٢٧/ف٥٨٨)؛ حول «ما ينبغي مراعاته فيما يستورد من اللحوم»؛ ومما أجابت به:

اللحوم المستوردة من بلاد أهل الكتاب يحل أكلها، إلا إذا تيقن أن ذابحها من غير المسلمين وأهل الكتاب، أو أنها قتلت خنقا أو بصورة غير جائزة شرعا.

وأما اللحوم المستوردة من البلاد المجوسية والشيوعية فيحل أكلها إن كان معها شهادة من جهة إسلامية موثوقة تثبت أنها ذبحت على الطريقة الإسلامية، ولا يحل أكلها إن لم يكن معها مثل تلك الشهادة. والله أعلم.

● ثانيا: صدرت فتوى اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء رقم (٧٢٣٦) حول حل مشكلة اللحوم المستوردة؛ ويتلخص ذلك فيما يأتي:

١- الإكثار من تربية الحيوانات، والعناية بتنميتها، واستيراد ما يحتاج إليه منها إلى المملكة حيا، وتيسير أنواع العلف لها، وتهيئة المكان المناسب لتربيتها وتذكيتها بالمملكة، وبذل المعونة لمن يعنى بذلك من الأهالي؛ شركات أو أفراد تشجيعا له، وتسهيل طرق توزيعها في المملكة.

وكذا الحال بالنسبة لإنشاء مصانع الجبن، وتعليب اللحوم، والزيوت، والسمن، وسائر الأدهان.

٢- إنشاء مجازر خاصة بالمسلمين في البلاد التي يراد استيراد اللحوم منها إلى البلاد الإسلامية، أو المملكة العربية السعودية، ويراعى في تذكية الحيوانات بها الطريقة الشرعية.

٣- اختيار عمال مسلمين أمناء عارفين طريقة التذكية الشرعية ليقوموا بتذكية الحيوانات تذكية شرعية في تلك الشركات، بقدر ما تحتاج المملكة إلى استيراده منها.

٤- اختيار من يحصل به الكفاية من المسلمين الأمناء الخبيرين بأحكام التذكية الشرعية، وأنواع الأطعمة؛ ليشرف على تذكية الحيوانات، وعلى مصانع الجبن، وتعليب اللحوم، ونحوها في الشركات التي تصدر ذلك إلى المملكة العربية السعودية.

وإذا كان اليهود حريصين على أن يكون الذبح متفقا مع عقيدتهم، ومبادئهم؛ فخصصوا لذلك مجازر لهم، وعمالا يذبحون لهم كما يريدون، فالمسلمون أحق بذلك منهم، وأولى أن يستجاب لهم؛ لكثرة ما يستهلكون من اللحوم، ومنتجات المصانع الغربية، وشدة حاجة أولئك إلى تصريف ما لديهم من لحوم ومنتجات أخرى.

● التعليق:

مما نصت عليه لجنة الفتوى الكويتية (ج١٠/ص٣٤٥/ف٣٠٨٠)؛ حول ما يعتقده بعض المسلمين من اشتراط إشراف المراكز الإسلامية على الذبائح في الدول غير الإسلامية: أنه لا أثر لوجود مركز إسلامي أو عدم وجوده من الناحية الشرعية، ولولي أمر المسلمين اشتراط الإشراف على الذبح عن طريق المركز الإسلامي، أو غيره إن رآه ضروريا لتحقيق الشروط المتقدمة.

● ثالثا: صدر قرار مجلس المجمع الفقهي الإسلامي لـ«رابطة العالم الإسلامي» في دورته العاشرة، المنعقدة بمكة المكرمة، والتي بدأت يوم السبت (٤/صفر/١٤٠٨هـ) الموافق (١٧/أكتوبر/١٩٨٧م)؛ وانتهت يوم الأربعاء (٢٨/صفر/١٤٠٨هـ) الموافق (٢١/أكتوبر/١٩٨٧م) بشأن موضوع: «ذبح الحيوان المأكول بواسطة الصعق

الكهربائي»، ومما جاء به:

أولا: إذا صعق الحيوان المأكول بالتيار الكهربائي، ثم بعد ذلك تم ذبحه أو نحره، وفيه حياة فقد ذكي ذكاة شرعية، وحل أكله؛ لعموم قوله تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ﴾ (المائدة:٣).

ثانيا: إذا زهقت روح الحيوان المصاب بالصعق الكهربائي قبل ذبحه، أو نحره؛ فإنه ميتة يحرم أكله، لعموم قوله تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ﴾.

ثالثا: صعق الحيوان بالتيار الكهربائي - عالي الضغط - هو تعذيب للحيوان قبل ذبحه أو نحره، والإسلام ينهى عن هذا ويأمر بالرحمة والرأفة به، فقد صح عن النبي ﷺ أنه قال: «إن الله كتب الإحسان على كل شيء، فإذا قتلتم؛ فأحسنوا القتلة، وإذا ذبحتم؛ فأحسنوا الذبحة، وليحد أحدكم شفرته، وليرح ذبيحته» (رواه مسلم).

رابعا: إذا كان التيار الكهربائي - منخفض الضغط - وخفيف المس بحيث لا يعذب الحيوان، وكان في ذلك مصلحة، كتخفيف ألم الذبح عنه، وتهدئة عنفه ومقاومته؛ فلا بأس بذلك شرعا مراعاة للمصلحة.

● **التعليق:**

١- كذلك أفتت هيئة الفتوى الكويتية (ج١٠/ص٣٤٣/ف٣٠٧٦)؛ حول ما إذا خفضت قوة الصعقة الكهربائية بحيث لا تؤدي إلى قتل الحيوان (صغيرا أو كبيرا)؛ فما حكم استخدام الصعقة الكهربائية في هذه الحالة؟ فأجابت الهيئة بأنه: إذا ثبت بيقين أن الصعق الكهربائي لا يؤدي إلى قتل الحيوان؛ فلا بأس به بشرط ألا يكون في ذلك مزيد تعذيب للحيوان، ولا تقليل نزف الدم منه عند الذبح، فإذا ثبت أنه يؤدي إلى قتل الحيوان ولو بنسبة قليلة أو كان فيه تعذيب أو تقليل لنزف الدم منه؛ فلا يجوز الصعق.

٢- أما بالنسبة للبسملة فقد اختارت لجنة الفتوى الكويتية (ج٢/ص٢٢٤/ف٥٨٤) أنه يجوز إطلاقها على كل مجموعة من الطيور بعضها مع بعض.

وكذلك أكدت لجنة الفتوى على أن الذبح لا يصح إن كان الذابح مجوسيا أو ملحدا، بل لابد أن يكون مسلما أو كتابيا، كما أنه ينبغي ملاحظة عدم إلقاء الطيور في الماء قبل أن تمر على الذبح فترة كافية لزهوق نفوس الطيور.

● **رابعا: صدر قرار مجمع الفقه الإسلامي بجدة في دورته العاشرة عام (١٩٩٧م)؛ رقم: (٩٥ (١٠/٣) بشأن الذبائح؛ حيث تناول المسائل المتعلقة بآلة الذبح سواء القديمة أو الحديثة، ومما جاء فيه تأكيده على مراعاة الأمور الآتية:**

(أ) مراعاة الشروط الفنية التي يتأكد بها عدم موت الذبيحة قبل تذكيتها؛ فإن الحيوانات التي تذكى بعد التذويخ ذكاة شرعية يحل أكلها إذا توافرت هذه الشروط، وقد حددها الخبراء في الوقت الحالي بما يلي:

١- أن يتم تطبيق القطبين الكهربائيين على الصدغين أو في الاتجاه الجبهي- القذالي (القفوي).

٢- أن يتراوح الفولت ما بين (١٠٠ - ٤٠٠ فولت).

٣- أن تتراوح شدة التيار ما بين (٠,٧٥ إلى ١,٠ أمبير) بالنسبة للغنم، وما بين (٢ إلى ٢,٥ أمبير) بالنسبة للبقر.

٤- أن يجري تطبيق التيار الكهربائي في مدة تتراوح ما بين (٣ إلى ٦ ثوان).

(ب) لا يجوز تذويخ الحيوان المراد تذكيته باستعمال المسدس ذي الإبرة الواقذة، أو بالبلطة أو بالمطرقة، ولا بالنفخ على الطريقة الإنجليزية.

(ج) لا يجوز تذويخ الدواجن بالصدمة الكهربائية، لما ثبت بالتجربة من إفضاء ذلك إلى موت نسبة غير قليلة منها قبل التذكية.

(د) لا يحرم ما ذكي من الحيوانات بعد تذويخه باستعمال مزيج ثاني أكسيد الكربون مع الهواء، أو الأكسجين، أو باستعمال المسدس ذي الرأس الكروي بصورة لا تؤدي إلى موته قبل تذكيته.

● **التعليق:**

١- مما يجب اعتقاده في موضوع الصعق، والطرق الحديثة في الذبح: ما نص عليه مجمع الفقه الإسلامي بالسودان قرار رقم ٤ (٢١/٢٨) حول الذبائح في المسالخ الحديثة بأم درمان بأن: الأصل في التذكية الشرعية أن تكون من غير تذويخ للحيوان، إلا عند العجز عن السيطرة عليه إلا بتذويخه، فتجوز تذكيته بعد التذويخ بشرط ألا يؤدي التذويخ إلى موته لو ترك.

٢- مما ينصح به: مراجعة ما أفتت به لجنة الفتوى الكويتية (ج١٠/ص٣٣٨/ف٣٠٧٣) تحت عنوان «فتوى موسعة في الذبح الشرعي»؛ حيث إنها اشتملت على: الأحكام والاشتراطات المطلوبة للذبح على الطريقة الإسلامية، وما فيها من التعاريف المهمة؛ كتعريف الذبح والنحر والعقر، وكذلك: ما يشترط في الحيوان المراد تذكيته، وما يشترط في المذكي، وما يشترط في أداة التذكية، وطريقة التذكية الشرعية، وجملة من التوصيات القيمة.

حرفة العارف

قال بعض الحكماء: «حرفة العارف ستة أشياء: إذا ذكر الله افتخر، وإذا ذكر نفسه احتقر، وإذا نظر في آيات الله اعتبر، وإذا هم بمعصية أو شهوة انزجر، وإذا ذكر عفو الله استبشر، وإذا ذكر ذنوبه استغفر»

(سير أعلام النبلاء ١١/٣٤).

حسبك بمن ترضى به الأصول قدوة

قال العلامة ابن عقيل رحمه الله: «ومن عجيب ما أسمعه من هؤلاء الأحداث الجهال أنهم يقولون: أحمد ليس بفقيه، لكنه محدث، وهذا غاية الجهل؛ لأنه قد خرج اختيارات بناها على الأحاديث بناء لا يعرفه أكثرهم، وخرج عنه من دقيق الفقه ما لا تراه لأحد منهم، وذكر مسائل من كلام أحمد، ثم قال: وما يقصد هذا إلا مبتدع قد تمزق فؤاده من جود كلمته، وانتشار علم أحمد، حتى إن أكثر العلماء يقولون: أصلي أصل أحمد، وفرعي فرع فلان، فحسبك بمن ترضى به الأصول قدوة، وكان يقول: هذا المذهب إنما ظلمه أصحابه...»

(ذيل الطبقات لابن رجب ١/٣٤٧).

من لم يصن نفسه لم يصنه العلم

قال الربيع بن سليمان: سمعت الشافعي يقول: «من حفظ القرآن عظمت حرمته، ومن طلب الفقه نبل قدره، ومن وعى الحديث قويت حجته، ومن نظر في النحو رق طبعه، ومن لم يصن نفسه لم يصنه العلم»

(الإلماع إلى معرفة أصول الرواية وتقييد السماع، ص ٢٢١).

أفضل الزهد

«أفضل الزهد: الزهد في الرياسة على الناس، وفي المنزلة والجاه عندهم، والزهد في حب الثناء والمدح منهم؛ لأن هذه المعاني هي أكبر أبواب الدنيا عند العلماء، فالزهد فيها هو زهد العلماء، وقيل: لا يثبت لأحد مقام في التوكل حتى يستوي عنده المدح والذم من الخلق فيسقطا»

(الوعظ المطلوب للقاسمي، ص٥٧).

ثلاث خصال

قال بعض الحكماء: إن لم يكن في التاجر ثلاث خصال افتقر في الدارين جميعا:

١. أن يكون لسانه نقيا عن ثلاثة: الكذب، واللغو، والحلف.

٢. أن يكون صافيا من ثلاثة: الغش، والخيانة، والحسد.

٣. أن يكون محافظا على ثلاث: الجمعة، والجماعات، وطلب العلم في بعض الساعات.

(شرح لامية ابن الوردي للقناوي، ص ٥٢).

إنما الكلام أربعة

قال أبرويز لكاتبه في تنزيل الكلام: «إنما الكلام أربعة: سؤالك الشيء، وسؤالك عن الشيء، وأمرك بالشيء، وخبرك عن الشيء؛ فهذه دعائم المقالات إن التمس إليها خامس لم يوجد، وإن نقص منها رابع لم تتم؛ فإذا طلبت فأسجح، وإذا سألت فأوضح، وإذا أمرت فأحكم، وإذا أخبرت فحقق، واجمع الكثير مما تريد في القليل مما تقول»

(العقد الفريد لابن عبد ربه الأندلسي، ٢/١٢٦).

قرابة بلا منفعة؛ بلية عظيمة

قال بعضهم: «أما بعد، فإن قرابتك من قرب منك خيره، وابن عمك من عمك نفعه، وعشيرتك من أحسن عشرتك، قرابة بلا منفعة بلية عظيمة، القرابة تحتاج إلى مودة، والمودة تحتاج إلى القرابة»

(محاضرات الأدباء للراغب الأصبهاني، ١/٤٣٥).

رسالة إلى صديق معرض

كتب الأصمعي إلى بعض أصحابه وقد رأى منه إعراضا:

«وكفى بالإعراض حاجبا، وبالانقباض طاردا، ومن مطلك ولو ساعة؛ فقد حرمك. ومن كتم سره عنك؛ فقد اتهمك. ومن صافى عدوك فقد عاداك. ومن عادى عدوك؛ فقد صادقك ووالاك. ومن أقبل بحديثه على غيرك؛ فقد طردك. ومن شكا لك سوءا؛ فقد سألك. ومن سكت عند ذم الناس لك؛ فقد ذمك. ومن بلغك شتمك؛ فقد شتمك. ومن نقل لك؛ فقد نقل عنك. ومن شهد لك؛ فقد شهد عليك. ومن تجرأ لك فقد تجرأ عليك»

(**مسلك الأبصار في ممالك الأمصار**، ٣٣١/٧).

موعظة بليغة

قال ابن الجوزي رحمه الله: «بالغت في وعظ أمير المؤمنين المستضيء بالله العباسي، فمما حكيت له: أن الرشيد قال لشيبان: عظني. فقال: يا أمير المؤمنين، لأن تصحب من يخوفك حتى يدركك الأمن؛ خير لك من أن تصحب من يؤمنك حتى يدركك الخوف. قال: فسر لي هذا!

قال: من يقول لك أنت مسؤول عن الرعية فاتق الله؛ أنصح لك ممن يقول: أنتم أهل بيت مغفور لكم، وأنتم قرابة نبيكم، كان عمر رضي الله عنه يقول: إذا بلغني عن عامل أنه ظلم ولم أغيره؛ فأنا الظالم.. فبكى الرشيد حتى رحمه من حوله.

وقلت له في كلامي: يا أمير المؤمنين، إن تكلمت خفت منك، وإن سكت خفت عليك، فأنا أقدم خوفي عليك؛ لمحبتي لك على خوفي منك».

فتصدق الخليفة المستضيء بالله العباسي بمال جزيل، وأطلق المسجونين، وكسا الفقراء.

(**البداية والنهاية**، ٧٠٩/١٦)

وصف عجيب

قال الشيخ الزاهد أبوعمران موسى بن عمران القيسي الميرتلي رحمه الله تعالى في الهر: «نعم الجليس الهر، لا يخبر ولا يبوح بسر، يحفظ سرك عليك، ولا ينقل عنك ولا إليك، كريم المؤانسة، سليم المجالسة، لا يهمز ولا يلمز ولا يغتاب، ولا صاحبه منه بمرتاب، يحفظه إذا نام، ويطرد عنه الهوام، منافعه كثيرة، ومؤنته يسيرة، فاقتصر عليه أنيسا، واتخذه جليسا، يسلم لك معه دينك ودنياك، فهو أنفع لك من كثير من إخوانك، وأحرس من خدمك وأعوانك»

(**المقتطفات النافعة**، ص ٢٨١).

لا تثق بوعدها

«إذا لم تجرب حال القدرة فلا تثق بالقدرة على الترك عندها، فكم من ظان بنفسه كراهة المعاصي عند تعذرها، فلما تيسرت له أسبابها من غير مكدر ولا خوف من الخلق؛ وقع فيها، وإذا كان هذا غرور النفس في المحظورات؛ فإياك أن تثق بوعودها في المباحات»

(**المقتطفات النافعة**، ص ٢٨١).

أيهما أفضل

قال رجل لابن الجوزي رحمه الله: أيهما أفضل: أن أسبح، أو أستغفر؟ فقال: «الثوب الوسخ أحوج إلى الصابون من البخور»

(**فتح الباري**، ٣٨١/١٢).

النظافة

«ليس من السنة، ولا من الشريعة ما خالف النظافة وحسن الهيئة في اللباس والزينة التي من شكل الرجال للرجال، ومن شكل النساء للنساء»

(**الاستذكار لابن عبدالبر**، ٣٣٠/١).

إعداد: علاء عبدالفتاح

الإسلام الحضاري بوابة العبور لأوروبا

لم تقتصر آثار الجهود الدعوية، التي بذلها المسلمون في عصر الحروب الصليبية تجاه النصارى، على البلاد الإسلامية فحسب، بل امتدت إلى أوروبا نفسها منطلق العدوان الصليبي الحاقد على البلاد الإسلامية، حيث تفاوتت هذه الآثار، قوة وضعفا، بين الجهات الأوروبية.

فمثلا روجر الثاني، أحد ملوك صقلية، الذي استحضر كثيرا من الكتب العربية وأمر بترجمتها وكان يجل العلماء المسلمين ويقدرهم، فكان إذا جاء الإدريسي إلى مجلسه أكرمه واحترمه ووسع له.

ومن ملوك صقلية المعجبين بالحضارة الإسلامية كذلك الإمبراطور فريدريك الثاني، الذي كان متأثرا بكل ما هو عربي، وكان يجيد اللغة العربية كما كانت لغته الأم، وخلال طفولته كان على علاقة بقاضي المسلمين في مدينة باليرمو الذي قدم له عددا من الكتب العربية في مختلف العلوم.

وكان الإمبراطور فريدريك كثير الاتصال بالملك الكامل في مصر بشأن بعض المسائل العلمية، ومن ذلك مثلا إرساله بعض الأسئلة إليه ليجيب العلماء المسلمون عليها. ثم محاوراته العلمية مع أحد سفراء الملك الكامل إليه والذي كان من العلماء المسلمين في مصر.

ومن القادة النصارى الذين أعجبوا بالحضارة الإسلامية بعض ملوك الدول النصرانية في الأندلس، فقد كان الفونسو السادس في طليطلة يحب العلماء المسلمين، بل إن أكثر مستشاريه ومعاونيه من المسلمين، وكذلك ألفونسو العاشر ملك قشتالة كان مقربا للعلماء المسلمين ومستخدما لهم في كثير من المهام.

● عبدالواحد محمد

ليلة مرض سعيدة

هذه هي المرة الأولى التي يمرض فيها مرضا يقعده عن الحركة ويعتصره الألم اعتصارا، حتى وكأن كل عضو من أعضائه يشكو ويألم، ارتفعت درجة حرارته، ولم يعد يشتهي شيئا من أنواع الطعام والشراب، فقد تحول طعم الطعام والشراب إلى مرارة تعلق بحلقه، كان يلزم فراشه ولا يستطيع مفارقته من كثرة الإعياء، وقد تحول الفراش إلى لفحة من النار من تحته، فشلت كل محاولاته في سرقة بضع دقائق لينامها بغية الراحة من التأوه والألم.. وصف الطبيب له عقارا يمكنه من النوم قهرا، تناوله في لهفة بعدها لم يشعر بشيء من حوله.. استيقظ بعد ساعات وهو يمسك بقطعة القماش المبللة التي وضعتها زوجته فوق رأسه لتخفف شيئا من درجة حرارة جسمه الملتهب.

أخذ يفرك عينيه، كومة من الأدوية بجواره وليس بالحجرة إلا صوت زوجته ساجدة تبكي وتدعو بدعاء أبكاه.. كان دعاؤها يعكس صفاء نفسها وشفقتها ووفاءها لزوجها «اللهم إن هذا زوجي وأبي وأخي وقد مسه الضر فاكشف عنه ضره وعافه وأنت أرحم الراحمين».. تكرر الدعاء في خشوع من دون ملل، وتلح على الله الرحيم ودمعها كشلال حتى خال أنه يستمع إلى قلب مذبوح ينطق بشفتين.. تركها حتى انتهت من صلاتها، وراحت تقترب من فراشه وهي تمسح بيد دموعها وقد وضعت الأخرى على جبهته لتطمئن على درجة حرارته.. أنفرج ثغرها عن ابتسامة مشفقة حنونة وقد أمسك بيدها في شكر ووفاء أيضا. قالت في حنو بالغ: اطمئن، فأنت بخير، لقد طمأننا الطبيب الذي يباشرك، ولقد دعوت الله لك وكلي ثقة أنه لن يرد دعائي ولن يخزينا فيك أبدا، هطلت من عينيه دموع ما استأذنت، ولم يدر إن كانت تهطل بسبب ما قرأه في وجه زوجته من خوف ولهفة أم بسبب وفائها ودعائها ورقتها، أم هما معا؟ أجاب بصوت رقيق: زوجتي، لقد استجاب الله دعاءك حقا، فما عدت أشعر بشيء مما كان يلازمني من ألم، ربما لأنك استخدمت سلاح المؤمن، فدفع الله به الكروب وحقق المطلوب، لقد ناجيت ربك بجوف الليل ووقت السحر وهو وقت نزول الرحمات واستجابة الدعوات فلم يردك الكريم خائبة.

● محمد أحمد عبدالقادر محمد

القراء الأعزاء: نستقبل اقتراحاتكم و مساهماتكم التي من شأنها إشاعة الخير بين ربوع الأمة على البريد الإلكتروني:

info@alwaei.com

حل علة الأفكار

يكاد العالم الإسلامي يعيش واقعا لا يخلو من الأزمات الخانقة، بيد أن الأزمة التي طوقت جسده وشلت حركته هي أزمة الأفكار، ونعم الفكر الرفيع والقول السديد ذاك الذي جادت به قريحة المفكر مالك بن نبي في هذا المجال، حين بين أن علة العالم الإسلامي لا تكمن في الشخوص ولا في الأشياء، بل في الأفكار: بين إقباله عليها وإدباره عنها، بين أصالة منبعها وتجديد فعاليتها، بين معركة الأفكار الأصيلة والأفكار الغريبة القاتلة.

فبعد ذاك الرعيل الأول ذي الإيمان القوي، وصاحب الهمة العالية، والعقل المفكر المبدع، الذي عاصر تلألؤ الفكرة القرآنية المشعة، وزامن عصر العقل المنتج الولود، ابتدأ العنصر البشري يضعف بعد قوة، ويتهاوى بعد علو، وينبطح بعد استقامة، فضيع رويدا رويدا لذة العلم وتلهف الاستيعاب وأصول التفكير الأصيل، لتفلت معه روعة الإشعاع والبريق الأخاذ، ويكون مصيره الظلمة أو النور الخافت.. فما الحل؟

إن من بين الحلول التي دافع عانها المفكر الجزائري مالك بن نبي – رحمه الله – وبشراسة، فيما يخص مسألة الأفكار، تلك الأصول الثلاثة المتمثلة في: الإنسان الأفكار والأشياء، ومدى التفاعل السليم بينها، شريطة أن تعطي هذه الأصول أحسن طلائعها، إذ يمثل الإنسان أول حل في هذه المعادلة؛ كونه محور التغيير وحركة عجلة الأفكار، وكذا الأشياء، فعزيمة الفرد وإرادته هما اللتان تجران فكره، وبهما معا يسخر الإنسان ما هو مادي في خدمته وخدمة مجتمعه، وهنا يظهر الفارق بين الحضارة الإسلامية الجاعلة من الماديات وسيلة، وبين الحضارة الغربية المتخذة من الماديات هدفا، ويبقى الإنسان وإرادته أول حل في المعادلة.

● زهية فراح

تنوع المقالات

السلام عليكم، وصلني أمس العدد الجديد، وهو رائع بكل المقاييس، بتنوع مقالاته، وعنايته بالعربية، وحواره مع د. محارب، وهديته التي بذل فيها جهد أسطوري، فاختزلت مطولات في علم الصرف؛ لتقدمها في لوحة واحدة، يتبدى في كل مربع من مربعاتها مقدار ما بذل فيها من جهد وتدقيق ومعالجة وتفنن، فجزاكم الله خيرا، وجزى معدها ومصممها أخانا د. يحيى مير علم خير الجزاء، وأوفاه.

وتحية لربان السفينة ومحركها الأستاذ الفاضل فيصل العلي، لك مني كل الود والتقدير، رحم الله أباك، وزادك فضلا وعلما.

● د. محمد حسان الطيان

إحياء الأرض الموات

الإسلام دين ودنيا، بناء وحضارة.. هذه هي حقيقة يسلم بها كل من فقه تعاليم الإسلام ودعوته الحضارية السامية، وما ذلك إلا لأنه دين عالمي لا تحده حدود مكانية أو زمانية.

وتقتضي عالمية الإسلام أن يدعو إلى إصلاح العالم وإحياء الأرض، ومن ثم فهو يهدف إلى انتشار العمران في العالم وتحقيق الثروة والقوة للمسلمين، ولذا يدعو أتباعه إلى الانتشار في الأرض وإحياء مواتها.

والموات من الأرض: هي الأرض التي لم يسبق تعميرها، وليست ملكا لأحد. ويكون إحياؤها بتعميرها وجعلها صالحة للانتفاع بها في السكنى والزراعة ونحوهما، وذلك بتحويضها بالبناء، أو بتوفير الماء لها وغرس النبت والشجر فيها على حسب ما يقضي به العرف بين الناس.

وأراد الإسلام أن يحفز المسلمين لإحياء الموات من الأرض، فجعل الأرض الموات لمن أحياها؛ فقد روي عنه ﷺ أنه قال: «من أحيا أرضا ميتة، فهي له» (رواه أحمد والترمذي والنسائي). وفي رواية أخرى: «من عمر أرضا ليست لأحد فهو أحق بها» (رواه البخاري وأبو داود وأحمد ومالك في الموطأ).

● د. ماهر عباس جلال

خطر الكلمة

عندما تكتب الكلمة فهي كالرصاصة إذا خرجت من السلاح فلا يمكن ردها. وهي تمثل خطرا بالغا على المجتمع والناس. فإذا لم يراع الكاتب حقيقة ما يكتب أو ما يقول، تصبح الكلمة طلقة طائشة؛ فكم من كلمة أشعلت نيران الحروب أو أدت إلى سلام، وكم من كلمة غيرت مسار حياة الإنسان، وكم من أناس ندموا أشد الندم على كلمة قالوها، وكم من كلمة خربت بيوتا أو ألفت بينها!

إن الإنسان يدخل الإسلام بكلمة ويخرج منه أيضا بكلمة، وينعم الإنسان في الآخرة بكلمة ويعذب في قبره بكلمة، وتحل الزوجة لزوجها بكلمة وتحرم عليه بكلمة، والثواب والعقاب رتبهما ربنا جلا وعلا على كلمة. إن خطر الكلمة شديد، فربما يقول الإنسان كلمة يهوي بها في نار جهنم سبعين خريفا، وربما يقول كلمة يصل بها إلى الدرجات العلى من الجنة، يقول تبارك وتعالى في محكم التنزيل: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾﴾ (ق:١٨)، هذه واحدة.

أما الثانية فقد قال الله عزوجل: ﴿مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ﴿٢٤﴾﴾ (إبراهيم:٢٤) هذا عن الكلمة الطيبة.. أما عن الكلمة الخبيثة فقد قال تعالى: ﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴿٢٦﴾﴾ (إبراهيم:٢٦). يقول المبعوث رحمة للعالمين ﷺ: «وهل يكب الناس في النار على وجوههم إلا حصائد ألسنتهم». إن الكلمة إذا أطلقت بالكتابة أو بالكلام فلابد لقائلها أو كاتبها أن يتقي الله قبل أن ينطق بها أو يكتبها، فإن الخطر متحقق في الاثنين معا.

إن المثل الشهير الذي يقول: «لسانك حصانك إن صنته صانك»، هو واحد من أروع الأمثلة العربية التي تعبر عن خطر الكلمة.

● محمد السيد عامر

النظريات الفقهية

استلمنا العدد رقم ٦٠٠ من مجلة «الوعي الإسلامي»، وقرأنا جميع محتوياته ودرسناها، فوجدنا أن البحث حول الفقه الافتراضي - رؤية مقاصدية، بحث جيد، ونرجو أن يكون في كل عدد من الأعداد المقبلة دراسة حول موضوع من الموضوعات الفقهية الجديدة، ويا حبذا لو كتبتم أو نشرتم سلسلة بحثية عن النظريات الفقهية الجديدة وأنواع الفقه الإسلامي، فهذه السلسلة ستفيد.

وكذلك نشر أعداد خاصة للمجلة حول المعالم العصرية التاريخية في البلدان العربية.

وأثمن جهودكم العلمية وأقدرها تقديرا بالغا.

● **أمين العثماني**
Islamic Fiqh Academy (India)

المحرر: نشكركم على حسن المتابعة.
اقتراحاتكم جديرة بالدراسة، وسنبحث إمكانية تحقيقها على أرض الواقع في أقرب وقت ممكن.

الزكاة أساس التراحم

الزكاة هي الركن الثالث بعد الشهادة، والصلاة. وجاءت مفردة «الزكاة» ملازمة لمفردة «الصلاة» في القرآن الكريم في ثلاثين موضعا تقريبا، إنها ملازمة لها هدف وحكمة. فالزكاة فرضها الله وحدد مستحقيها ولم يترك ذلك لبشر، والنبي ﷺ حدد الأنصبة، فهي معجزة تميزت بالخلود والاستمرارية، ومن إعجازات الزكاة صلاحية قوانينها وأنظمتها حتى اليوم، ولم يظهر دليل على بطلان هذه القوانين، واستيعاب هذه القوانين لجميع مستجدات الحياة خلال أربعة عشر قرنا، ومن طبيعة القوانين خاصة التغير تبعا لسنة الحياة. والزكاة تكافل اجتماعي، ويبرز هذا التكافل من خلال النظرة الإجمالية لحياة الإنسان الفرد ضمن المجتمع، له ثلاث مراحل، ففي زمن الطفولة المجتمع يقدم للطفل، وفي الشيخوخة المجتمع يقدم للشيخ، بقيت المرحلة الوسطى من العمر، وهي المرحلة الإنتاجية لتسديد ما مضى من دين الطفولة، وفيها تخزين لمرحلة الشيخوخة، وعليه دين ثالث للمعاقين غير الطفولة والشيخوخة، لأن في المجتمع الأعمى والأصم والمعتوه والمجنون والعاطل نتيجة الحوادث الطارئة.. فالمبصر يزكي بصره في خدمة الأعمى، والقوي يزكي قوته في خدمة الضعيف، وهذا يعطي المسلم ميزة بأنه من الأساس يتحرك حركة تسعه وتسع غيره، لأن النية أصلا مبيتة لمساعدة الآخرين، وهذا مستوحى من آيات الزكاة.. والزكاة نظام تأميني للجميع، ودواء نفسي يعالج الذي يدفع والذي يأخذ، الأول: من الشح، والثاني: من الحسد. وقد خسر العالم الإسلامي الكثير بغياب الزكاة.

● **هناء ثابت**

التحليق نحو باب اللّه

الظلال المنعكسة من الآية التالية ترسم مشهدا أخاذا وتشخص إحدى الحالات التي يصل إليها الإنسان في مواجهة عثرات الحياة حتى ولو كان في قمة الإيقان بأن عناية الله لن تتخلى عنه أبدا، لكن الطبيعة البشرية تنازعه يقينه وتجعله، إذا لم يكن متحصنا بمحكمات العقيدة في الله مع المداومة على تمتين وشائج تربطه بالسماء، يلتجئ إلى بدائل غير مشروعة أو ينهار قبيل لحظات الانتصار، وذلك حيث يحكي لنا مناجاة نبي من أنبياء الله جرفته موجة عارمة من التسخط على فجاجة قومه فانطلق مغاضبا: ﴿فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾﴾ (الأنبياء:٨٧).

وبقراءة أولية للوضع النفسي المتزلزل الذي تشير إليه هذه الآية الكريمة، يتبين لنا أن من أشرس أعداء الإنسان في هذه الحياة الانزلاق إلى وهدة القنوط ساعة تحاصرنا خطايانا وتضرب ذنوبنا حولنا حصارا سميكا (في الظلمات) وخاصة عندما تتخذ وضعا ماديا متجسدا كما الحال في قصة نبي الله ذي النون. والخطر أن ينزغنا الشيطان فيوحي إلينا زخرف القول ويزين لنا الكف عن تحريك اليد للإمساك بأي خيط يمكن أن يكون قارب النجاة التي تعيدنا إلى دائرة فضل الله ورحمته ورضوانه، عند هذه النقطة نفقد أهم دافع للسير نحو الأمام والإيقان بأننا نستحق الحياة الإيمانية وأن الآخرين ينتظرون منا أن نقدم لهم شيئا؛ وخاصة في تلك اللحظة الحرجة التي نشعر فيها بأن يد الله الحانية قد تخلت عنا وأننا قد انزلقنا إلى حظيرة الطرد وأن الموجة الآتية هي التي ستبتلعنا بدلا من أن تكون هي التي بعثت بها العناية الربانية لتنتشلنا وتعود بنا إلى شطآن الأمان حيث تنتعش الروح فتنشط الجوارح لتعويض ما فات من الخيرات.

لكن هذه الطاقة الطبيعية والخلاقة الكامنة في كل إنسان، تحتاج إلى مدعمات خارجية تمكنها من التبرعم والنمو حتى تصل إلى مستوى الصلابة بحيث نحول ما نقترفه من موبقات (فاحشة، السيئات..) إلى وقود نظيف للمضي في طريق الأوبة إلى رحاب الله ونداوم على العروج حتى إذا استقمنا على الطريق اللاحب الموصل إلى رضوان الله نفخنا تلك الروح الوثابة التي تسكننا فيمن حولنا: ﴿وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا ﴿٧١﴾﴾ (الفرقان:٧١).

ساعة نمعن النظر في سورة يوسف نفاجأ بالمشهد الأول يختزن كل عوامل القنوط ثم تأتي الوقائع واحدة تلو أخرى تؤكد بأن دائرة الآلام تتسع باستمرار دالة على أن المشهد الختام لا يمكن إلا أن يكون في غاية القتامة، لكن النهج القرآني التربوي يرسم خطا موازيا في تلك الكلمات الهادئة الواعدة التي كان الأب المكلوم يلقيها بين فينة وأخرى في كل مرة حاول فيها أبناؤه دفعه إلى الانكفاء.

ولاستجلاء هذا المعنى هيا بنا نتأمل في المقطعين التاليين من قصة يوسف وإخوته مركزين على تلك اللحظات التي تختنق الروح فيها بسبب ما يعتري تلك الشعلة الهادئة الهادية من انحصار الضوء فتظلم جنبات الروح حتى إذا ظننا بأننا وصلنا في الانحدار إلى قاع اليم انبجست الشعلة واتقدت مجددا فنرى المسار كله يتحول نتيجة لسعات الخطايا: ﴿قَالُوا۟ تَٱللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ ﴿٩١﴾﴾ (يوسف:٩١). ﴿قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا ٱسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَٰطِـِٔينَ ﴿٩٧﴾﴾ (يوسف:٩٧).

د. محمد سعيد باه
أكاديمي سنغالي